أشرف العشماوي

الجمعية السرية للمواطنين

رواية







الجمعية السرية للمواطنين

أشرف العشماوي

رواية

(الحياة جديرة بالاهتمام إذا لم تكن عاقلًا)

معتوق رفاعي

إهداء

إلى هؤلاء...

الذين لم يعيشوا الحياة بعد وكانوا يحاولون

النجاة من أيامها فقط.

أشرف العشماوي



1

ربما كان هذا الاجتماع غير المتوقع هو الأخير لأعضاء الجمعية السرية للمواطنين ، ومع ذلك عندما اتخذوا أماكنهم حول طاولة الاجتماعات ظل الصمت سيد الموقف، الوجوم هو القاسم المشترك بينهم ثم لعب القلق دورًا أساسيًّا في توترهم بقية الوقت . وفقًا للائحة ترأس المحامي الشهير الجلسة بسبب غياب مؤقت للرئيس، من وسط كل الأعضاء بدا الطبيب أكثرهم هدوءًا، يكاد يبتسم مثل طفل لا يقدر حجم الخطر، ربما لحداثة انضمامه، وفي حين انتهى أمين صندوق الجمعية من قضم أظافر أصابعه العشر حتى جرح إحداها، أغلق مدير الحسابات الجالس إلى جواره دفتر محاضر اجتماعات مجلس الإدارة بعصبية ملفتة، هاتفًا أن لا شيء الآن يستحق التدوين، تلك لحظة أفعال،لا كلمات وأرقام ونقاشات كالمعتاد، سكت برهة ثم مسح عرقًا غزيرًا رغم برودة طقس أيام يناير الأخيرة وهو يعلن استعداده لتحمل المسؤولية كاملة، لكن المواطنين لم يصفقوا هذه المرة، فكلهم تورطوا مثله ومسؤولون ربما أكثر منه.

أطرق مندوب توزيع المنحة الشهرية في يأس متوقعًا الأسوأ كعادته، ودخل بقية الأعضاء في شرود عميق وسط دخان السجائر الكثيف، الوحيد الذي ظل متمسكًا بالأمل كان الشاب الصغير طالب كلية الهندسة، ثم قطع صمتهم طرقات منتظمة، انفتح الباب بعدها من غير إذن، لتظهر بائعة الحلوى بملامح حزينة وأعين منتفخة لم تر النوم وكأنها فرغت لتوها من بكاء طويل، اعتذرت عن التأخير متعللة بخطورة المهمة التي كلفوها بها، تعلقت بها النظرات انتظارًا لكلمة تطمئنهم على نجاحها في مهمتها، طمأنتهم بأن ابنة المرحوم نائمة الآن فوق السندرة، ارتاحت ملامحهم مؤقتًا وأفلتت تنهيدات طويلة من بعضهم، ربما كانت مخنوقة وتتلمس أي حجة للخروج.

«السادة المواطنون .. أعضاء الجمعية السرية« .. أخيرًا تكلم المحامي الشهير، راح يحفزهم ويذكرهم بكلمات رئيس الجمعية مفضلًا إرجاء الحديث عن الخطة البديلة حتى يرى منهم بعض الهمة والحماس، فجأة دق جرس هاتف بلا صاحب فوق المنضدة، تبادلت العيون النظرات حتى امتدت يد أحدهم لتلتقطه بلامبالاة، استمع لحديث قصير وهو يعتدل بجلسته بعدما تقلبت ملامحه، ثم

أغلق الخط وقد اسود وجهه.. ابتلع ريقه بصعوبة وهو يخبرهم بصوت متحشرج أنهم مطلوبون لأخذ أقوالهم أمام جهة التحقيق، قبل أن تنزعج ملامحهم ألقى لهم بالخبر الأسوأ وهو يتهيأ للنهوض، لكنه كاد ينكفئ على وجهه بسبب انحشار طرف ساقه في نهايات السجادة المهريَّة.. «تفتيش غرفة الرئيس سيتم خلال ساعات«، قالها وولى وجهه شطر المحامي الشهير في انتظار إعلان الموافقة على ما اتفقوا عليه وتعاهدوا على تنفيذه، أشار لهم المحامي ناحية اللوحة التي تزين الجدار، لتتعلق أبصارهم بها ويعود الصمت لصدارة المشهد، لكنه هذه المرة صمت مختلف عما أتوا به.

*****

ذات صباح في يوم عادي أشرقت شمس تميل للكسوف على أشخاص عاديين، لعبوا دور البطولة في مسلسل حياتهم لأول مرة لكنه لم يُعرض بعد، ومعتوق رفاعي كان واحدًا من هؤلاء الأبطال الذين لا تُعرض أعمالهم أبدًا.

قبل هذا اليوم ببضعة أسابيع وقبيل أن يطوي عام 1976 شهره الأخير انتهى معتوق من رسم اللوحة الأهم في مسيرته الفنية المغمورة، لم يضع اسمه عليها كالمعتاد، وقتها كانت غيوم سرقة أغلى مقتنيات متحف "محمد محمود خليل وحرمه" بالزمالك تظلل أحلامه، تحدها وتحاصرها، وهو لا يستجيب، صاحبه تردد البدايات عندما عرض عليه زميله وجاره غريب أبو إسماعيل مشروع الفكرة، ثم قبلها على مضض كبديل لتعاونهما العقيم، وما بين التردد والقبول قصة قصيرة تستحق أن تروى.

كل شيء كان ممكنًا في القاهرة منتصف السبعينيات، الجميع جاهز لتنفيذ الخطة واحتمالات الفشل شبه معدومة، كلمة السر هي الوقت ومفتاح النجاح هو الثقة. يومها كانوا ثلاثة، أنهوا ارتداء الملابس الميري بشقة مستأجرة في حي بولاق ببطاقة مزورة تحمل صورة معتوق رفاعي، تسيدت ابتسامة ثقة ملامح معتوق عندما وقعت عينه على النجوم الثلاث الذهبية التي تلمع فوق كتفيه، نظر لنفسه في زهو أمام المرآة وهو يضبط الكاب على رأسه، ثم التفت للمعاونين اللذين أحضرهما

غريب، رفع البيريه قليلًا لأحدهما واستعدل سترة الثاني، تنهد بعمق بعدما صار راضيًا عن هيئتهما.

استقلوا سيارة فيات بيضاء مسروقة، عبروا كوبري أبو العلا في طريقهم لقصر الأمير عمرو إبراهيم بالزمالك، ظل طوال الطريق يتذكر كم مرة زار فيها المتحف ، كيف دخله من باب الشغف ثم سار في أروقته مدفوعًا بالفضول، وأمضى بردهاته ساعات طويلة لوضع الخطة بعدما سال لعابه وغمره الغرور، اكتشف بسهولة أن الحراسة دائمًا مقتصرة على ثلاثة، اثنان منهم مجندان أبلهان واقفان على الباب المؤدي للردهة الرئيسية، وعند مغادرته يرفع ثالثهما كفه بالتحية من بعيد، صول عجوز لا يصادفه معتوق إلا جالسًا ليشرب الشاي، كاشفًا عن ساقيه مستمتعًا بشمس الحديقة القبلية. تولدت لديه قناعة أن الدخول والخروج أسهل من إلقاء عقب سيجارة بالطريق، لكن الخوف من التنفيذ ظل مصاحبًا له حتى ضغط عليه غريب أبو إسماعيل، ومثلما تفعل حكومات العالم الأول مع دول الدرجة الثالثة ، صار الحصار اقتصاديًّا، توقف غريب عن بيع لوحات معتوق التي كان ينسبها لنفسه ويتقاسمان ثمنها ، مع الوقت عَضّ الفقر معتوق عَضة خفيفة لكنها آلمته، لم يُطبق الفقر فكّيه بعدها، ربما أراد إعطاءه فرصة ثانية للتفكير . نجح الحصار الذي فرضه غريب عندما فشل معتوق بمفرده في بيع لوحة واحدة تحمل توقيعه، فاستسلم أقوى حصونه.. عقله، ومن بعده سار خلف طمعه بكل ضعفه، غير مدرك أنه سيخسر أعز ما لديه بعد قليل، سيحصل على زَهرة غالية وستقتلع زَهرة أغلى من حديقة حياته.

دخلوا من البوابة الرئيسية المفتوحة كالعادة في ذلك الوقت من نهار الجمعة، مُرحبة بالسارقين والزائرين على السواء لا أحد يدقق، مرقت سيارتهم الضئيلة منها وهي تزمجر ، ارتقوا منحنى صغيرًا يؤدي لباب الدخول، ترجلوا متجهمين، متعمدين صفق الأبواب وراءهم بعنف وفقًا للخطة. التفاصيل الصغيرة إذا ما وضعت بجوار بعضها تعكس انطباعًا كبيرًا بالهيبة، لتكتمل القصة بحبكة درامية مُحكمة ومشوقة حتى لو كان الراوي بطيئًا.

انتبه المجند المعين لحراسة المكان إلى وجودهم فانتفض، ما إن وقعت عيناه على كتفي معتوق حتى أدى له التحية العسكرية ووقف ثابتًا كعمود إنارة، في حين هرول المجند الثاني بدفتر نوبتجية حراسة المتحف ظنًّا منه أنها حملة تفتيش تابعة لوزارة الداخلية، سألهما معتوق بعنجهية عن بقية

أفراد القوة مُشعلًا سيجارة ليبتلع توتره مع دخانها، بالكاد فهم من تأتأة أحدهما أن الحراسة اليوم مقتصرة عليهما، بعد حصول الصول العجوز على إجازة لمرض جاموسته في قريته ببنها.

أمر معتوق أحد معاونيه بفتح حقيبة السيارة وإخراج الفرخ الملفوف بعناية منها، واستدعى شخصية الضابط من داخله بصورة مستوحاة من أمين شرطة يراه بقسم حلوان ولا يفعل شيئًا سوى الصراخ في المواطنين، غالبية صراخه بكلمات غير مفهومة لكنها موحية بهجوم شرس مرتقب إذا ما تلكأ المتلقي في تنفيذها، نظر معتوق لمجندي الحراسة البائسين وصرخ في الفراغ:

- افتح باب المتحف يا ابني إنت وهو.

لم يتردد المجند الأول وهَمّ الثاني بمساعدته مرتجفًا، فُتحت الأبواب، كان معتوق أول الداخلين، اتجه أقصى اليمين، إلى مكان يحفظه مثل اسمه، الجناح الذي يضم لوحة فان جوخ الأشهر، أشار للمعاون الأقرب له فنزع «زهرة الخشخاش» من إطارها بموس رقيق تمهيدًا لوضعها بالسيارة، وقف معتوق فوق رأسه لمتابعته وإرشاده، يكاد قلبه ينخلع من ضلوعه كلما مر النصل الحاد فوق الحواف وكأنها عروقه هو، بدا مثل طبيب كبير يُشرف على جراحة دقيقة يُجريها مساعده لأول مرة، خرجت اللوحة من إطارها ترفرف بيد المعاون، تهلل وجه معتوق كأنه يستقبل مولودًا جاء للحياة بعد مَخاض طويل، ثم طلب من أحد المجندين فَض تغليف قطعة القماش الثانية التي أحضرها معه بغير إطار، صارخًا بنبرة عصبية في الثاني:

- حط اللوحة دي مكانها يا دُفعة عاوزين نخلص.

كان قد أعد إجابة مسبقة إذا ما شك المجندان الأبلهان في أمره، راح يستعيد كلماتها في عقله لتخرج مُرتبة.. «اكتشفنا أن اللوحة المعروضة مزيفة وأجرينا التحريات فضبطنا المتهمين وتمكنّا من إعادة اللوحة الأصلية للمتحف لتوضع في مكانها».

كلمات تليق بتصريح لمدير الأمن في الجرائد القومية، لكن لدى معتوق قناعة كبيرة أن تطابق اللوحتين سيُضفي على كلماته المصداقية المطلوبة، لدهشته نفذ المجندان الأمر في صمت، ربما ظنا أنهما مُقصران في عملهما فسبقتهما الهِمة حتى وضعا اللوحة المقلدة مكان الأصلية.

تسمر معتوق في مكانه لأكثر من دقيقتين عن الوقت المقدر لعملية السرقة، لوحته المقلدة تزين جدار المتحف، لحظة فارقة ينبغي أن يتوقف الزمن عندها لينحني تقديرًا لموهبته، لحظة لن ينساها طوال عمره، وربما خضع لضغوط غريب أبو إسماعيل من أجلِها، اقترب من اللوحة خطوة ومال ناحيتها كأنه يتشمم رحيقها، اتسعت ابتسامته، لوحته تضاهي زهرة الخشخاش الأصلية في جمالها وخطوطها وألوانها، وربما تفوقها دقة، ها هي تتصدر الجدار الغربي، ومن الغد ستُفتح الأبواب للجمهور ليمتعوا عيونهم بتحفته الفريدة. ربما يخبر التاريخ يومًا العالم بأسره أن اللوحة المعروضة بمتحف محمد محمود خليل من إبداع الفنان العالمي معتوق رفاعي، لا شك لديه أن تلك اللحظة باتت قريبة، صار مثل فان جوخ، كلاهما رسم زهرة الخشخاش لكنهما اتفقا على توقيع واحد يوضع عليها باسمه، لا يهم أن يكون «معتوق» أو «فينسنت» كما اعتاد فان جوخ التوقيع باسمه الأول، المهم أنها الآن لوحته هو، ومن اليوم لن يعود لمقاعد المتفرجين أو أرائك الظل، سيجلس في المقدمة ليصفقوا لإبداعه وحده فقط.

أغمض عينيه مكتفيًا بإيماءة خفيفة، ثم لوح بكفّيه في الفراغ بعدما هُيئ له سماع تصفيق لا ينقطع، حتى جذبه معاونه الأقرب من ذراعه برفق وهو يشير لساعته فأعاده لواقعه.

مَسح معتوق وجهه عدة مرات كأنه يزيل آثار حلمه كي لا يُضبط متلبسًا به، توجه للسيارة بخطى عسكرية سريعة، في لحظة أوشك على الهرولة ثم تماسك، أمر معاونه الجالس وراء عجلة القيادة بالتحرك، دار المفتاح عدة مرات وهو يُصدر أصواتًا متتالية تُنبئ باستجابة وشيكة آتية من المحرك لكنها لا تكتمل، مع المحاولة الرابعة بدأت حبات عَرق تتلألأ على جبهته، الصوت يعطيهم أملًا ثم يسحبه بسرعة، ظل القدر يتسلى بهم ويتلاعب بأعصابهم، وهم محشورون بالسيارة كفئران حائرة اكتشفت أنها دخلت مصيدة قبل أن تلتهم قطعة الجبن،فشغلها الهرب عن الجوع، وبينما ترقد بصندوق السيارة خمسة ملايين دولار نائمة على ظهرها كان المجندان البائسان يرفعان كفّيهما بالتحية العسكرية من وضع الثبات في انتظار انصراف معتوق ومعاونيه، لكن المحرك لم يستجب.

*****

الحياة مثل فيلم سينمائي طويل لا يصح أن نكون طوال عرضه من المشاهدين، ومنذ بدأ معتوق في تقليد لوحة زهرة الخشخاش قرر القيام ببطولة الفيلم وحده.. لن يظهر ككومبارس في لقطة عابرة، أو حتى نجم كبير مُشارك بدور صغير، سيكون البطل الذي لا يُضبط ولا يموت حتى مشهد النهاية مثلما يحدث في كل أفلامِنا.

ظل الصمت يسدل ستائره على معتوق وشريكيه حتى منحه القدر دور البطولة مرة ثانية، سَرَت همهمة، ثم تجرأ أحد المجندين دون رفع عينيه عن الأرض قائلًا:

- العربية محتاجة زقة صغيرة يا باشا أؤمرنا وإحنا تحت أمرك.

ربما لم تخرج الكلمات واضحة من شفتي معتوق، وربما لم يقل شيئًا مفهومًا، لكن المجندين تحركا إثر إشارة يائسة من كفه بعدما سيطر الخوف على عقله، مفتاح النجاة بيد المجندين، وها هما يقدمانه كقرابين له وحده، مُنحنيين في خنوع مع أنه لا يملك رفاهية الرفض.

أفلتت ضحكة مكتومة من المعاون الجالس بجوار السائق، عندما التفت بنصف جسده متابعًا المجندين وهما يدفعان السيارة بصعوبة، على يسارهم نادي الجزيرة وعن يمينهم نقطة شرطة، ما إن مَروا أمامها ببطء حتى انتفض المخبرون والعساكر الذين كانوا جالسين بمدخل بوابتها مسترخين ليعاونوا مجندي المتحف.

دُفعت السيارة بقوة شرطة حقيقية يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، هِمة وعَزم حقيقِيان دَفعت معتوق لفتح زجاج السيارة وتشجيعهم لزيادة حماسهم حتى دار الموتور كعجوز يسعل، تمتم معتوق بالدعاء ليكمل دورته فاستجاب لدعائه وعلا صوته حتى انتظم. أخرج ذراعه من النافذة الخلفية للسيارة ملوحًا لرجال الشرطة شاكرًا مساعدتهم، أدوا له التحية العسكرية وهم واقفون صفًّا منتظمًا وربما دعا له بعضهم سرًّا، ظل يتابعهم قلقًا بالتفاتة خاطفة كل برهة عبر الزجاج الخلفي حتى غابوا عن نظره.

تنهد بعمق وخلع الكاب ليمسح عرقًا غزيرًا طالبًا من السائق مضاعفة السرعة، بينما راح ثالثهم يَمزح بأن الشرطة في خدمة الشعب حتى رماه معتوق بنظرة غاضبة أخرسته. عبروا كوبري قصر النيل ثم توقفوا عند أقرب كشك مرطبات من ميدان التحرير، فيما يبدو اعتاد معتوق على التحية العسكرية التي أداها له صاحب الكشك في جدية بالغة، تمادى متظاهرًا بلامبالاة ولم يرد

تحيته، ثم انشغل بإجراء مكالمة من التليفون الأسود الموضوع على رف خشبي بارز. ما إن سمع صوتًا مبحوحًا على الناحية الأخرى حتى وضع كفه على السماعة وهو يقول:

- أنا جاهز والأمانة معايا.

- قابلني عند سور جنينة الميريلاند بعد ساعة، الطيارة باقي عليها أربع ساعات مَفيش وقت.. اتحرك بسرعة يا رفاعي.

هرول معتوق عائدًا لمعاونيه، ونسي في غمرة انشغاله سداد قيمة المكالمة لصاحب الكشك، من المؤكد أنه تلقى سبابًا مكتومًا، فالرجل لن يجرؤ على طلب المقابل أيًّا كانت الخدمة المؤداة بسبب زي الضابط الذي يرتديه.

خلعوا السترات السوداء الرسمية تباعًا أثناء سيرهم بالسيارة، كي لا يلفتوا نظر الشرطة إذا أعدت أكمنة بالطريق لاستيقافهم . عند اقترابهم من سور الميريلاند لمح معتوق غريب أبو إسماعيل واقفًا بجوار سيارة حمراء تحمل لوحات معدنية خضراء تابعة لهيئة دبلوماسية، لم يعرف البلدة التي يرمز لها رقم اللوحة، ووجد صعوبة في تبين ملامح ركابها الثلاثة بسبب نظاراتهم الشمسية الضخمة، سلم اللوحة بحرص كأنها طفلته لغريب الذي حصل على حقيبة سوداء من الجالس بالمقعد الخلفي بعدما فض التغليف وألقى نظرة سريعة على زهرة الخشخاش فبرقت عيناه.

تحركت العربة الحمراء في اتجاه المطار وبقي غريب والحقيبة معهم، تبادلوا نظرات النصر بعدما نجحت السرقة وحان وقت توزيع الغنيمة وتحقيق الحلم، لكن غريب رأى أن الجريمة ليست كاملة بعد.



2

مثل سردينة محفوظة بعلبة صغيرة مع عشرات أخريات، جلس معتوق على مقعد مجاور للممر بمنتصف أتوبيس نقل عام، بالكاد حصل على المكان بعدما تجاوز خمس محطات محشورًا بين المواطنين، عاد لحلوان بمفرده عندما صمم غريب أن يغادروا متفرقين، تركوا السيارة المسروقة بشارع جانبي قرب الميريلاند وقبلها سَلم معتوق بطاقته المزورة التي استأجر بها شقة بولاق ومفتاحها لغريب أبو إسماعيل كي يتخلص منهما بطريقته، لا اختيارات لديه الآن وهو محشور وسط كتلة بشرية تُخرج روائح اختلطت عليه، حتى بات لا يشم منها إلا واحدة كريهة بتنويعات مختلفة. ولّى وجهه شطر النافذة القريبة يتلمس بعض النسيم، فالبديل الآخر مؤخرة طرية لسيدة خمسينية، تكاد تعلن عن قرب هبوطها فوقه بعدما التصقت بنصف وجهه، ثم حُرم من هذه المنحة في المحطة السابعة عندما استدارت السيدة ورمته بنظرة غاضبة من كثرة احتكاك أنفه بها.. تظاهر بالبلاهة فلن يفلح في إقناع السيدة أنه أنف آدمي ولا شيء آخر مما دار برأسها.

عاد لشروده لا يسمع ما حوله ولا يرى من النافذة سوى أطياف وخيالات تجري، لا يزال سور الميريلاند بفتحاته الضيقة يخنق ذاكرته، عندما تركه غريب وقفز في سيارة أجرة حاملاً حقيبة بها نصف مليون جنيه مصري كان على وشك اقتسامها معه، ثروة قادرة على جعل كل الأماني ممكنة.. "أتيليه معتوق" في أرقى مكان بوسط البلد، سيارة مرسيدس جديدة، شقة واسعة بمدينة المهندسين ، درجة دكتوراه من أوروبا لزوم الوجاهة، الحلم اكتمل ولم يتبقَّ سوى الاستيقاظ لتنفيذه، لكن غريب قرر تأجيل أحلام معتوق كلها دفعة واحدة، أصدر فرمانًا بالانتظار ليرى ما إذا كان القائمون على إدارة المتحف سيكتشفون السرقة أم يظلون على تغفيلهم، وبعدها يعطيه نصيبه، لكنه قبل انصرافه أعطى المعاونين اللذين شاركا معتوق ألف جنيه ليقتسماها ويختفيا للأبد، طلب منه معتوق زيادتها لهما فرفض، ونهره مُحذرًا من طمعهما لو أجزل لهما العطاء. صمت برهة ثم صاح فيه.. "ألف جنيه تشتري فدان يا فالح".

خَلف غريب عاصفة غضب وراءه بعد كلماته الأخيرة، وترك معتوق وحده أمام أسوار الميريلاند حائرًا فمضى لا يلوي على شيء.

بعد ساعتين نزل معتوق من أتوبيس النقل العام بصعوبة، لم يستطع الصبر لمحطة أخيرة، قرر إفراغ شحنة الضيق في قطع المسافة المتبقية على قدميه ، مَر في طريقه بميدان كبير لا يعرفون له اسمًا في حلوان ، لمح جاره سراج البدوي جالسًا على الرصيف يمد ساقه الخشبية أمامه، ويبسط كفه يتسول المارة فلا تسقط فيها إلا دموعه، هرول ناحيته محاولًا مساعدته على النهوض ففشل بسبب انفعال سراج الزائد، منذ شهور وسراج يمارس التسول بعدما رفضت البلدية طلبه لمرة ثالثة من أجل ترخيص كشك سجائر، لم يعد قادرًا على سد احتياجاته وجوع أولاده لفشله في العثور على وظيفة بسبب ساقه المبتورة، سئم صيد الأسماك بالنيل بعدما فرغ صبره في محاولات بيعها حتى ألقى بعضها في الماء مرة ثانية، واكتفى بإطعام أهل بيته بالبعض الآخر.

- هو الميدان ده اسمه إيه يا بني آدم؟

- ميدان الدوران يا باشا.

ابتسم معتوق لرد سراج التلقائي على قائد سيارة توقفت بجوارهما طارحًا سؤاله بعنجهية واضحة، الاسم عفو الخاطر من تأليف سراج البدوي، ولا حتى محافظ القاهرة يعرف لهذا الميدان العريض اسمًا، ربما ألفه سراج هذا الصباح ليرتاح باله من كثرة السؤال عنه ويتفرغ للتسول في هدوء، ترجل قائد السيارة منها وتقدم ناحيتهما مقطبًا، وجداه فارع الطول، جَهم الملامح، أسفل أنفه شارب مهيب، وتبتلع نصف وجهه نظارة بنية عريضة، له كفّان كخفي الجمل، كان من الصعب عليهما تخيل دخوله للسيارة دون شق سقفها، لكنهما كتما ضحكاتهما مؤقتًا فالرجل لا يبدو ودودًا ، سألهما عن بطاقتيهما الشخصيتين ووظيفتيهما بنبرة يفهم منها الغبي أن محدثه ضابط شرطة، أخرجاهما بسلاسة لتستقرا في كفه العريضة بعدما وقفا وشدا من جسديهما كأنهما مجندان في طابور صباح، أشار الرجل لهما بيده وكأنه يهش ذبابًا ليجلسا فامتثلا، أجابه معتوق بهدوء شارحًا مهنته كفنان تشكيلي، محاولًا الحفاظ على ثباته قدر الممكن رغم أن ضربات قلبه تنافس دقات ساعة جامعة القاهرة، طاف بخاطره أنهم اكتشفوا سرقة اللوحة، وسيقبض الضابط عليه لتظهر تترات كلمة النهاية بعد نصف يوم من البطولة المطلقة التي منحها له القدر في غفلة من الجميع، ظل يتكلم وهو

يحاول تفادي النظر لعيني الضابط، الذي انشغل بسؤال سراج السؤال نفسه قبل أن يُنهي معتوق إجابته الطويلة وبدا أن الضابط غير مهتم بتفاصيلها.

رد سراج بنبرة من ليس لديه شيئًا يخسره:

- على باب الله..

أوجز حاله بصدق، فمنذ قليل كان يتسول قروشًا من المارة ولا يفلح في استجدائهم. استمر الضابط يتفرس فيهما والقلق ينقر رأس معتوق كطائر جائع وسراج لا يبالي، ثم اقترب منهما ونظر لمعتوق بقرف ملقيًا ببطاقته في حِجره، محتفظًا ببطاقة سراج في جيبه، وببرود فاق الهدوء المسيطر على المكان طلب منه الحضور لمكتبه بالقسم في المساء لتسلمها.

تحرك الرجل الجَهْم باتجاه سيارته لكن قبيل انصرافه أخرج من حافظة نقوده جنيهًا جديدًا، أعطاه لسراج ولم يزد بكلمة.

*****

إطلالة خافتة من القمر تتسلل عبر ثقوب ستارة متربة على هيئة سلاسل فضية، تهبط على وجه معتوق الراقد على أريكة قديمة لكنها عريضة ومريحة، بجوارها أنابيب ألوان مبعثرة غالبيتها بلا غطاء، يتدلى من سقف غرفته الخشبي سلك متآكل في نهايته مصباح منطفئ، وتتراص قرب قدميه قطع متناثرة لملابس يغلب عليها اللون الأخضر المفضل لديه، عن يساره بدلة مزخرفة بالغبار مُعلقة على مسمار خلف الباب لا يتذكر متى ارتداها لآخر مرة، فوق المنضدة معلبات لأطعمة محفوظة لم تُفتح بعد، بجوارها ثلاجة قديمة مائلة لولا قالب طوب يحول دون سقوطها، وعلى مقربة منها عشرات اللوحات مكدسة فوق بعضها، مستندة إلى جدار توارى خلف قصاصات ورقية، بينما يرقد في ركن قريب قط أعور هزيل منكمش من البرد ولا يموء إلا نادرًا.

اليوم اصطحب معتوق قلقه معه ليزاحم ضيقه وإحباطه في غرفته، حل عليهما القلق ضيفًا ثقيلًا ونثر بذوره بكل ركن فيها، لم يتوقف رأسه عن التفكير فيما حدث منذ ترك سراج البدوي يكاد يطير بجناحين نبتا من السعادة، بعدما اشترى طعامًا لزوجته وولده وتبقى من جنيه الضابط نصفه. فجأة انتفض معتوق في رقدته وضرب جبهته بعنف وهو يرتدي قميصه على عجالة، تذكر فجأة أنه ترك ابنته منذ الأمس مع سعيد راديو الكهربائي، بعدما سلمه ثلاثمئة وأربعين جنيهًا هي تحويشة عمره ليعتني بها إذا ما أصابه مكروه، كان لديه احتمال ضئيل أن يُقبض عليه، وخاف أن تضيع زهرة في زحمة الحياة وهي صبية صغيرة لم تتجاوز الثماني سنوات، ماتت أمها وقت ولادتها وتركتها له ، عاشت مع جدتها ثم اضطرت للانتقال إلى بيت خالها موسى، لكنه تخلى عنها بعد فترة وجيزة، وطلب مبلغًا شهريًّا لتعيش مع بناته فاستردها معتوق راضيًا .

زفر بضيق وهو يركل باب دكان سعيد راديو عندما وجده مغلقًا، اللوحة شغلته حتى عن ابنته.. والأسئلة تتقافز في رأسه كضفادع ألقيت بإناء ساخن لا تملك إجابة عن ملابسات تورطها ولا تفكر سوى في النجاة، يا ترى هل اكتُشفت السرقة؟ ماذا فعلوا مع المجندين؟ لا بد أنهم ما زالوا يوسعونهما ضربًا من أجل معلومة عن السيارة أو خيط رفيع يبدأ من أوصاف السارقين، اعتدل في رقدته مطمئنًا نفسه، ربما لم يكتشفوا شيئًا وسكت المجندان عن الكلام باعتبار أن الشرطة هي التي كانت بالمتحف. نظر في ساعته وجد الوقت متأخرًا للذهاب لبيت سعيد راديو فعاد لغرفته وغاص في أريكته، أغمض عينيه ولم يدرِ بنفسه حتى أفاق على خيوط ذهبية تفترش وجهه، كأن قرص الشمس يحذره من الإفراط في النوم على الأريكة، لا تعرف الشمس أنه لا يمتلك غرفة نوم أو حتى سريرًا، ينام على أريكة عريضة كل ليلة محتضنًا ابنته زَهرة، يتناول طعامه معها جالسين فوقها، يستقبل ضيوفه عليها، وعندما ينوي رسم عمل فني، يستلقي بها في استرخاء في انتظار هبوط الوحي وعند قدومه يرسم واقفًا في الحجرة الثانية الخاوية من الأثاث.

أشعل سيجارة فاكتشف أنها الأخيرة، مال بنصف جسده من النافذة، وجد دكان سعيد راديو مفتوحًا وزَهرة جالسة ببابه كتمثال، تنظر ناحية مدخل العزبة تنتظر ظهوره، خفق قلبه، نادى سعيد فالتفتت هي وقفزت من الفرحة، لوح لها بكفه أن تتمهل، أطبق مشبك غسيل على ربع الجنيه وألقاه ناحيتها، طالبًا منها شراء علبة سجائر، ثم أرسل لها عشرات القبلات في الهواء.

أراد أن تدور عجلة الحياة طبيعية ، اصطحب زَهرة للمدرسة، لن تمانع جارته راوية مُدرسة التاريخ في وصول ابنته متأخرة كالعادة. طوال الطريق وزَهرة تتساءل بعيون قلقة عن سبب غيابه عنها ليلتين، أول مرة يتركها بمفردها، طمأنها بكلمات واضحة ثم ضغط على كفها مرتين فابتسمت، تلك علامة متفق عليها بينهما تعني أن كل شيء على ما يرام. في طريقه لمح فتحي السماوي الساكن بجوار المقهى واقفًا يدخن بشرفته، مرتديًا فانلة داخلية رغم برودة الطقس، بجواره طفله الصغير عصمت يلهو ببالون أحمر، ألقى السماوي بعقب سيجارته نحوه ثم تنبه واعتذر، مرت دقائق تعطل فيها معتوق بدكان سعيد راديو لكنها كانت كافية لظهور فتحي السِّماوي مرة ثانية أمام مدخل البيت، مرتديًا بدلة رمادية ذات أكمام طويلة تميز عمله في بلدية حلوان بقسم مكافحة الكلاب الضالة، تلفت فتحي في ضيق ثم غاب بالمدخل وعاد بلوح خشبي طويل، وضعه بعرض الطريق وعبر فوق بركة مياه ظن معتوق أنها تكونت من أمطار هطلت وهو نائم، حتى أخبره فتحي أن ماسورة المجاري طفحت ولم تجف بعد.

أطلت زوجة فتحي السِّماوي من النافذة وسألته بصوت عالٍ كضابط عصبي المزاج بكمين شرطي في عز الظهيرة:

- على فين يا سي فتحي، هي الوردية أربعة وعشرين ساعة كل يوم؟

رَد دون أن يلتفت ناحيتها كي لا يفقد توازنه ويسقط في بركة المياه :

- رايح فينسيا يا ولية.. المدينة العايمة في إيطاليا اللي بنصيّف فيها كل سنة.. فاكراها؟

أغلقت زوجته ضلفتي الشيش بعصبية وهي تبرطم، بينما ابتسم فتحي في مرارة، تجاوز معتوق الأمر وهو يسأله عن بندقيته الخرطوش التي يصطاد بها الكلاب الضالة، اقترب فتحي منه هامسًا أن زوجة وزير حالي يسكن حلوان اشتكت من دوي طلقات الخرطوش قرب الفجر، فاقتصر استعمال البندقية على فترة العصر، ثم ظهرت أمامهم عقبة أكبر، الوزير لم يعد قادرًا على الاستمتاع بنوم القيلولة، فصدر القرار بأن يكون القتل صامتًا بالسم على مدار اليوم كله. لكن البندقية عهدة لا تريد المصلحة تسلمها فاحتفظ بها مع أنها فارغة.

- وشايلها على قلبك كل يوم والتاني ليه يا عم فتحي طالما بندقية فاضية؟

تلفت السماوي خلفه ثم قال محافظًا على النبرة الخافتة بعناية أكثر:

- العزبة كلها حرامية يا معتوق. كل واحد عاوز يحط إيده في جيب التاني من الطمع والجوع والسلاح له هيبة حتى لو فارغ.

ارتبك معتوق على وقع كلمة «حرامية» فانحرف بالحديث لمنطقة مريحة للأعصاب سائلًا فتحي عن الطريقة الجديدة للقتل.

بدا السماوي سعيدًا وهو يحكي يومياته، تنوع طريقة قتل الكلاب لتتفق مع مزاج الوزير وحرمه مَهدت الطريق أمامه كي يُطعم أسرته اللحم أسبوعيًّا بدلًا من مرة واحدة شهريًّا، يختلس بانتظام نصف كمية اللحوم المخصصة للكلاب، في حين لا يبخل بكمية السم التي يضعها مضاعفة في قطع اللحم المتبقية مُنهيًا حياة أي كلب قبل أن يهضمها.

اقترب أكثر من أذن معتوق حتى كاد يشعر بأنفه يلامس وجنته وهو يهمس مجددًا:

- بذمتك مين الغلطان.. أنا والا الحكومة اللي بتجوعني وعاوزة تأكل الكلاب لحمة علشان تموت وأنا حموت علشان آكلها؟

ابتسم معتوق ولم يرد على سؤاله، يدرك أن فتحي لديه أمل في حياة أفضل بطريقته، وهو مثله وربما كثيرون غيرهما، الأمل وحده من بين كل المشاعر التي بداخلهم هو الذي يدافع عن وجودهم، يلهمهم القدرة على تحمل الحياة في مواجهة ضغوطها، لكن الأمل بالنسبة لمعتوق تحوّل إلى جنون غريب يمتلك الجميع بعضًا منه، جنون يدفعه للأمام في حين كل شيء من حوله عاقل لدرجة الملل.



3

بدا مجمع المدارس الحكومية مثل سفينة ضخمة قديمة غارقة بشروخه ولونه الكالح ونوافذه الناقصة، للمكان قصة يعرفها معتوق ، رواها عدة مرات لراوية لعلها تعيدها على مسامع تلاميذها، شيّده المعماري الإيطالي "دي فوستو" في عشرينيات القرن الماضي ليكون استراحة لسلطان مصر وملكها فيما بعد أحمد فؤاد الأول، لم يدُر بخلد أحد وقتها في بر المحروسة كلها أن صالة البلياردو سيشغلها ناظر المدرسة، وسيترك بعض فصوص الثوم الطرية في سلة صفراء من الخوص بشرفتها كي تجف، وأن غرفة الشاي الملكية ستتحول إلى حجرة للتدبير المنزلي حسبما تشير لافتة من الكرتون فوق بابها، وأن ملعب التنس الغربي ستتنازل عنه الإدارة التعليمية لجنوب القاهرة بإيجار طويل المدى لصاحب جزارة السلطان، وبعدها يتم تسويره لتخزين الجِمال به قبل رحلتها الأخيرة إلى منطقة "المدبح" .

على باب الفصل ظلت زَهرة متعلقة بيد أبيها لا تريد تركها، ظنت أنه سيتركها، حاول إفهامها أنه لن يفعلها ثانية وستخرج في ميعادها لتجده بانتظارها، لكنها استخدمت السلاح الذي يقتله من أول طلقة بل بمجرد إشهاره في وجهه.. بكت بكاءً صامتًا، امتلأت العيون الواسعة بدموع راحت تذرف كسيل منهمر، لم يجف حتى عقدت راوية صفقة معها، أقنعتها بدخول الفصل نظير بقاء معتوق خلف النافذة الزجاجية لمتابعة الحصة، وافقت زَهرة ودخلت مُسرعة، راحت تصفق وهي تشير للتلاميذ نحو أبيها، تبرم أصابعها قرب شفتيها كأنها تجدل شاربًا، ثم ترسم في الفراغ ليفهموا أن الرجل دامع العينين والمبتسم في الوقت ذاته هو أبوها الذي يعمل رسامًا. ظل معتوق يراقب زَهرة مستمتعًا رغم تألمه لحالتها المرضية التي فشل في علاجها، فقدت الفتاة النطق وهي على مشارف الرابعة لما توفيت جدتها لأمها أمامها محترقة وهي التي كانت ترعاها قبل أن تقيم معه عندما لفظها الخال موسى.

وقف يستمع لحصة تاريخ تلقاه صغيرًا بمدرسته قبل أن يتم تحريفه، استندت راوية إلى حافة المنضدة، واتخذت ابتسامتها وضع الارتياح لما ستقوله، طلبت من تلاميذها أن يغمضوا أعينهم، أن

يسبحوا في الخيال، ثم راحت تحكي بقية الدرس..

"غادر الخديوي إسماعيل عربته الملكية ذات الحصانين الكبيرين، وقف على حافة الزراعات الممتدة ، التفت لحاملي القناديل آمرًا إياهم بالابتعاد عنه حتى يُنادَى عليهم، ساروا حاملين مصابيحهم، كلما ابتعدوا زادت المساحة المنيرة، ثم بدأت تتضاءل حتى أصبحوا نجومًا تتلألأ في أرض العزبة.. أشار الخديوي لخادمه إدريس أفندي، نادى عليهم الخادم لكنهم لم يسمعوه، مضوا في طريقهم حتى صاروا نقاطًا مضيئة بعيدة، التفت الخديوي هذه المرة عن يساره، لكبير موظفيه إسماعيل المفتش، أشار له ناحيتهم ولم يزد بحرف، فهم الموظف المخضرم الخبيث الرسالة ولمعت عيناه وسط العتمة، وفي اليوم التالي زوّد المفتش منطقة العزبة كلها بالمصابيح الكبيرة، ورفع الضرائب على المصريين مليمًا جديدًا كل شهر".

*****

مرت الأيام ودارت كما أكدت علينا أم كلثوم في أغانيها التي يشغلها معتوق كل ليلة، وانشغل القدر بغيره فيما يبدو وتركه يعيش أيامًا عادية بلا أحداث، فلما طالت ناوشه معتوق ليلفت انتباهه مرة ثانية . ارتدى ملابسه بعدما أعد إفطارًا خفيفًا لزهرة والقط الأعور، أوصلها لمدرستها مع وعد بالعودة قبل الحصة الخامسة لاستكمال درس التاريخ، مضى في طريقه باحثًا عن آماله المفتقدة خارج حدود عزبة الوالدة بعدما حبس قلقه وحيدًا بغرفته. لا يزال غريب أبو إسماعيل مختفيًا لليوم الأربعين على التوالي، هاتف بيته لا يرد، شقته الصغيرة بأطراف عزبة الوالدة مغلقة، ولا يظهر على مقاهي وسط البلد، طقس اختفاء مريب يمارسه غريب ببراعة، مع ذلك ودع معتوق القلق واختار الاحتفال مؤقتًا، كان شعر رأسه قد طال فاكتفى بحلق شاربه وارتدى نظارة شمسية بلاستيكية ذات عدسات صفراء اشتراها من بائع متجول بالعتبة، ثم قفز في أقرب أتوبيس في طريقه لبولاق أبو العلا، هبط بصعوبة عند مدخل الكوبري عابرًا الطريق إلى حي الزمالك، ليكتشف أن نظارته باتت بغير عدسات من الزحام فألقاها في النيل.

مدخل متحف محمود خليل هادئ مثل زواره، البوابة مواربة وكأنها لُقنت درسًا يوم السرقة فتأهبت للغلق، استغرق الأمر بضع دقائق ليسترد معتوق ثقته مرة ثانية بعدما لمح من بعيد المجند الذي عاونه في وضع اللوحة المقلدة على الجدار مغادرًا المتحف، أدار وجهه للناحية الأخرى ليجد مجندًا آخر جديدًا، ابتسم له محييًا فبادله التحية ومنحه لقب باشا. قطع ستة وستين خطوة في طريقه إليها، أنفاسه تعلو وصدره يرتج، بدأ العرق يتفصد منه رغم برودة الطقس في يناير، توقف مجبرًا عندما وقعت عيناه عليها، عاد خطوة للوراء ومال بجذعه وابتسم في رضا، تنبه لوجود رجل وقور بجواره يدخن غليونًا ويرتدي قبعة، يبدو أجنبيًّا من ملامحه لكنه نطق بعربية سليمة مبديًا إعجابه باللوحة، راح يشرح لمعتوق عبقرية فان جوخ في تجسيد الطبيعة الصامتة وتحوله من فن البورتريه ورسم اللوحات الكبيرة إلى هذه الأعمال الفنية المتفردة الصغيرة بالزيت على القماش في سنواته الثلاث الأخيرة. امتلأ معتوق من مديح الرجل حتى كاد ينفجر ثم تقلبت ملامحه فجأة، انتفض كأب ملهوف على ابنته، مد يده وتحسس خدشًا خفيفًا لا يكاد يُرى بإطار اللوحة، أدرك بسرعة أن أحد معاونيه تسبب فيه يوم السرقة، زفر في ضيق فربت الرجل ذو الغليون على كتفه وكأنه يواسيه، استدار معتوق ففوجئ بأكثر من عشرة أشخاص واقفين وراءه، يتأملون لوحته بانبهار، حياهم بانحناءة بسيطة ثم غادر المتحف بهدوء كما دخل.

مَر في طريق عودته بميدان الدوران، شعر براحة مؤقتة عندما لم يجد سراج البدوي يشحذ، ربما الجنيه الذي أعطاه له الضابط لا تزال فيه البركة.. هكذا حدث نفسه، اختار طريقًا مختصرًا يهبط منه على بيته مباشرة، لكنه سمع لقبه يتردد في الفضاء، انتبه على صوت فارس عُودة المتواجد كعادته في مكانه الأثير على رأس الحارة وهو يناديه.. " يا رفاعي " .

اقترب معتوق مبتسمًا لكنه تراجع مدحورًا عند مسافة معينة، رائحة ملابس فارس كريهة بصورة لا تطاق، بينما يلمع الحذاء الطويل الذي يرتديه بقطرات لزجة ارتاب معتوق في لونها وتشكك في طبيعتها، أما سترته ذات القطعة الواحدة الزرقاء الداكنة فقد التصقت بمنتصف بطنه من شدة البلل. تنحنح فارس ثم نطق بصعوبة :

- أنا لقيت كنز النهاردة يا معتوق..

قضت كلمات فارس على رائحته بأنف معتوق، رغم ملامحه التي لا تبدو سعيدة بالخبيئة ، لاحظ معتوق أنه يخفيها بين ساقيه في جراب راح لونه من زمن بعيد، اقترب منه مدفوعًا بالفضول،

متناسيًا روائحه بسبب عمله في هيئة الصرف الصحي وغطسه في بلاعات حلوان يومًا بعد يوم رغم تجاوزه الخمسين من عمره.. مَد فارس كفّه ناحية معتوق فالتقط منها الجراب وهو يتلفت حوله في قلق، رنين العملات يطرب الآذان، وبريق الذهب يخطف العيون، وأحلام الثراء تبرد الروح.

تبادلا نظرات صامتة، كنز حقيقي من العملات القديمة وجده فارس عندما غطس بالمجاري العمومية منذ ساعات، ربما تعود الخبيئة الذهبية لعصر الخديوي إسماعيل الذي تحكي عنه راوية كل حصة كما تبادر لذهن معتوق، لكن عقله انشغل بالأهم، نظرات فارس المترددة لا تُريحه، همس له معتوق بأن يستفتي قلبه، العملات كلها من حقه ومالكها مات من عشرات السنين، مع ذلك ظلت ملامح فارس محايدة، لا تشي باقتناع قريب، وفي الوقت ذاته لا تظهر منها إشارة برفض الفكرة، بدا فارس ذاهلًا وهو يجلس فوق نصف برميل مقلوب، يطل على ما يجري حوله بدهشة المستكشف، والقلق يكسو ملامحه كالشيب الذي غزا رأسه.

اختار معتوق الصمت مكتفيًا بتربيت كتف فارس، يعرف أنه عنيد ولن يقنعه بعكس ما يدور بعقله، كلاهما في مشكلة، فارس تردد على غالبية ملاهي شارع الهرم فلفظوه منها سريعًا، بعدما أخبروه أن عزفه صار نشازًا مع الذوق العام الجديد، اختار العمل في الخراء الواضح لعله يفلح في إزاحته، ومعتوق مثله يرسم في الظل منذ بداية الطريق مُجبرًا بسبب علاقات غريب التي تُضاعف ثمن اللوحة عشر مرات ومع ذلك يحصل على الفتات، نصيب معتوق الآن وثروته بحوزة غريب الذي اختفى، وكنز فارس بين يديه وحده لكن الحكومة ستتربص به لو ظهر وستأخذه منه. لا يدرك أن الذين يحصلون على الفرصة مرات عديدة يكونون عادة في مقتبل العمر أو من المحظوظين، وفارس فاته قطار الفرص، ويسير منذ سنوات وحده على هامش الزمن تظلله شمس التهميش، حتى لاحت له فرصة لأول مرة.. وربما تكون الأخيرة.

*****

الحياة رحلة طويلة من المتاعب، والسعادة فواصل قصيرة بينها، نفحات فرح مُحلاة بالصبر ليستكمل المواطنون المواجهة بحلبة ملاكمة، يرتقونها عندما يدق الجرس، يتلقون ضربات موجعة من الزمن، يتألمون كثيرًا، يترنحون أحيانًا ثم يتهاوون ببطء، وفي النهاية يموتون خاسرين. عند

المقهى تلقى معتوق النبأ الحزين من أحد الجالسين عليها، جارهم عبده العربي نُقل إلى المستشفى بعدما دخل في غيبوبة مفاجئة عقب سقوطه من فوق الحصان اليوم.

تجمعوا ليستقلوا سيارة أجرة في طريقهم لزيارته، جلس معتوق وبجواره زكي الساكت الذي كان في وردية عمل ولمحهم، ومعهما شاكر الجهيني ساعي البريد الذي تصادف عودته من عمله مبكرًا، وبصحبتهم سراج البدوي الذي ظهر فجأة وهو يحجل بصعوبة ليلحق بهم، انحشروا بالأريكة الخلفية وتركوا المقعد الأمامي للمعلم غالي تاجر المخدرات جارهم بالعزبة والذي يلقبونه بصاحب السعادة. انطلقت بهم السيارة تاركين سعيد راديو الذي لم يجد لنفسه مكانًا بينهم . شعر معتوق أن القدر يريد إلهاءه بحكايات آخرين لحين ظهور غريب مرة ثانية، فأعطى أذنيه كاملتين لمن يحكي لهم.. "اصطدم حصان عبده العربي بآخر مندفع ثم ارتفع عبده قليلاً في الفضاء وكما طار وقع، دهسه حصانه ثم أكمل عليه آخر".

كلمات بسيطة شرح لهم بها "جوكي" بنادي الشمس عندما التقوه بالمستشفى ما حدث لزميله وجارهم عبده العربي ، أحس معتوق لوهلة أن قلبه توقف عن الدق، وأنفاسه تحجرت في صدره، ثم هيأ له عقله أن المشهد يُعاد في ذاكرته بالتصوير البطيء، الشعور ذاته الذي يداهمه عندما يتلقى وحيًا برسم لوحة ما ، رأى عبده العربي يتقلب في الأرض مرتين وخيولًا كثيرة تدهسه ثم سكن الجسد الضئيل، تجمع غبار كثيف من حوله، وهرع أشخاص كثيرون صوبه، تداخلت أصوات كثيرة قريبة منه، وعلا زعيق المذيع الداخلي عبر مكبر الصوت.. ومعتوق لا يسمع سوى سرينة عربة الإسعاف ودقات جهاز قياس نبضات القلب الرتيبة.

ألقوا نظرة على الجسد الضئيل النائم من وراء زجاج، لكنها ليست شافية، فلم يستطع معتوق والذين معه الجزم بتعمد عبده العربي الخسارة، ربما يكون ضحية لمكيدة . تركوه بالمستشفى في شبه غيبوبة مُحملًا بدعواتهم، بعدما سمعوا الطبيب يتحدث عن إصابة بالغة في رأسه ستؤثر على اتزانه فوق الحصان لو كتبت له النجاة ، ورغم أن معتوق من كبار المراهنين، يحفظ جيدًا المضمار الذي سقط به عبده العربي، وجَرت به أهم سباقات الخيول في مصر، يعرف أن وراء تلك الأشجار البعيدة التي تحوطه كان "الجوكية" يختفون عن الأنظار لوهلة لكنه لم يتخيل يومًا أن الشيطان يكمن هناك، ينتظرهم بشغف ولهفة .

ما لا يعرفه معتوق أن في هذا المكان يمكن للجوكي الفاسد أن يُبطئ حصانه بشد لجامه فالأشجار تحجب الرؤية، والثانية الواحدة فارقة، هناك أيضًا يمكن لأي منهم أن يُسرع بالفرس ليتعب بعدها ويخسر، أو يحشره بين خيول أخرى فيبطئ من سرعتهم وفقًا للمتفق عليه ليكسب غيرهم. ربما لا يدرك معتوق أيضًا أن الشيطان يولد أحيانًا في الإسطبلات، يستقبل "الجوكية" قبل بدء السباق، يوسوس لهم بوضع قطع حديدية في السرج ليثقل وزنه، أو حقن الحصان بحقنة "فاليوم" لتهدئته، أو علفه بالردة المرشوش عليها بعض الملح ليعطش الفرس ويشرب كثيرًا من الماء فتقل سرعته بعدما ينتفخ بطنه، الخيارات كثيرة وعبده العربي يستطيع بسهولة أن يضمن الخسارة دون الربح، يمكنه تعطيل الحصان وتأخيره، لكن عليه إن أراد الغش أن يتعاون مع الآخرين.

ما سيُدهش معتوق فيما بعد أن عبده العربي لن يجيب سؤاله أبدًا، حتى بعدما يقرر معتوق رسمه في لوحة صغيرة سيفاجأ أنها ستكبر لتضم آخرين لم يكن يتوقع رسمهم، سيتركه عبده حائرًا ليرسمه معتوق مترددًا .

خيم الصمت على الجميع في طريق العودة لعزبة الوالدة، حتى قطعه معتوق بسؤال طرحه عليهم بغير تمييز عن غريب أبو إسماعيل، مبديًا بعض القلق لغيابه الطويل، لكن المعلم غالي جعل قلقه ينقلب لشعور بالخطر حوّم على ملامحه وغطاها، عندما أخبره أن صبيانه رأوا غريب يحمل أثاث بيته كله على عربة نقل كبيرة قرب الفجر منذ أيام، ولم يظهر من بعدها.

أوجعته لطمة الخبر وشعر أن خيول الغدر دهسته في غفلة منه، مثلما دهست عبده العربي هذا الصباح.



4

مهما عُدنا للوراء لا بد من ظهور محطة فارقة تتوقف عندها ذاكرتنا، ومعتوق لا يرى من طفولته سوى الرسم، لا يفكر بروية إلا عبر ورقة وقلم أو قطعة قماش وأنبوب ألوان، لا يهدأ حتى تغبش فرشاته الصفحة البيضاء ليصنع خطوطه، يظهر له شكل ما، لا يريحه دومًا، يرضيه أحيانًا ويلهمه كثيرًا، يظن دائمًا أنه يدله على الطريق الصحيح حتى لو كان عكس ما يراه في أحلامه.

عاد لغرفته فوجد زَهرة نائمة على الأريكة بملابس المدرسة، تغطي رأسها بكراسة التاريخ كأنها تحمي عقلها، طبع قبلة على جبهتها بعدما جذب كراستها، وجلس على مقعد خشبي قرب الشرفة يقرأ ما دوّن فيها، طافت بمخيلته ابتسامة راوية التي تتسع بقدر عالم رواياتها وهي تحكيها لتلاميذها، البهجة تُعدي والفرحة تغزو الملامح البريئة لمن يتعلمون على يديها، تذكّر كلماتها وهي تنبههم دومًا إلى أن ما تحكيه لن يجدوه بكتاب التاريخ، ولن يصادفوه بامتحان نهاية العام، لكنهم يعيشون آثاره كل يوم.. فينتبهون أكثر، تؤكد عليهم إن أرادوا النجاح فعليهم استذكار دروسهم بالبيت، هي ستراجعها معهم ولن تشرحها لهم.

يدرك معتوق أن ما تقوله لتلاميذها لا يعني أنها لا تعرف قواعد اللعبة، كل مدرسي التاريخ في مصر يجولون ويصولون في حكايات عبر آلاف السنين بلا حسيب أو رقيب، لكن هناك منطقة عسكرية معروفة للكافة، ممنوع الاقتراب منها أو الشرح فيها، ولأن راوية تعرف ذلك مسبقًا قررت إنهاء تاريخ العزبة مبكرًا، حتى قبل عصر الملك فاروق، على طريقة بيدي لا بيد عمرو، أو النقيب عمرو ضابط مباحث أمن الدولة بحلوان.. لا فرق.

ابتسم معتوق وهو يقلب صفحات كراسة زهرة، وقعت عينه على الدرس الأخير الذي كتبته راوية بخط منمق جميل، اعتادت مساعدة ابنته بالكتابة لكي تسهل عليها الاستيعاب، قرأ السطر الأول وهو يتثاءب لكن الحكاية شدته فانتبه..

"نام الخديوي إسماعيل مطمئنًا في رحلة العودة من مدينة رشيد، تهدهد أمواج النهر الرقيقة سفينته، قرب الظهر استيقظ كسولًا، تناول طعامه في صالونه ولما فرغ قرع جرسه الذهبي، أتى خادمه بطست الماء فاغتسل، لاحظ أن السرعة تقل بالتدريج ففهم أنهم اقتربوا من المكان، عبر النافذة صافحت عيناه صفحة النيل الرائقة، خرج إلى تراس صغير، لفحت نسمة هواء وجنتيه السمينتين، من خلفه وعلى مسافة محسوبة كان مهندسه الإيطالي يشير إلى مكان ما على البر، ويتحدث بصوت خفيض مع ولي النعم منبئًا عن مفاجأته.. المكان المختار، التفت له الخديوي إسماعيل مندهشًا، فاسترسل المهندس شارحًا أن المكان من أجود الأراضي لزراعة غالبية أنواع الفاكهة، فضلًا عن الطقس الجاف الشافي من آلام العظام، هز الخديوي رأسه شبه مقتنع منتظرًا رسو السفينة على الشاطئ كي يرى بنفسه القصر الذي بناه المهندس الإيطالي لأم الخديوي، ويحوي غرفًا بعدد أيام السنة الكبيسة لأول مرة في بر المحروسة كلها. قصر الوالدة باشا التي ستسمى المنطقة كلها باسمها حتى يومنا هذا، رغم تقلبات الزمن وغدر الورثة".

*****

تسربت الأيام من بين ثنايا حياته على مهل مثل زخات المطر ، ثم تراكمت لتكون شهورًا كئيبة قاربت على السبعة منذ اختفى غريب أبو إسماعيل، طلب معتوق من المعلم غالي كثيرًا معرفة مكانه بعدما تأكد من هجره لعزبة الوالدة، كي يحاسبه على ما فاته من ربح وما لحق به من خسارة، اشترط غالي معرفة السبب ليتدخل، خاف معتوق إفشاء السر فاقتصر كلامه على حكاية بيع اللوحات فيما بينهما، بعد رجاء ومماطلات لاحت استجابة ، دلّه المعلم غالي لسكة غريب الجديدة، ثم انسحب مع رجاله بعدها، فهو لا يحبذ الدخول في معركة لا يعرف مصدر شرارتها الأولى.

اكتشف معتوق أن غريب حقق أحلامه هو كما تمناها و تركها له ليراها مع الآخرين متحسرًا على حاله، وقف أمام "أتيليه غريب" بوسط البلد لا يقوى على نطق الحروف المحفورة على اللافتة، ثم توقفت سيارة مرسيدس خضراء جديدة أمام المدخل، ليهبط منها طاووس منتشٍ ملقيًا بمفاتيحها لصبي كي يلمعها بعناية، اكتفى القدَر بهذا القدْر، كان رحيمًا بأعصاب معتوق، فأخفى عنه شقة

غريب التي اشتراها بمنطقة المهندسين بمساحة ثلاثمئة متر، وتطل على نادي الصيد مباشرة من الطابق العاشر، وحجب عنه حسابه البنكي الذي تجاوز ربع المليون جنيه، لم يكن معتوق ليتحمل كل هذه الضربات الموجعة تحت الحزام، وربما ألقى بنفسه من شرفة شقة غريب إذا ما دعاه لزيارته أو وقعت عينه على كشف الحساب.

لا تزال عقارب الساعة تجري لتلاحق زمنًا رديئًا تريد أن تسبقه لتطويه وراءها، ومعتوق لا يتوقف عن التردد على أتيليه غريب، لكنه كل مرة لا يفلح في لقائه، يراه من بعيد ثم يمنعونه من الدخول، كابوس يتجسد أمامه ليقلقه ويوتره فيظل متسمرًا أمام الباب، هددوه باستدعاء الشرطة فاكتفى بالمشاهدة من بعيد بوجه ذاهل وعيون دامعة، كأنه يزور قبره كل بضعة أيام ليترحم على روحه، بعدما نشل غريب الفرحة منه وسرق حلمه، وترك له كوابيس يمرح فيها كل ليلة فلا يبلغ نهايتها ، ولأن الشجاعة ليست في انتظار الموت إنما في الذهاب إليه ومواجهته بجرأة، وقف معتوق يومًا أمام الأتيليه صائحًا مهددًا حتى خرج رجال غريب مندفعين نحوه، رفع يده في مواجهتهم وكأنه يأمرهم بالتوقف، طلب منهم استدعاء البوليس أو لقاء غريب أبو إسماعيل، خيرهم بين الأمرين ثم جلس على الأرض معلنًا اعتصامه بالمكان متسلحًا بالصياح.

غاب أحدهم في الداخل لبرهة ثم عاد ومعه آخرون «قبضايات» كأنهم يعملون في كباريه لا أتيليه، تكاتفوا عليه، كتموا صوته وحملوه مثل جوال بصل ثم ألقوا به داخل صندوق سيارة انطلقت به ، بعد ربع الساعة عادت السيارة إلى الأتيليه وتوقفت عند بابه الخلفي، أنزلوه ودخلوا به إلى حجرة ثم ثانية، فوجد غريب أبو إسماعيل أمامه غاضبًا. نفث دخان سيجارة طويلة بعصبية قائلًا:

- يعني ماشافوناش واحنا بنبدل اللوحة يشوفونا واحنا بنتحاسب؟ إنت مغفل ولا مجنون؟

- إنت سرقتني يا غريب، أنا عاوز حقي وإلا وديني وأيماني حفضحك وحدخلك السجن.

لم تظهر ملامح قلق ولو طفيفة على وجه غريب، نهض من كرسيه واقترب من معتوق وهو يقول :

- إنت المفروض تشكرني لأني خدمتك خدمة العمر.

علت الدهشة وجه معتوق ثم راحت ابتسامة استنكار تكبر كبالون حتى فقأها غريب مردفًا:

- لو كنت سلمتك نصيبك كنت حتصرف منه وتشتري بيت وعربية مرسيدس وتفتح أتيليه، لأنك مغفل ما تعرفش إن البلد فيها قانون اسمه من أين لك هذا، تقدر تقول لي بقى يا هذا من أين هذه الفلوس؟

قبل أن يحاول معتوق التفكير في الإجابة كان غريب يغادر مقعده مُكملًا:

- ما تفكرش كتير وبلاش مقارنة، أنا أقدر أبرر مصدر الفلوس لأني فنان معروف وببيع لوحاتي بسعر عالي.

خرجت الكلمة مغموسة في الدهشة من معتوق وهو يغمغم:

- لوحاتك؟!

تجاوز غريب المقاطعة وأكمل:

- أنا أقدر أكتب في الدفاتر إني بعت لوحة بألف جنيه أو عشرة آلاف جنيه إنما أنت محدش يعرفك وخمسميت جنيه في رصيدك يحبسوك بالقانون الجديد، شفت بقى إن أنا خدمتك والمفروض تشكرني. لكن مافيش فايدة طول عمرك براوي .

رفع معتوق يده ومسح رأسه وكأنه يزيل عدوان غريب عن عقله ثم بدأ يتأهب للحديث، لكن غريب أشار له بإصبعه ليصمت وهو يسترسل في كلامه بينما يدور حوله:

- أنا لاجل الصحوبية والعِشرة اللي بينا مقدر قلقك وتعب أعصابك لكن عاوزك تطمن إن نصيبك محفوظ، وأوعدك أول ما الدنيا تهدى والقانون يتلغي تستلم فلوسك وتحقق أحلامك يا مبدع.

نطق معتوق فبدا مثل طفل تاه من ذويه:

- هو القانون حيتلغي قريب؟

- غالبًا.. لأنه حيكشف ناس كتير مش المفروض يتكشفوا، لكن حتى على فرض إن القانون موجود أنا ممكن بعد شهر والا اتنين أعينك مدير في الأتيليه عندي بمرتب كبير، وخلال سنة تبقى أخدت

نصيبك، اطمن أنا عامل حساب كل حاجة يا صديقي، لكن بما إنك غلطت في حقي واتهمتني في شرفي وسمعتي وعملت لي شوشرة عند الأتيليه واضطرينا نخطفك في عربية علشان أصحاب المحلات جيراننا يفهموا إننا سلمناك للبوليس وده السبب إننا رجعناك من الباب الوراني.. فأنت مديون لي وعاوز حقي.

نهض معتوق وجذب سيجارة مستوردة من علبة غريب وقال باستهزاء:

- أنت كمان طلعتني مديون وعاوز تاخد من نصيبي يا غريب!!

- لأ نصيبك محفوظ ..أنا عاوزك في مصلحة من بتوع زمان، عشرين لوحة من إيدك الحلوة بس تشد حيلك لأن المصلحة مستعجلة المرة دي وبرة مصر. فكر وأنا منتظرك في أي وقت ضيف عزيز كريم، وتدخل من الباب العمومي.

ابتلع معتوق دخان سيجارته وكتمه بحلقه لوهلة تأمل فيها جدار الحجرة الذي تزينه لوحة الخروج من مصر، أدرك بسهولة دون البحث عن توقيع الفنان أنها لراغب عياد، تضم مواطنين عاديين، لكن ملامحهم تحمل قدرًا كبيرًا من التهكم والسخرية، نفث دخانه في وجه غريب وخرج بملامح تحمل ابتسامة غائمة أثقل من التي دخل بها.

*****

أسدل النوم ستائره فوق جفني معتوق ، غفي لفترة لم يستطع حسابها على وجه الدقة، تاه بين طمعه وما عرضه غريب أبو إسماعيل عليه، وقف على حافة شك ، تطل على هوة سحيقة ترقد في قاعها الأكاذيب والآمال التي لا تأتي أبدًا، لكن الطمع يُغريه بأن الطريق للبئر آمنة.

علا شخيره وتخشب جسده، رأى في منامه الكابوس ذاته، أنه يمشي في جنازته، وكل خطوة يخطوها تقترب به من النهاية، لمح مكبر صوت كبير يحمله عبده العربي، صوته يعلو بالتدريج صائحًا بأرقام ينطقها معكوسة، اقترب العد التنازلي من الصفر كأن حياة معتوق على وشك

الانتهاء، وفي حين كان فارس عودة يعزف بالترومبيت لحنًا جنائزيًّا اقترب من معتوق ساعي البريد شاكر الجهيني وسلمه خطابًا مفتوحًا، ولما وقعت عيناه على محتواه وجد به رسمًا لطائر أسود كبير يشبه الغراب ويحمل رأس غريب أبو إسماعيل، مشدود بخيوط كأنه طائرة ورقية يُطيرها كثيرون، استمر سيره في موكب مهيب، على جانبيه طابور شرف من رجال دين وقضاة وصحفيين وضباط ومواطنين، يتفرجون عليه ويتصعبون بشفاههم في حسرة ويلومونه بشدة، ثم صاحوا معلنين إدانته، اقترب منه أحدهم وسلّمه بدلة الإعدام الحمراء، وشطب آخر اسمه من دفتر الأحياء، ودفعه ثالث دفعًا نحو المشنقة، بينما أهل عزبة الوالدة يهتفون بحياته ، وفي لحظة فارقة سحبوا الطبلية من تحت قدميه، مثلما سحبوا حياته قبلها ومحوا اسمه من لوحاته، ثم سمع صوت ارتطام مكتوم بالقاع، صحا وهو يتعرق من كل موضع بجسده، وجد نفسه راقدًا على الأرض وابنته بجواره مفزوعة بعدما دُفنت ابتسامتها الدائمة في ثغرها.



5

كتمان الهموم يطفئ الروح، وأقسى لحظات تمر على المرء عندما لا يجد من يخبره بأنه ليس على ما يرام، وما بين قلق الترقب وهاجس الخوف من مجهول تغيرت ملامح معتوق، بدت كخطوط أولية على قطعة قماش باهتة لا تكشف عن معنى، مجرد أشكال متداخلة ومبهمة في لوحة حياته التي يرسمها له الآن غريب .

الليلة فرح المعلم غالي تاجر الحشيش بحلوان، لم يكن معتوق متحمسًا للحضور فذهنه لا يزال مشوشًا وغريب يلاوعه ولم يحسم أمره معه بعد، لكن المعلم صمم، وغالي له مكانة عند معتوق لا يملك معها أن يرد له طلبًا أو يرفض رجاء. وربما يكون القدر رتب الفرح ليفرج عنه من سجن ظنونه ومخاوف روحه.

منذ أربعة أعوام انتهت الحرب وتأهب البلد لانفتاح كبير وسوق تستوعب أي شيء، وقتها زاره المعلم غالي في غرفته لما عرف بكسر ساقه، وجامله بمضاعفة كمية الحشيش التي يشتريها منه معتوق أسبوعيًّا، في نهاية الزيارة تلفت غالي حوله وهو يتفحص اللوحات الصغيرة التي رسمها معتوق لعشرات الوجوه من أهل العزبة ومن بينهم المعلم غالي نفسه، ثم بدأ يشرح فكرته معربًا عن أسفه لإضاعة موهبة نادرة في رسم مجموعة وشوش لأناس لا ولن يعرفهم أحد. ابتسم معتوق ظنًّا منه أن الكلام انتهى عند هذا الحد، مجاملة رقيقة من المعلم وسيضحكان وينصرف، ففوجئ به يطلب منه رسم الأوراق المالية ليشتري بها الحشيش من التاجر الكبير الذي يموله، مقابل منح معتوق الكيف الذي يحتاجه مدى الحياة، مؤكدًا أن تجار المخدرات لن يكتشفوا أمر النقود المزيفة، وحتى لو كشفوها لن يستطيعوا الإبلاغ عنه أبدًا.

أعجبت الفكرة معتوق عندما تركها تختمر في ذهنه يومين، بدأ يرسم العملة على سبيل التجربة، عينات للاختبار قبل طرحها بالسوق، وعندما أبدع في رسم المئة جنيه التي كانت تستغرق منه يومًا وبعض يوم، راح يسلم المعلم غالي شهريًّا مبلغًا يناهز الألف جنيه، وقتها أعطاه غالي نصيحة

اعتبرها معتوق سرًّا من أسرار المهنة التي قلما يجود الزمن بها لأصحاب الحرف والمبدعين، نصحه باستخدام حامض التانيك الموجود في الشاي والقهوة، فاشتراه معتوق على هيئة مسحوق ناعم ثم أذابه في الماء ووضع فيه نقوده المزورة عقب رسمها بساعتين لضمان جفاف ألوانها، خرجت عملة معتوق أكثر قدمًا كأنها متداولة من فترة فلم يشك فيها أحد. انطلت الحيلة على تجار المخدارت بحلوان والمعصرة ووادي حوف، وكبرت تجارة غالي وتشعبت حتى وصلت لباب اللوق، صار غالي معلمًا له عشرات الصبيان، أما معتوق ففعل مثل طباخ السم وتذوق ما يصنعه، لكنه اكتفى بمئة جنيه شهريًّا لينفق على زَهرة ابنته.

الليلة سيتزوج غالي من أنهار ابنة أحد كبار تجار المخدرات السابقين، زيجة عجيبة لا يعرف لها معتوق سببًا، فأنهار رغم جسدها الفائر الممتلئ ليست جميلة، ونظرها ضعيف بصورة ملحوظة وتسمع أحيانًا بصعوبة ، هز معتوق رأسه متعجبًا، ربما استجاب القدر لها كي تنسى تعاسة أيامها السابقة بعد وفاة أبيها، وربما أحبها غالي أو رأى فيها ما لم يره الآخرون.

أرهقت معتوق الموسيقى الصاخبة المنبعثة من مكبر صوت رديء، تنبعث منه أغاني عدوية الشهيرة، ليتراقص عليها شباب العزبة وصبيان المعلم، لم يفلح تغيير مكانه مرتين في الإفلات من إزعاجه حتى اختار ركنًا قصيًّا على يسار الشادر الكبير، جلس فيه مع أهل عزبة الوالدة القريبين منه، شاكر الجهيني وسراج البدوي وأسعد جرجس كومبارس السينما الشهير وزكي الساكت كناس الحي، وفتحي السماوي صياد الكلاب كما يسمونه، ثم انضم لهم صديقه الأقرب شاهين والي بعد قليل مع سعيد راديو الكهربائي. كان الغائب الحاضر الوحيد هو عبده العربي، لكن الأنباء الواردة من المستشفى تقول إن صحته تحسنت واسترد الكثير من وعيه.

أنهى معتوق زجاجة بيرة وطلب ثانية منشغلًا بتأمل العروس الممتلئة بفستانها الأبيض المنفوش فزادها حجمًا، لا تشي ملامح أنهار الهادئة بنعومة رحلة حياتها، ولا يدرك معتوق حجم معاناتها الأضخم من ثوب فرحها، فعندما قُبض على أبيها منذ سنوات قليلة أسدل الستار على حياتها المستقرة بعدما صادرت الحكومة كل أمواله، تبدلت الصورة ورأت أنهار من دنياها وجهًا آخر قبيحًا لم تكن تعرفه، اضطرت للخدمة في البيوت لتنفق على نفسها بعد وفاة أمها، عملت لدى أسرة ميسورة، ومع كل منحنى تكون من منحنيات جسدها ظهر ناب كبير لحيوان تحسسها برغبة، صارت أنهار مع الوقت أرضًا فضاءً على المشاع بدون لافتة تعلن عن ملكيتها لأحد، الكل يقربها،

يتوغل فيها ويغوص في أعماقها؛ أرضًا متروكة، يمكنك أن تنبش فيها أو تدق وتدًا بها أو تقلب رمالها وتمرح بين كثبانها، ثم تتسلق تلالها وتعود لتعبث بصخورها، وهي صامتة لتعيش، فما أهمية الدفاع عن فضيلة لم تتمسك هي بها في أي يوم من الأيام؟.. حتى ظهر غالي في حياتها وكأن القدر أراد لها أن تذوق متعة لو كانت رحلت عن دنياها محرومة منها فكأنما ولدت ميتة.

تركت أنهار خدمة البيوت وصارت جسر المزاج كما أسماها غالي نفسه، أفضل وسيلة لنقل المخدرات، مَن الذي سيشك في سيدة ثلاثينية ترى بالكاد وتخفي أسفل جبل صغير من الخس والجزر حقيبة من الخيش مملوءة "بفِرش الحشيش"، تستقل عربة كارو يجرها بغل نحيل آتية من وادي حوف لعزبة الوالدة كل أسبوعين، يقودها رجل عجوز صامت، في حين لسانها لا يكف عن الدعاء لرجال الشرطة، حتى اقتنع غالبيتهم بأنها سيدة مبروكة.. فكرة جديدة من أفكار غالي التي يأتي بها وحده من خارج الصندوق. لكن هل كان ذلك مبررًا لزواجها من غالي؟

الحقيقة التي لا يدركها معتوق أيضًا أن حياة أنهار تقريبًا بلا مبرر منطقي، مثل حياة الغالبية منهم، ومع الوقت سيتوقفون عن السؤال ليتقبلوا كل ما يرِد إليهم من السماء بنفس راضية وبغير انتقاء، ليس لأنهم باتوا قانعين، بل ليكملوا ما تبقى لهم من الحياة في هدوء.

انتظر معتوق بسرادق الفرح حتى انتهى فارس عودة من عزفه على الترومبيت تحية للعروسين، لم يصفق له أحد عندما صعد للمسرح، فاكتفى بفقرة قصيرة واحدة لم تتجاوز العشر دقائق قوبلت بتأفف، ثم ترك المسرح الخشبي الصغير وسط ترحيب كبير، سحب كرسيًّا بجوار معتوق ليشكو همومه، فبادره بالسؤال عن الكنز، لكن فارس لم يفصح عن نيته لإعادة خبيئة العملات الذهبية التي عثر عليها ، سارت كلماته في سكك ملتوية، حكى أنه كلما اختار طريقًا للسير تعثر بحفرة كبيرة في منتصفه، ليعود ويبدأ سكة جديدة طويلة، وكلما قطع بها شوطًا يجد حفرة أكبر، حتى اقتنع بأن القاع مستقره الذي اختاره الله له ليكافئه على صبره.

نظر معتوق له بعينين يملؤهما الشك، أراد سؤاله عن مكان العملات حاليًّا لكنه يعرف أن فارس سيراوغ في الإجابة ولن يريحه، ربت كتفه وكأنه يحثه على البقاء في القاع الذي اختاره رغم أنه عثر به على الكنز، ثم نهض بعدما وزع عليهم ابتسامة وداع بالتساوي وهو يتأهب للمغادرة. على مقربة من باب الشادر الخلفي الذي خرج منه علا نباح كلبة تلد بصعوبة، تهب حياة لجراء كثيرة لا يُعرف مصيرها، راح يتابعهم بحسرة، هل يكملون هائمين بين أكوام القمامة وبِرك المجاري، أم

تنتهي حياتهم على يد فتحي السماوي بعد شهور قليلة؟ عاد لغرفته مخمورًا منتشيًا ولم يجد إجابة تريحه، فكل الإجابات مقبولة وكلها صحيحة وخاطئة في الوقت ذاته.

*****

اخترق صوت بائع الجرائد أذنيه كدوي رصاصة أطلقت من مقربة، صائحًا بالجملة الشهيرة "اقرا الحادثة" عدة مرات متتالية.. يبدو أن تلك الحيلة القديمة لا تزال تعمل ليشتري المواطنون الصحف، الوحيد الذي شعر برجفة خفيفة ارتج لها صدره كان معتوق رفاعي، تسمر مكانه مستمعًا لصيحات البائع لمرة خامسة وربما سادسة، يكاد يصيح مثله ليكذبه، الحكاية الحقيقية عنده، ولا أحد غيره يعرف تفاصيلها لينشرها بهذه الجرأة. اشترى يومها كل الجرائد اليومية، فوجد الأخبار تقريبًا متطابقة. قرأ..

" لوحة زهرة الخشخاش سُرقت أمس من متحف محمد محمود خليل وحرمه بالزمالك بعد نزعها من إطارها عندما تسلل اللص ليلًا من شرفة جانبية نجح في كسر زجاج نافذتها، ولا يزال الفاعل مجهولًا وجارٍ البحث عنه".

ابتلع ريقه بصعوبة وهو يقرأ بقية الخبر بصفحة داخلية، ثم هدأت ملامحه وسرعان ما غزت ابتسامة غرور شفتيه، فانفرجت بميل يوحي بالثقة، لوحته المقلدة هي التي سرقت، ولا بد أنها ستعرض عالميًّا بعدما أشارت الصحف إلى احتمال خروجها من مصر مُهربة، اليوم صار فنانًا عالميًّا.. اليوم فرح حتى لو اكتشفت السرقة، اليوم حدث يستحق الاحتفال وربما لأيام عديدة قادمة. مضى يحجل ويرقص مثل مجذوب بسيدنا الحسين.

اصطحب زَهرة وراوية لكازينو الجود شوط وفي المساء ذهبوا إلى ملاهي أدهم، وفي اليوم التالي شاهدوا ثلاثة أفلام في عرض واحد بسينما الفانتازيو بالجيزة، ثم تناولوا طعام العشاء بحديقة فندق الهيلتون، مما اضطره لرسم ورقتين من المئة جنيه تحسبًا للفاتورة الضخمة. في اليوم الثالث استضافهم فارس عودة بقاربه في نزهة نيلية، شق بهم صفحة النهر العريضة وتوقف في منتصفه،

أدار فارس مفتاح الراديو، انبعثت الأغاني كلها وطنية ربما لينسى المواطنون ذكرى التنحي التي أعقبت هزيمة وقعت منذ عشر سنوات، ودللتها الحكومة وقتها فأسمتها نكسة، لوى فارس شفتيه قليلًا وهو يخفض الصوت، ذكرى الخامس من يونيو كسرته ويوم التنحي لطمه لكنه لم يفق بعد، ميوله الناصرية تؤرقه منذ تصدر السادات المشهد وحده، ماسحًا خطوط ناصر كلها بممحاة الانفتاح، لكن معتوق لا يريد إفساد الفرحة بمنغصات السياسة فغمز له كي يُسكت الراديو ويعزف لهم، مَد فارس يده ببطن القارب والتقط الترومبيت وراح يتمايل بنصف جسده مندمجًا.

انسجم معتوق مع راوية وتشابكت أناملهما على أنغام الموسيقى، منحتهما صفحات النيل صفاء وهدوءًا وهي تطوى برفق مع موجات حانية تهدهد قاربهما لتتسع ابتسامتهما، عينا راوية تناجيه وتُسمعه صوت قلبها الملتاع بحبه، ومعتوق أقرب من رمية حجر كي يصرح لها برغبته في الزواج منها، خاصة لما اندست زهرة بينهما وشبكت أصابع كفيهما الأخرى، وراحت تغمز لهما عدة غمزات بعينها اليسرى، ثم بدأت تتمايل وتتراقص وهي تخرج لسانها لتغيظ فارس الذي توقف عن العزف عندما شتتت حركات زهرة ذهنه وأجبرته على الابتسام.

انتهت أيام الفرح وخفت تأثيرها، والعالم الذي هربت إليه لوحة معتوق لم يتحدث عنها، فلم ينل شهرة ولو حتى بائسة، ظل يتابع الجرائد والأخبار حتى تأكد أن لوحته المقلدة سُرقت بلا عودة، تبخرت كسحابة دخان عابرة وربما اكتشف سارقها حقيقتها فألقاها بأقرب سلة قمامة بمطار القاهرة وعدل عن فكرة تهريبها، لكن مع الوقت كبرت هواجسه وراح السؤال يتردد كالصدى بعقله كل يوم خافيًا الإجابة.. هل سرقها غريب أبو إسماعيل ليهدده بها؟.

هز رأسه بشدة أمام المرآة، بدت الإشارة ملتبسة ما بين نفضه للفكرة من عقله وشدة اقتناعه بها. فلم يهتد لإجابة بعد.



6

راحت لحظات السكرة وحانت ساعة الحسرة، بعد مرور شهر على السرقة تأرجحت هواجسه وتغلبت على صبره الذي نفد، فالبحر مهما اتسع لن يحمل السفينة إذا ما ثُقبت من قلبها. العالم يحتفظ بلوحتين متطابقتين لفان جوخ تصوران زهرة الخشخاش ولا أحد يتحدث عن واحدة منهما مقلدة.. فان جوخ يرقد عظامًا في قبره ومعتوق يستلقي بجسد متعب وذهن مشتت فوق أريكته، وغريب أبو إسماعيل يتوهج كل يوم، يظهر على شاشات التلفزيون، يحل ضيفًا على المنتديات الثقافية، يصادق الفنانين وتلتقط له الصور بجوارهم، و كل أسبوع يلح على معتوق عبر وسيط من رجاله كي يقلد له لوحات أخرى ، يتمسك معتوق بالرفض مطالبًا بحقه مهددًا صائحًا ، ثم يهبط فوران غضبه ويتبخر، ليعود منزويًا كفأر في غرفته بعزبة الوالدة، يزوّر مئة جنيه أو مضاعفاتها كل شهر ليعيش، وتحترق أعصابه كل مرة والبائع يحصي نقوده خشية افتضاح أمره.

انتهت تحقيقات سرقة زهرة الخشخاش إلى أن الفاعل مجهول فتنفس معتوق الصعداء، خابت ظنونه لأول مرة في خسة غريب ونذالته، وتكفل الوقت بمساعدة المواطنين على نسيان اللوحة والقضية بعد أسابيع قليلة من نشر الخبر، طوى معتوق الجريدة وهو يبصق في ضيق، حتى لوحته التي رسمها وأبدع فيها سُرقت من الحكومة. قفزت في رأسه فكرة مجنونة، سيرسم غيرها ويضعها مكانها فتظن الحكومة أن السارق أعادها، لكنه تراجع خوفًا من ضبطه إذا دخل المتحف بمفرده. قبل أن يلقي بالصحيفة في صفيحة القمامة كعادته بعد القراءة، لمح صورة غريب أبو إسماعيل تتصدر نصف صفحة أخيرة.

فَرد الجريدة وراح يقرأ العنوان العريض.. "مرشحكم لمجلس الشعب عن دائرة حلوان.. رمز فرشاة الألوان"

ضمّت تفاصيل الخبر سيرة ذاتية عطرة عن غريب، حتى تكاد دموع القارئ تنهمر من رقة مشاعره ناحية أهل مسقط رأسه بعزبة الوالدة، وقعت عين سعيد راديو الجالس بجوار معتوق على

الصورة، فقال وهو منشغل بفك دائرة تشغيل من قلب جهاز تمهيدًا لزرعها بآخر:

- صور غريب أبو إسماعيل كل يوم والتاني في الجرانين، يظهر إن موضوع الانتخابات بحق وحقيقي يا معتوق وشكله حيعملها وينجح، مش كلام جرايد زي ما فارس بيقول لنا على القهوة.

لم ينظر معتوق نحو سعيد لكنه رد بنبرة يائسة:

- يا عم سعيد أنا وأنت وأهل العزبة اللي بنشتري الجورنال أما غريب أبو إسماعيل فبيشتري رئيس التحرير نفسه.

عاد سعيد لجهازه كأنه لم يسمع شيئًا، وربما لم يفهم ولا يريد إجهاد عقله بالسؤال، سَرح معتوق مبحرًا وسط مشاكله، يطل على ما يجري حوله ببرود المحبطين، كل شيء صار مزيفًا أو في طريقه للتزييف، والناس تصدق ما تراه وتسمعه، عقولها في عيونها وآذانها، صاروا قرودًا وببغاوات في آن واحد، رغم ذلك لا يزال لديه شغف الحياة رغم شعوره بلامبالاة تكسو مشاعره كالشيب الذي يغزو فوديه على استحياء، لا تزال الرغبة في الرحلة تنمو لكن الطريق طويلة والزاد قليل.

تذكر أن لديه بعض اللوحات بغرفته التي رسمها ووقعها بتوقيع غريب أبو إسماعيل ولم يسلمها له بعد، قرر أن يمحو توقيعه من عليها، ستحمل اسمه وحده، ليعرضها في أي مكان حتى لو في حواري عزبة الوالدة بغير مقابل، مثلما يعزف فارس عودة موسيقاه بشوارع العزبة وحواريها، سيعلقها على الجدران لتكون في استقبال غريب إذا ما حضر للقاء أهل العزبة في مؤتمر انتخابي، سيزفه وسطها حتى يصل به إلى قبره ليموت معنويًّا كفنان وسياسي وتنتهي أسطورته المزيفة.

تنهد في رضا بعد شعوره بهزيمة غريب بالضربة القاضية من أول جولة بالمعركة التي دارت في خياله وحده.

*****

التزام الصمت يُبقيك عند حدود آمنة، والتظاهر بالغباء يُنجيك من مهالك الفهم ومتاعب التفكير، لكن كل شيء في الكون له عمر افتراضي.. حتى القهر، مع ذلك ندم معتوق أشد الندم وهو يهدد غريب أبو إسماعيل عندما التقاه.

قبل هذا اللقاء بثلاثة أيام كان معتوق مستلقيًا بغرفته عندما سمع دقات خجلة على بابه، وجد أمامه سراج البدوي بملامح تشي بحمله أخبارًا مُقلقة، كان مصفر الوجه، ترتعش كفاه وتتمتم شفتاه بالاعتذار عن الزيارة في وقت متأخر، وقفا بفناء السطح كي لا تصحو زَهرة على صوتهما، مهد سراج لكلامه بأنه يعمل حاليًّا مرشدًا لمباحث قسم حلوان، قالها بهمس من يفشي سرًّا ، ولما لم تظهر بوادر دهشة على ملامح معتوق ولم يهتم حتى بسؤاله عن طبيعة عمله، أسهب سراج في شرح أن رئيس المباحث طلب منه الإبلاغ عن أية أفعال مريبة يشك فيها، تاركًا له حرية تفسير مدى الريبة وتحديد درجة الشك، ثم استرسل بمقدمة طويلة رافعًا صوته تدريجيًّا بفخر وهو يحكي لمعتوق رحلته من التسول إلى الإرشاد .

نسيا الموضوع الذي أتى سراج لأجله، وراح معتوق يستمع كأنه يرى أمامه شريطًا سينمائيًّا متحركًا، مصحوبًا بتعليق بصوت سراج كما الأفلام التسجيلية، عَرف معتوق أن سراج يُرشد عن تجار المخدرات ومن يأتون بالأفعال الفاضحة بالسيارات أو الحديقة القريبة، هؤلاء الشباب الذين يطيلون شعورهم حتى أكتافهم، وتلك الخادمة التي تتهامس مع رجال أغراب عن المنطقة، وهذا الأجنبي الذي يستخدم كاميرا تصوير بعشوائية، وذاك الرجل الغريب عن حلوان وقادم من بحري أو الصعيد باحثًا عن شقة مفروشة.

صار مشهدًا مألوفًا أن يُرى سراج البدوي راصدًا طوال النهار بعين صقر دلالات الأقمشة، متابعًا دجاجات الجمعية المتسربة في كراتين بكميات مريبة مع العمال من باب خلفي، متقصيًا بالسؤال عن عمليات الذبح خارج السلخانة إذا ما وزعت لحوم الذبيحة بحلوان، متظاهرًا بشراء ما لا يحتاجه لمعرفة إذا ما كان التاجر يبيع أعلى من التسعيرة فيدوّن بياناته بنوتة صغيرة. وفي المساء يُرى مرة ثانية ذاهبًا للقسم في العاشرة، يدخل من باب خلفي، ينتظر الإذن بالمثول في حضرة رئيس المباحث، فيؤذن له بعد ساعة لو كان حسن الحظ، يقدم التقرير اليومي واقفًا رغم إعاقته ثم يعطي التمام كرجل عسكري لينصرف.

رغم أنهما يقفان بمفردهما بالسطح إلا أن سراج همس قائلًا:

- غريب أبو إسماعيل جاي حلوان بكرة بعد العصر، يلف في الدايرة علشان الناس تشوف خلقته ويفتكروه، والنهاردة في القسم عرفت إنه طلب من رئيس المباحث يعمل تحريات عنك وفي اتنين أمناء شرطة بيشتغلوا عليها دلوقتي. وأنا مش مطمن.

هبط القلق بأجنحته العريضة على سقف معتوق، أظلمت الدنيا كلها فجأة، تشوّش تفكيره ما بين غدر غريب بالوشاية به في سرقة اللوحة ومعرفته باتفاقه مع المعلم غالي بشأن تزوير النقود، لم يعطه سراج إجابة فهو لا يعرف الحقيقة كاملة، عاد معتوق يسأله عن مدى صحة المعلومات التي أتى بها عن التحريات فأجابه باستنكار:

- عيب يا فنان تسألني سؤال زي ده، أنا عين الحكومة وودانها، وأعرف العفريت مخبي ابنه فين.

سكت سراج برهة وهو يتطلع لوجه معتوق ثم حك ذقنه سائلًا:

- هو غريب أبو إسماعيل بيفتش وراك ليه؟

استدار معتوق عائدًا لغرفته مكتفيًا بما سمع وهو يودع سراج ممتنًّا قائلًا:

- لما تلاقي ابن العفريت وترجعه لأبوه إبقى اسأله وهو يجاوبك.

*****

دفع ضلفتي النافذة على مصراعيهما لكنه استقبل صباحًا غائمًا ، خيوط نور مرسلة عبر ثغرات سُحب مناورة تعاند الشمس، لملم معتوق ملابس قليلة في حقيبة صغيرة، كتب خطابًا قصيرًا لراوية شرح لها فيه اضطراره للسفر خارج القاهرة لعدة أيام قد تبلغ أسبوعًا، طلب منها الاعتناء بزهرة حتى عودته، ترك غالبية نقوده السليمة لراوية مع الرسالة واحتفظ لنفسه بما يكفيه من المزورة لحين تدبير أموره، اصطحب زَهرة لمدرستها ولم يخبرها بسفره، ترك لراوية المهمة كلها مع خطابه الذي سلمه لزميلة لها، ألقى نظرة أخيرة على ابنته قبل دخولها فصلها، تهلل وجهها وراحت

تلوح له بكفها فلم يستطع منع دموع مكبوتة من الانهمار تباعًا، شعرت زهرة باضطرابه فعادت إليه مستفسرة عما به بعشرات الهمهمات الحزينة وبإشارات كثيرة من يديها، قبض على كفيها الصغيرتين بكفه، أوصاها بانتظاره مع راوية لحين عودته وأخبرها بضرورة سفره إلى الإسكندرية، ثم غادر المدرسة وهو يكتم بقية دموعه حتى لا يفقد اتزانه بسبب انفعاله، ويتراجع عما خطط له تحت ضغط عواطفه.

أسفل عشرات الشماسي المتراصة بجوار بعضها وجده معتوق بعد بحث مُضنٍ، ما إن لمحه شاهين وهو جالس أسفل شمسية صفراء باهتة حتى شعر بانزعاجه، شاهين والي أقرب جيران معتوق لعقله، والوحيد الذي يمكن لمعتوق أن يأتمنه على سره، ترك شاهين مكانه لغيره وهرول ناحية معتوق، يرتدي بدلة ربما كانت زرقاء يومًا ما، هيئته أقرب لموظفي الأرشيف، لا يعرف معتوق مهنة شاهين بالتحديد، طوال الوقت يظن أنه وكيل محامٍ وله صلة ما بالمحاكم لكنه لم يهتم بمعرفة تفاصيل تلك العلاقة، اليوم اكتشف أن شاهين عرضحالجي شهير بحلوان، يكتب عرائض وشكاوى للمتقاضين الواقفين بطابور طويل أمام المحكمة مقابل جنيه للشكوى ، ويعلق فوق شمسيته لافتة كتب عليها بخط عريض واضح " الدفع بعد البراءة أو عند الفرج ".

سحبه شاهين من ذراعه متجهين لمقهى منزوٍ وراء المحكمة لكنه يكشف الطريق بوضوح، ربما كان المهندس الذي صممه من أرباب السوابق والهاربين من مراقبة البوليس.. هذا ما تبادر لذهن معتوق وهو يتلفت حوله متفحصًا المكان، همس لشاهين طالبًا تدبير مكان ليختبئ فيه، مكتفيًا بشرح العناوين الرئيسية لخلافه مع غريب أبو إسماعيل، التقط شاهين طرف الخيط وسحبه برفق، بدا أنه فهم غالبية الموضوع دون حاجة لمعرفة التفاصيل، هب واقفًا وهو يلقي بقروش قليلة على الطاولة قائلًا:

- مفيش غيره في مصر كلها اللي يقدر يتاويك ولا أي مخلوق يعرف مكانك.. المعلم غالي.

ابتسم معتوق رغمًا عنه سائلًا بدهشة:

- بس ده عريس جديد و..........

لم ينتظر شاهين بقية الجملة وانصرف فتبعه معتوق صاغرًا. طوال الطريق لبيت المعلم غالي بالمعصرة كان معتوق يتلفت يمينًا ويسارًا، رغم أن شاهين اشترى له قبعة أشبه بتلك التي يرتديها

الصيادون على النيل ابتلعت ملامحه تحتها، طلب منه أن يظل مُطرقًا أثناء ركوبهما العربة، بعد ربع الساعة شعر معتوق بآلام خفيفة بمؤخرته، تلك أول مرة يجلس فوق عربة كارو، صمم شاهين على ركوبها بعدما أخبره بنبرة العارفين ببواطن الأمور أن مباحث حلوان لا بد أعدت حملة مكبرة للبحث عنه إرضاء لعضو مجلس الشعب المرتقب، لكنها لن تبحث أبدًا فوق عربة يجرها حمار، ثم اختتم كلماته بحكمته الشهيرة.. "لا أحد يرى الحقيقة بوضوح إذا كانت قريبة منه".

وصل معتوق بيت المعلم غالي يجر قدمين مثقلتين بالحرج، الرجل يقضي شهر العسل مع عروسه وفرحه لم يبرد كما يقولون، لكن شاهين طرد كل هواجس معتوق لما فتح المعلم غالي بنفسه الباب فبادره قائلًا:

- صباحك فل يا سيد الكل، لينا خدمة عندك يا معلم غالي ماتحتملش التأجيل.

- يا صباح النور والبنور.. اتفضلوا الأول ناكل لقمة سوا واعتبروها مقضية بإذن الله.

قالها غالي ببشاشة أذابت ما تبقى من ثلوج خجل معتوق، وأزالت حواجز حرجه حتى تصور أن غالي سيأويه في بيته.

دعاهما المعلم لغرفة المسافرين ونادى على أنهار لتسرع بإفطار لثلاثة أشخاص. تبادل معتوق نظرات محبطة مع شاهين لكنه أفهمه همسًا عندما تركهما غالي لبرهة أن المعلم صاحب مزاج وتلك طقوس لا بد من اتباعها وخلالها سيكون عقله قد وجد مكانًا لمعتوق كي يختبئ فيه، لم يتوقف معتوق أمام التفاصيل وراح يبتلع الطعام وعينه على المعلم غالي، فالعنوان الرئيسي الذي يهمه هو هروبه من غريب، لا يريد دخول السجن وترك زَهرة وحيدة، فهو لا يملك تلك الرفاهية الآن رغم أنه قامر عليها من قبل.

أنهى المعلم طعامه وتجشأ وهو يتعجل أنهار كي تأتيهم بأكواب الشاي، ثم اقترب من النافذة وأشار لهما بيده فاقتربا ، لمح معتوق من بعيد جبلًا صخريًّا موحشًا، ولما التفت وجد المعلم غالي يهز له رأسه وهو يبتسم باطمئنان.



7

غفا معتوق لساعات طويلة ثم نهض متكاسلًا من نومة عميقة طالت حتى غروب الشمس، تثاءب ثم بدأ يطقطق عظامه المتيبسة من القلق والخوف، لم يستطع استكشاف المكان الذي أمر غالي صبيانه بإيوائه فيه، عندما وصل إلى هنا كان التعب نال منه فهوى على المرتبة الإسفنجية التي وجدها أمامه، وعندما استيقظ اكتشف بنظرة قصيرة من وراء الستار أنه في منطقة جبلية تابعة لشركة مقاولات بوادي حوف تنفذ مشروعًا لإقامة محاجر، مع اقترابه من الشرفة القبلية ظهر شاب من ناحية الباب سائلًا عن رغباته ليلبيها، طلب كوبًا من الشاي وسجائر فأشار له ناحية منضدة بعيدة عليها فاكهة وإبريق وأكواب وعلب سجائر وثقاب وأطعمة معلبة، تموين يكفيه أسبوعًا على الأقل، توارى معتوق وراء ستار سميكة بعدما حذره الشاب المنشغل بإعداد الشاي من الخروج للشرفة، راح يطل على منظر الجبل.. سَرت في قلبه وحشة، الهروب يشكل جزءًا يسيرًا من ثقافته ولوهلة أحس بتسرعه، لكن سعي غريب خلفه عن طريق رجال المباحث جعله يتراجع للوراء مُحكمًا إغلاق ستائر النافذة، متقبلًا ما آل إليه حاله.

زمجرت السماء برعد مخيف وهطلت الأمطار بغزارة رغم أن الحكومة أعلنت بدء فصل الصيف، فتشاءم واعتبرها إشارة أنه لن يعود.

*****

لا يوجد مكان صالح للاختباء من القدر، في اليوم الثالث لهروبه افترس القلق معتوق ببطء، متلذذًا بطعم خوفه، شعر أنه يتلاشى بالتدريج، لا توجد إجابات عن سؤاله الذي يكبر كل ساعة.. إلى متى يظل هاربًا؟ الجرائد والمجلات التي يحضرونها له يوميًّا تزيده قلقًا، لا يجد فيها خبرًا عن هروب فنان تشكيلي يزيف النقود مع تاجر مخدارت، سكون مريب تفوح منه رائحة مقلقة لا يستطيع

الإمساك بخيوطها ليتتبع مصدرها، حتى وجد مخرج طوارئ أتى له على هيئة ثلاث دقات منتظمة. انفتح باب الكوخ الخشبي الذي يقيم به ليجد سراج البدوي أمامه، بعدما دله أحد صبيان المعلم غالي للمكان، عظمت دهشة معتوق عندما وضع سراج يده حول فخذه وفك ساقه الخشبية، أخرج منها ورقة مطوية ومد كفه بها ناحية معتوق هامسًا "رسالة من غريب". لم يفهم معتوق حرص سراج على إخفاء الرسالة على صغرها في تجويف ساقه لكنه انشغل بها عن سؤاله، أتت رسالة غريب أبو إسماعيل عبر وسيط من أهل العزبة قبل أن تستقر في ساق سراج، الوسيط كان مدحت الصيدلي الذي يؤم المصلين في صلاة الجمعة ويلقي درس الثلاثاء الديني ، بدد سراج دهشة معتوق من غرابة الوسيط عندما أخبره بحشد مدحت لأصوات الناخبين لصالح غريب، مقابل وعد ببناء غريب معهد ديني للفتيات، ومستوصف بعزبة الوالدة يُشرف عليهما مدحت.

فَض معتوق الظرف الصغير ليقرأ كلمتين بدون توقيع.. "سألقَاك هُناك".

كلمتان أرسلهما غريب، والزمان في العاشرة من صباح الثلاثاء كما أخبره سراج شفاهة، ابتسم معتوق بعدما خمن أين سيلقاه غريب، في مكان يكفي أن يُجهله بكلمة "هناك" إذ لم يُمح من ذاكرتهما بعد.

رغم تحذيرات سراج والمعلم غالي وشاهين من بعدهما قرر معتوق لقاء غريب، أجمعوا على غدره لكن معتوق ركب رأسه، لم يعد يستطيع العيش على هامش زمن لا يؤثر فيه ولا يتأثر به، ولا يريد الرحيل بلا ذكرى تنبئ عن إبداعه مثل كل الفنانين، بينما يحتفظ غريب بالخلود لنفسه، غادر مكمنه صباح الثلاثاء محملًا بنصف هواجسه، متلحفًا بجنون الأمل، ارتدى قبعة الصيادين واستقل سيارة نقل مع بعض العمال، لم يسأله أحد عن وجهته، ظنوا أنه تابع للمشروع الذي ينفذ بالجبل، وعندما وصلوا طريق حلوان الزراعي قفز من صندوق السيارة عندما توقفت بإشارة طويلة على مشارف عزبة الوالدة.

وضع تعديلًا بسيطًا على مساره في اللحظات الأخيرة فتوجه لمجمع المدارس الحكومية، وقف وراء شجرة عجوز على الناحية الأخرى من الطريق متظاهرًا بقراءة جريدة حتى لمحهما قادمتين، رأى راوية تمسك بيد زَهرة والاثنتان مُطرقتان تسيران في صمت، كأنهما ذاهبتان إلى مأتم، حلت قسوة الاختفاء وحيرة الابتعاد وظللتهما ظنون الريبة، استغرق الأمر منه دقائق طويلة حتى حسم أمره، حصة التاريخ دائمًا الأولى كل ثلاثاء، اقترب من النافذة ووقف في زاوية حادة كي لا تلمحه

زَهرة، يبدو أن الحصة بدأت منذ قليل فملامح راوية تميل للجدية، جبينها مقطب وحاجبها الأيسر مقوس كظهر قطة شرسة يعلو صوتها بالتدريج مسترسلة في سرد درس جديد..

"... ثم تعمقت الخلافات بينهما، وهدد كل منهما الآخر بفضحه بسبب الديون التي تراكمت على مصر مع أنهما شقيقان في الرضاعة، بلغ الأمر الباب العالي بإستنبول، فأمروا الخديوي بالتصرف لكنهم لم ينصروه على إسماعيل المفتش وزير ماليته، وفي نهار يوم جمعة زاره الخديوي في بيته بعدما أرسل له مرات ومرات مع رجاله ليلقاه، لكن إسماعيل المفتش خاف غدر الوالي واحتمى ببيته وسط حراسه وعبيده، أغراه الخديوي يومها أو هدده، لا أحد يعرف ما دار بينهما في الغرفة المغلقة حتى نجح في أن يخرج به وحده، اصطحبه الخديوي لسراي الجزيرة، وهناك أمر حراسه بحبس إسماعيل المفتش لآخر النهار، بعد المغرب أخرجوه من قبو إلى مرسى النيل، وضعوه مكبلًا ببطن سفينة في طريقها إلى دنقلة بالسودان، وعندما بلغ المركب حلوان أبطأ حتى توقف أمام عزبة الوالدة باشا، ثم تسلل أعرابي يدعى إسحاق إلى غرفة إسماعيل المفتش، يدين بالولاء التام للخديوي إسماعيل ويشتهر بالقسوة والغلظة، قبض إسحاق على رقبة المفتش بكفيه الكبيرتين وهو نائم حتى خنقه، لكن المفتش قاومه وقطع عقلة إصبعه لما أمسك بها بين فكيه، نادى إسحاق الأعرابي على العبيد، ولما تأكدوا من موت المفتش حملوه وربطوا على بطنه حجرًا وألقوه في النيل فلم يُعثر له على جثة ولا وُجد له قبر حتى اليوم، في صباح اليوم التالي عادوا من حلوان وأبلغوا الخديوي بالنبأ، فأعلن أن إسماعيل المفتش وزير المالية أفرط في الطعام والشراب حتى سقط من المركب في النيل لما أصابه الدوار فغرق، بكى الخديوي أمام وزرائه وهو يعدد محاسن المفتش، ثم أقام الحداد عليه ثلاثة أيام متصلة وأجبر جواريه على الاتشاح بالسواد".

شعر معتوق بانقباض يغزو قلبه من الحكاية، وعبثت الظنون برأسه، هل لمحته راوية فأرادت تحذيره بهذه الوسيلة؟!، نظر في ساعته وجدها جاوزت التاسعة، انصرف قبل الحصول على إجابة ولو من عينيها، قفز في أول سيارة أجرة صادفته متوجهًا لمتحف محمود خليل بالزمالك، انتظر في طابور طويل لا يَعرف له سببًا بعد سرقة لوحته، قطع تذكرة ودخل الردهة الرئيسية بخطى مترددة. بدا كمن وجد نفسه عاريًا فجأة وسط أناس لا يعرفهم، وقف أمام الإطار الفارغ للوحة ذاهلًا، قبل أن يبحر بشجونه في رحلة طويلة كعادته هبطت يد ثقيلة فوق كتفه، التفت فوجد غريب خلفه يبتسم ببرود، تلك هي المرة الثانية التي يلقاه فيها بعد السرقة لكنه لن يسمح له بتخديره فيها كما فعل من قبل.

جذبه غريب من ذراعه، ضغط بقوة هامسًا بنبرة آمرة كي يخرج معه من المتحف في هدوء. تجاوزا بوابة المتحف الجانبية وانحرفا يسارًا حتى شارع 26 يوليو، عند أقرب مقهى بحي الزمالك جلسا، تنهد معتوق ومد ساقيه شاعرًا ببعض الأمان بعدما تراقص الغدر أمام عينيه طوال سيرهما، لم يضع غريب وقتًا كعادته، مال ناحية معتوق وهو يخفض صوته حتى صار أقرب للفحيح مذكرًا إياه باتفاقهما الذي لم ينفذ بعد، رسم لوحات جديدة ليضع غريب اسمه عليها بعد نفاد رصيده من لوحات معتوق، مع ضرورة تقليد لوحة غير شهيرة للفنان محمود سعيد.

قبل أن يثور معتوق في وجهه أردف غريب ببرود أكثر موضحًا أنه مُشارك في معرض قريب بلندن، ثم عاد بظهره للوراء وقال:

- لآخر مرة باجدد عرضي وبفكرك إنها لقمة طرية وحتطلع منها بقرشين حلوين ومن شهر ضيعت العرض الأولاني بعنادك.

- أنا مش مغفل يا غريب ومتأكد أنك اللي سرقت زهرة الخشخاش بتاعتي من المتحف علشان تبقى سيف على رقبتي ودلوقتي بتتهرب من نصيبي وحقي لكن المرة دي مش حسيبك وحبلغ عنك وأسجنك معايا.

ظل غريب يراوغ ويدور ويفلت بإجاباته، ومعتوق يتمادى في تهديده مختلقًا حكاية وصوله لمعاوني غريب اللذين شاركا معه سرقة اللوحة منذ عام، كي يضفي على حبكة قصته مزيدًا من التشويق والرعب.

وصل معتوق بهذه العبارة لخط النهاية، لكن غريب كتم نواياه واختتم ردوده بنفس البرود الذي أتى به وكأن الأمر لا يعنيه:

- صدقني يا معتوق أنت مضطر تتعاون وترسم لوحات جديدة ومفيش حلول تانية عندك.

- يعني إيه؟

- يعني معايا أنت مُسير مش مُخير.

قالها غريب وهو يبتسم لأول مرة منذ جلسا، ثم خلع برقع حيائه كله حتى بانت سوأته، أخبره أنه سيعطيه ألف جنيه عن مجهوده في تقليد وتبديل لوحة زهرة الخشخاش المسروقة العام الماضي، ومئة جنيه عن كل لوحة يرسمها لحسابه ليوقعها باسمه خلال الشهرين القادمين بإجمالي عشر لوحات، ثم سحب نفسًا طويلًا من الشيشة وقال:

- شوف يا معتوق إنت فنان صحيح لكن العلاقات العامة والبيزنس مش شغلتك، كل واحد فينا له تخصص وبنكمل بعض، أنا وش العملة التاني أنا بقيتك ، ولو أنت شايفني مزور تقدر تقول لي شايف نفسك إيه؟

قبل أن يشرع معتوق في الرد ألجمه غريب مسترسلًا :

- نصيحة مخلصة مني بلاش تسأل كتير عن اللوحة الأصلية لأن حياتك في معرفتك، أما لوحتك المقلدة كويس أنها اتسرقت علشان ينشغلوا بيها بعيد عننا، افتكر كويس يوم ما اتفقنا على تبديل زهرة الخشخاش في المتحف ماكنش الاتفاق إننا نقسم الفلوس بالنص، أنا قلت لك حتاخد نصيبك، وأنا قدرت مجهودك في تقليدها بعشرة أمثال أي لوحة، زي الحسنات كده، فبدل ما تحمد ربك عاوز تكفر بالنعمة وتقوللي مش حشتغل؟**!**

انفعل معتوق عليه بغضب :

- أنا عاوز حقي يا حرامي يا بن الكلب، ربع مليون جنيه وبعدها كل واحد يروح لحاله، ومفيش لوحات تاني.

بدأ غريب يقلم أظافره بمبرد صغير، وابتسم ابتسامة مبتورة لما فرغ من تقليمها كلها قائلًا بنبرة مغلفة بتهديد صريح:

- غريبة أنا كنت فاكر إن تزوير الفلوس مخليك عايش كويس ومش محتاج حاجة من حد يا فنان أفندي.

شعر معتوق بحشرجة خفيفة في حلقه ثم لحق رأسه دوار خفيف، مادت الأرض من تحته رغم جلوسه فأمسك بحافة الطاولة، ظل ينظر في الفراغ كمن مَسه الضُّر، وقبل أن يتحرك عقرب

الساعة في قفزة جديدة للأمام كان غريب يسترسل بدون توقف:

- اسمعنى كويس ونضف ودانك ، أنا مترشح عن دايرة عزبة الوالدة يا معتوق، يعني دبة النملة لازم أعرفها، وإلا تبقى عيبة في حقي. صدقني أنا أقدر بعلاقاتي أحميك.. بس بشروطي.

طال صمت معتوق حتى تلاقى مع ذهوله في نهاية كلمات غريب، ظل شاردًا حتى انتبه على صوت نباح عنيف قريب، لمح على مقربة من المقهى كلبًا ضخمًا يطارد قطًّا هزيلًا ويكاد يلحقه، لكن القط احتمى بآخرين من فصيلته، تجمعوا ووقفوا صفًّا متعرجًا، تقوست ظهورهم ثم تقدموا ببطء كاشفين عن أنياب صغيرة لكنها كثيرة، فأجبروا الكلب على التراجع قليلًا بعد فترة نباح مقلقة.



8

"لدي اعتراض"

هَمس بها معتوق بصوت خفيض شاكيًا حاله، مناجيًا ربه، لم يعش الحياة بعد، لم يأخذ فرصته كاملة ولا حتى نصف فرصة، سار في طريق مستقيم فتشعبت السكك الجانبية من حوله حتى تقاطعت مع طريقه فتشابهت عليه وغيرت مصيره.

سكت لبرهة ثم قال بنبرة أعلى.. "لدي التماس".

رددها وهو يطلب فرصة ثانية، فرصة أخيرة.. بدأت الدموع تتدافع لتندفع إحداها وتجر أخريات وراءها ملضومات بخيط الشجن ورجفة الانفعال، حتى خرجت منه كلمتان وهو ينتحب.. "لدي رجاء".

لكنه لم يرجُ شيئًا هذه المرة، ظل يبكي في ركن منزوٍ بمسجد السلطان حسن، حاصره الضيق حتى نُودي للصلاة، فغادر مُطرقًا يائسًا، لم يستطع العودة لمخبئه، قادته قدماه لغرفته بعدما اختار عقله الموت في النور على العيش في العتمة، خلع ملابسه وجلس القرفصاء في طست عريض، سكب ماءً باردًا فوق جسده عشرات المرات بكوز صغير لعله يُطفئ نار الانتقام التي تستعر بداخله، وقعت عينه وهو يتنشف على اللوحات التي رسمها لغريب أبو إسماعيل وكأنها تحذره من الاحتفاظ بها، لم ينجح تهديده لغريب في محو الظلم وحال ضعفه دون كشط توقيع غريب الذي وضعه عليها، بات هو المهدد، ولم تفلح الأيام والشهور في تضميد جروح النفس فحفرت بها أخاديد عميقة من القهر، شعور طاغ بداخله يمزقه مع كل لوحة يحصل عليها غريب أبو إسماعيل منه، كأنه يأسر بناته، ثم يتخذهن جواري، واحدة تلو الأخرى، ليتلذذ باغتصابها أمام عينيه، ولما يمل منها يبيعها ويطلب غيرها، ليأتي معتوق له بواحدة جديدة، يقدمها قربانًا لبقائه على قيد الحياة كفنان.

تشوشت ذاكرته فلم يعد قادرًا على ترتيب الأحداث حسبما وقعت بعدها، كل ما يتذكره طرقات عنيفة على بابه، ثم رجال كثيرون منتشرون بالغرفة كالجراد، وجه زَهرة الباكي وهي مُمسكة بيد راوية هو آخر ما وقعت عينه عليه بعزبة الوالدة بعدما ضبطوه وفتشوا غرفته، لا يدري ما الذي كانوا يبحثون عنه، ولم يعرف تهمته بعد، فاللوحة التي قلدها سُرقت منهم، والأصلية المسروقة في حيازة غريب، وهو الذي باعها وحصل على ثمنها وحده، ووراءها قصة لا يريد روايتها لأحد، ولو كان البلاغ عن نقود مزورة فلم يسألوه عنها ولم يضبطوها بحوزته، مع أنها بحافظة نقوده وأسفل أريكته العريضة. لكنهم لم يجيبوا أسئلته، اهتموا بتوثيق يديه اللتين يبدع بهما خلف ظهره وكأنهما أداة الجريمة، أخذوا كل لوحاته حتى تلك التي لم تكتمل، نزعوا البورتريهات التي رسمها لابنته من جدران الغرفة، كل ما هو مخطوط ومرسوم صادروه، وكأنه متهم بالإبداع ولا شيء آخر.

*****

الأسرار معلومات نبوح بها في لحظة غفلة لآخرين ولا ندري أنهم قد يستغلونها ضدنا وقت اللزوم. طالت لحظات الغفلة التي مرت بمعتوق حتى صارت تظلل تصرفاته. بعد ثلاثة أسابيع من القبض عليه بتهمة سرقة لوحة زهرة الخشخاش كان لا يزال يترنح بشدة، ويعاني بقسوة من الأعراض الجانبية للضرب تحت الحزام، وشى به غريب عقب لقائهما ببضع ساعات عندما أيقن أنه تمرد عليه للأبد، قدم غريب للشرطة البطاقة المزورة التي استأجر بها معتوق شقة بولاق ومفاتيحها، فأصبح هو المتهم الذي لا شريك له، حتى المعاونان اللذان أحضرهما غريب لم تطلهما الشبهات، لم يرد ذكرهما بالمحضر، والأغرب أن المجندين الأبلهين شهدا ضد معتوق. ظل لأيام مذهولًا من شهادتهما أثناء مواجهة وكيل النيابة له بهما، قالا الحقيقة ناقصة وحددا دوره بالضبط، رددا كل كلمة قالها لهما كأن الحادث وقع بالأمس، لكنهما أغفلا وضع لوحته مكان لوحة فان جوخ ثم غيرا التاريخ ، قفزا بالزمن سبعة شهور كاملة، حتى صار تاريخ السرقة ليلة حارة جافة من ليالي صيف يونيو، مع أنه دخل المتحف في صباح شتوي دافئ من أيام ديسمبر.

مَرت الأيام الأربعة لحبسه احتياطيًّا على ذمة التحقيق بصعوبة، تعرض للضرب بالحجز، ربما ليرشد عن مكان اللوحة، وبدأت بعدها خمسة عشر يومًا أصعب منها، أمر فيها القاضي باستمرار حبسه على ذمة القضية، ثم جُددت فترة الحبس مرتين، أيام عجاف قضاها معتوق بحجز قسم الخليفة، ذاق فيها الذل والمهانة باعتباره سارق لوحة لفنان هولندي لا يستطيع مأمور القسم نطق اسمه صحيحًا بسبب تعطيشه لحرف الجيم، صار لص الحضارة الخسيس كما قرأ في عناوين الصحفي سمير رجب بجريدة الجمهورية، بات المجرم الخائن لضمير الأمة ومُهرب تراثها الثقافي الكبير كما وصفه الكاتب صلاح منتصر في عموده بجريدة الأهرام. دار في ذهنه سؤال وكيل النيابة الذي يتكرر وهو يحقق معه للمرة الثالثة، قَلب معتوق السؤال على أوجه عديدة ليعرف ما الذي يهدف إليه منه، هل يريد وكيل النيابة الحقيقة فعلًا؟، أم أنه وجد من سبقوه يسألون المتهم عن قوله فيما هو منسوب إليه دون أن ينتظروا إجابة محددة فاتبع دينهم؟، هل ذهن المحققين فعلًا مشغول بالأسئلة التالية لتضييق الخناق على المتهمين؟ هز معتوق رأسه بشدة ليسكب ما يمور بها، السؤال الذي يطرحه وكيل النيابة نمطي للغاية، فنادرًا ما يعترف المرء على نفسه، ولو اعترف سيُخفي جزءًا من الحقيقة، حتى يترك لنفسه بابًا خلفيًّا مواربًا للنجاة في آخر لحظة، ثم ما فائدة المحامين في حياتنا إذا كان المرء سيعترف بجريمته؟ ما الفائدة أصلًا من الاعتراف والمجتمع يزدري المعترفين فلا يطهرهم اعترافهم، حتى القضاة يرون الاعتراف سيدًا للأدلة فيحكمون بأقصى العقوبة وهم مطمئنون.

أعاد وكيل النيابة السؤال بضيق وهو يتعجل إجابة معتوق الشارد، فابتسم له قائلًا بالفصحى:

- نعم سرقت لوحة زهرة الخشخاش.. ولكن اللوحة المسروقة التي تتهمونني بها هي لوحتي. أنا سارق ما أملك.

خطف معتوق فرحة انتصار وكيل النيابة بالاعتراف من فوق ملامحه قبل أن تلتصق بها، طلب منه وكيل النيابة الاسترسال في تفصيلات اعترافه، لكن معتوق بدأ كل إجاباته بالجملة ذاتها، ليجبره على سماعه باهتمام أكبر، أراد إثارة فضول المحقق ليبحث عن الحقيقة في نفق غريب والذين معه، إذ ربما يتعثر فيها كلما قرأ التحقيق فيجلس غريب بجوار معتوق على كرسي الاتهام، ويُقيد معه بقيد حديدي واحد. مع توالي الأسئلة ضاق وكيل النيابة باعتراف معتوق المبتور وظنه

يراوغ، لكن معتوق كان مرتاح البال هادئ الملامح، فالجملة التي قالها لوكيل النيابة واعتبرها المحقق اعترافًا منه لم يكذب معتوق في حرف واحد منها.. فظل يكررها.

*****

مثل جريمة قتل بلا جثة كان اتهام معتوق بسرقة لوحة زهرة الخشخاش من المتحف، في كل جلسة للتحقيق أو النظر في تجديد الحبس أمام القاضي لنظر التظلمات التي يقدمها المحامون للإفراج عنه يُصر معتوق على طلب إثبات حقه في إعادة زهرة الخشخاش المسروقة باعتبارها مملوكة له، أخبرهم بجدية بالغة أنه تركها لوزارة الثقافة كي تعرضها للجمهور، بعدما حصل غريب أبو إسماعيل على اللوحة الأصلية، لكن وكيل النيابة لم تعجبه تلك الإجابات، في حين اكتفى القاضي بطيف ابتسامة سرعان ما وأدها حفاظًا على الهيبة.

الحقيقة أن معتوق لم يعد منشغلًا بمصيره، ففي مرحلة ما بعد جلسات التحقيق الكثيرة، وفترات الحبس الطويلة التي أمر بها القاضي على ذمة القضية شعر بتفوقه على فان جوخ. لوحته المقلدة صمدت في الصدارة لشهور سبعة على التوالي بالمتحف، لم يشك فيها أحد حتى سُرقت من فرط جمالها ودقتها، ولا تزال الخدعة تنطلي على الجمهور بالخارج وهم الخبراء المقدرون للفن، ومؤكد لوحته معروضة حاليًا في لندن أو نيويورك وتحصد انبهار وإعجاب الزائرين من العالم كله.. هكذا ظن، ثم بلغ التحدي بمعتوق مداه، أبدى استعداده لرسم عشرات مثلها، أو الدخول في مناظرة مع خبراء وزارة الثقافة للكشف عن لوحات أخرى بالمتحف منسوبة لفان جوخ وينتابه شك في أصليتها، ابتسم له وكيل النيابة في استهانة، ما لا يعرفه المحقق أن زهرة الخشخاش هي اللوحة المحببة لقلب وعقل ووجدان معتوق، كل فنان لديه لوحة مُلهمة تحركه وتثير مشاعره، يعتبرها القطعة الفنية الأهم، ينظر لها نظرة تقديس، يتعبد في محرابها، يرفع مُبدعها لمصاف الآلهة، ومعتوق كذلك مع فان جوخ، تسعون عامًا تفصل بين إبداعهما، كلاهما عانى من التجاهل والاثنان مصابان بالاكتئاب فانجذبا لتجسيد اللوحة ذاتها، لعل زهورها تخرجهما منه، أصيب فان جوخ بالصرع، وقطع أذنه ومات بعدما رسمها بثلاث سنوات، يا ترى هل ينتظره المصير ذاته؟ هل يقطع غريب لسانه؟ أم يصاب بالجنون ويقضي بقية حياته بالسجن؟

*****

أفرجت السماء عن بعض دموعها قرب الفجر لتستقبل عزبة الوالدة الصباح بوجهٍ باكٍ، واستقبلته زَهرة بركضة مذهلة، قطعت أطول شارع بعزبة الوالدة في بضع ثوان، انطلقت عندما لمحت أباها من النافذة يسير على قدميه في طريقه لبيته، بعد الإفراج عنه بكفالة مئة جنيه على ذمة التحقيق، كان شاهين معترضًا على قيمة الكفالة المرتفعة وأخبر معتوق بتقديمه تظلمًا للمبالغة فيها، لكن معتوق همس له أن المبلغ أسفل حاشية الأريكة بعدما رسم منه الكثير قبل ضبطه، أحضر شاهين مئة جنيه وسددها وهو يخفي قلقه بصعوبة أمام الموظف الذي سلمه إيصالًا رسميًّا بإيداعها خزينة المحكمة، فغادر ومعتوق يتأبط ذراعه.

ظلت زَهرة في حضنه لأكثر من ساعة، ثم أمضت بقية اليوم ملتصقة به، تهمهم طوال الوقت، عيناها لامعتان، ربما كانت دموع فرحة أو شوق مكبوت، وربما حزن على سمعة خدشت بقوة حتى تمزقت، لكن راوية فسرتها بشعور الأمان المفتقد، مثلما تلمس أقدامنا اليابسة بعد إبحار طويل وسط نوء وعواصف.

تبادلت معه راوية نظرات صامتة، لديه الكثير كي يعتذر لها عنه، ولديها عتاب بطول زمن معرفتهما، نظراتها تطلق سهامًا لا تعني سوى أنه خذلها، ثم تعود لتتساءل في حسرة لماذا فعلها؟، أين أخفى اللوحة؟ يلوح شعاع خافت بعينيها معلنًا براءته، ثم يومض أمل في أن تكون زوجة عن قريب، ظلت حبيبة وصديقة لسنوات طالت حتى نفد صبرها بعدما اقتربت من منتصف الثلاثينيات بغير زواج، تأمل معتوق شعرها الفاحم المنسدل على كتفيها، ناوشته رغبة في جدل ضفائرها لترى جمالها في مرآة عينيه، بينما عيناها تنطقان بأنها انتظرته أكثر من اللزوم، لكنها تراجعت عندما شعرت أنه لا يزال يعود للوراء مترددًا.

ابتعدت راوية عائدة لبيتها، افترقت الأيادي بعدما سَحبت أناملها ببطء من دفء كفيه، التفتت لمرة أخيرة وهو يتابعها من نافذته، تلاقت نظراتهما بلهفة، فالعيون لا تزال في حالة عناق.



9

أسدل الليل ستائره في سكون حتى الفجر الذي ناوشه ببرق خفيف يومض للحظات لكنها غير كافية لتبصر الطريق. نام معتوق كما لم ينم من قبل ليلة الإفراج عنه، وفي الليلة الثانية لم يذق طعم النوم بسبب أسئلة راوية الحائرة عن اعترافه بالسرقة، وضغوط المعلم غالي وغضبه لعدم إنكارها، تحولت حجرته لغرفة عمليات دارت فيها حوارات صاخبة، الكل يتحدث ولا أحد يسمع وجهة نظره أو حتى دفاعه عن نفسه، اختار تجاهل أسئلة الجميع ليرضيهم، المحامون الذين جلبهم غالي اقترحوا الإدلاء بأقوال جديدة، ملخصها أنه تعرض لتعذيب حتى أُجبر على الاعتراف بسرقة لوحة لم يتم ضبطها إلى الآن، نصحوه بالتراجع التام عن أية أقوال أو اعترافات أدلى بها فالأدلة ضعيفة متهافتة، وشهادة الشهود سهل هلهلتها أمام القضاة عند بدء المحاكمة، أما اللوحة المقلدة التي وضعها مكان الأصلية فنهروه عن حكاية قصتها مرة ثانية، ثم كان فصل الختام عندما وصفها المعلم غالي قبل انصرافه غاضبًا.. "داهية ومالناش صالح بيها".

خرجت راوية شاردة حزينة وغادر سراج يائسًا ولم يتبق بالغرفة سوى شاهين بعدما نامت زهرة من التعب وانصرف المحامون مطمئنين فجيوبهم منتفخة أيًّا كان القرار. انتهز معتوق الفرصة وقدم لشاهين عرضًا مغريًا مثل تخفيضات الأوكازيون، لكن شاهين بدا كأخرس لا يقوى على النطق، ظل يقلب الموضوع برأسه وكل مرة يهزه كأنه ينفض العرض منه، قرب الفجر تساقط رأس شاهين فوق كتفيه، ما زال يتفادى الكلام في العرض المقدم من معتوق، يحاول تليين رأس معتوق ليقتنع بأن المحامين الذين وَكلهم المعلم غالي بارعون، لكن عليه أن يساعدهم. مال رأس شاهين للأمام ثم توقف فجأة لتبرق عيناه في دهشة خافتة، بدا أن النوم على وشك أن يغلبه بالقاضية، في هذه اللحظة شعر معتوق أن الفرصة مواتية لتوجيه قبلة الحياة لشاهين، أقنعه أنه الغارق في مهنته، مذكراته والشكاوى التي يكتبها هي التي أخرجته من الحبس الاحتياطي، ومرافعات المحامين الكبار وحضورهم التحقيقات أشبه بأدوار ثانوية لضيوف الشرف في الأفلام السينمائية، لو حذفناها منها لن يتأثر الخط الدرامي فيها، ولن تتغير النهاية بسبب إلقائهم الرتيب النمطي، فما قالوه كان يمكن لغيرهم أن يردده طالما أن شاهين الذي كتبه.

اختتم معتوق مرافعته أن المحامين الكبار يكونون أحيانًا واجهة براقة مثل الساعة السويسرية، لكن آلات التشغيل الدقيقة لا يراها العميل، تورد وجه شاهين ولانت آخر حصونه، فأردف معتوق بنبرة أدرك شاهين معها أن الساتر الأخير الذي يتوارى خلفه سيسقط بطرقة خفيفة أخيرة:

- أنت المحامي في قضيتي يا مِتر شاهين.

بلعثمة مغموسة في التردد أجابه:

- ما ينفعش يا معتوق ولا ينفع أترافع، وأنا لو عرفت..........

قاطعه معتوق بإشارة من يده جاذبًا الكلام من على طرف لسانه مكملًا:

- ولو عرفت تدبر لي كارنيه حقيقي من أي زميل لك لمدة يوم واحد حتشتغل بالمحاماة بقية حياتك.

ربما لم يكن شاهين يَدري منذ أسابيع وهو يكتب التماسًا للإفراج عن معتوق أنها ستكون أول خطوة يخطوها لارتداء روب المحاماة، بعدما تعفن سبع سنوات كاملة بمدرجات كلية الحقوق متعثرًا في السنة الثالثة، حاجز لم يستطع تجاوزه أبدًا، لكن بعد ست ساعات من لقائهما أزال معتوق الحاجز بجرة قلم، بخطوطه الدقيقة، بقدرته الهائلة على التقليد، بلمساته السحرية على الورق. وَضع معتوق صورة شاهين على إبداع جديد من أنامله، صار شاهين محاميًا بالاستئناف العالي وعلى مشارف القيد بجداول محكمة النقض والدستورية العليا في أقل من نصف يوم، ثم أتبع نصيحة معتوق بغير تجويد منه، أطلق الإشاعة في الهواء كي لا يتتبعها أحد، أشاع بعد أيام قليلة والغالبية جالسين بالمقهى أنه حصل على ليسانس الحقوق منذ شهور، وحاليًّا يعمل بأحد المكاتب الصغيرة بالعباسية، مكان بعيد عن حلوان لن يهتم أحد بالتفتيش وراءه فيه عن الحقيقة، سيصدقونها مجبرين إذا ما أرادوا استشارة قانونية مجانية، أو تم القبض على ذويهم في مشاجرة بسيطة أو تعاطي مخدرات.. كما نصحه معتوق.

تبادلا غمزة عين كومضة وهما يحتسيان الشربات الذي أمر بتوزيعه المعلم غالي مع قطعة حشيش صغيرة احتفالًا بالأفوكاتو شاهين كما أسماه فارس. صار شاهين المحامي الخاص بمعتوق، ومستشاره القانوني الذي يثق فيه، لا يخطو خطوة للأمام أو حتى للخلف قبل سؤاله، لكن في لحظة قريبة بعد أيام قليلة ندم معتوق وقال لنفسه يا ليتني ما فعلتها، انقلب السحر على الساحر.. بعدما

حولت خطة دفاع شاهين مسار معتوق فجأة نحو منحنى خطر، انزلق فوقه لجُب عَميق مُعتم لم يكن يتوقعه حتى في أسوأ كوابيسه.

*****

شعاع رفيع متسلل من صباح شبه غائم بعدما لاحت شمس متوارية خلف سحب مكدسة بأمطار محبوسة، طقس يثير الشجن ويجلب ذكريات حزينة، لكن معتوق ممتلئ لآخره، الحيرة والقلق هما الرداء الموحد الإجباري لملامحه وعقله، وفوق رأسه قبعة كبيرة مغزولة بخيوط الإحباط ومزينة بخيبة الأمل.

استدعته النيابة مرة أخيرة لمواجهته بتحريات المباحث، التي أكدت سرقته لزهرة الخشخاش بمفرده يوم الرابع من يونيو 1977، عن طريق كسر نافذة شرفة المتحف ليلًا، وبعدما استمعوا لأقواله التي لم يُغيرها رغم همهمات شاهين الذي حضر معه محاميًا هذه المرة، قرر وكيل النيابة إحالة معتوق محبوسًا لمحكمة الجنايات، قال بنبرة جادة وهو يوقع أوراقه إنها قضية سرقة مال عام متمثلًا في لوحة زهرة الخشخاش ولا بد أن يأخذ المجرم جزاءه ليكون عبرة للجميع، رفع قلمه قبل التوقيع الأخير محذرًا معتوق من الندم ملوحًا بفرصة قد لا تتكرر لإعادة اللوحة وربما يُعاد معها النظر في موقفه بالقضية، لكن معتوق كان في وادٍ آخر، يبتسم بسخرية على جملة "مال عام" التي وصف بها وكيل النيابة لوحته، ثم رفع عينيه لأعلى وهو يشير إلى اللوحة التي تزين مكتبه قائلًا بنبرة واثقة:

- رامبرانت عمره ما رسم تكوين على شكل علامة الجمع، اللوحة مزورة يا سعادة البيه لكن الشهادة لله الألوان مظبوطة.

حملق وكيل النيابة في اللوحة التي فوق رأسه وربما كانت فوق رؤوس أجداده بدار القضاء العالي، ثم رد بصره في دهشة لمعتوق الذي ظل يبتسم في برود، حتى طارت ابتسامته من فوق شفتيه كعصفور فزع عندما فرد شاهين جناحيه فجأة مترافعًا بثقة، مؤكدًا أن معتوق يعاني من اضطراب

عقلي يصور له أشياء لم تحدث وأنه صاحب دور البطولة فيها، ثم طلب من المحقق إحالته لمستشفى الأمراض العقلية لفحص حالته.

رمق المحقق شاهين بنظرة شك من أسفل نظارته الطبية، لكن شاهين بدا جاهزًا لكل الاحتمالات، أخرج شهادة طبية من بين طيات ملف كرتوني ضخم يعج بأوراق تحمل بعضها أختامًا قائلًا:

- موكلي مجنون يا سعادة البيه ومعايا شهادة رسمية عاوز أثبتها بالمحضر بما إن حضرتك قررت تحويله للمحكمة.

غرق معتوق في ذهول لزج مثل الزيت، مَن الذي وقّع عليه كشفًا طبيًّا ثبت منه إصابته بمرض عقلي، ثم دوّنه في شهادة رسمية يُزينها خاتم النسر وسلمها لشاهين؟! أحس لوهلة أنه فقد الزمن، يقف وحيدًا تائهًا على حافة الخيال مترنحًا من الدهشة، على وشك السقوط في حيرة عميقة، رأى الوجوه مهزوزة كأطياف متكررة تداخلت أصواتها فلم يعِ ما يقولون.

ربما فقد معتوق الوعي لدقائق، وعندما أفاق وجد نفسه بسيارة الترحيلات، بجواره صول يتميز بأرداف مهيبة وشارب عظيم ممسكًا براديو صغير مفتوح، أبلغه الصول في خشونة أن قرارًا من النيابة صدر بعرضه على مستشفى الأمراض النفسية بالعباسية، ليتم احتجازه خمسة وأربعين يومًا لإعداد تقرير بحالته، وبعدها يُعاد النظر في أمره.

تحركت سيارة الترحيلات بمعتوق وحده، اعتبروه منذ هذه اللحظة مجنونًا، وقرروا إبعاده عن المساجين الآخرين كي لا يؤذي أحدًا، جلس على أرضية العربة فلم يعد قادرًا على الوقوف، وظل الصول طوال الطريق يرميه بنظرة شك مستمرة مشوبة بالحذر. من بعيد سمع معتوق صوت شاهين المحامي يصرخ باسمه، يناديه مرات ومرات حتى تلاشى صوته وغطت عليه تمتمة الصول المهيب بقصار السور التي لم يتوقف عن تلاوتها طوال الطريق، وبينما كان معتوق يبتسم ابتسامة ذاهلة كمجنون حقيقي تغمره الدهشة، كان الراديو الترانزستور راقدًا بين فخذي الصول يُعيد إذاعة فقرة يتيمة من خطاب الرئيس السادات ، يعلن فيها عن استعداده للذهاب إلى آخر العالم.. إلى إسرائيل ذات نفسها التي ستدهش وهي تسمعه الآن.

*****

سور حجري ممتد لأبعد من بصره يفصله عن الدنيا، تتوسطه بوابة حديدية عريضة بارتفاع أربعة أمتار، خلفها ممر طويل يشق غابة كثيفة من أشجار عجوز، كلما انحسر اللون الأخضر زاد عدد الحراس بزيهم الأسود، يحدقون في الوجوه في حدة كأنهم يسألون سؤالًا ويتبين كذب الإجابة، فيتوعدون الجميع بنظراتهم، من خلفهم ظهرت المباني التي يميل لونها للاصفرار، ربما لهذا السبب أسموها "السرايا الصفرا"، تساءل معتوق بينه وبين نفسه عن كل هذا العدد من الحراس، هل يا تُرى لحمايتهم من مجتمع أتى بهم إلى هنا، أم لحماية المجتمع منهم مع أنه كان يتجاهلهم ولا يراهم.. مَن الخائف مِن الآخر أكثر؟!

أدرك مع مرور الأيام والأسابيع أن المكان ليس مستشفى حقيقيًّا بقدر ما هو دار إيواء لمن اكتمل شفاؤهم، وما بين جحود أبناء ونسيان أصاب ذاكرة أسرة مريض عمدًا أو سهوًا، أو بقرار جائر من حكومة، أو تحايل لمتهمين في قضايا كما فعل شاهين معه.. وجد نفسه وسط أكثر من خمسمئة مواطن، أو مجنون كما يسميهم الناس بالناحية الأخرى من السور. لاحظ بعد أيام قليلة أن السيدات أكثر من الرجال، لم يقدر على منع ابتسامة عندما سمع الإحصائية من الطبيب خليل البنهاوي الذي صارت صداقة بينهما من اليوم الأول بتوصية من شاهين الذي يعرفه من أيام الشباب، قفزت راوية لمخيلته على الفور، ما عانته معه ومنه ربما يأتي بها إلى هنا قريبًا، اتسعت ابتسامته، على الأقل سيجدان مكانا آمنًا يعيشان فيه، ولن يحتاجا لإنجاب أطفال كما تصمم دومًا.

*****

طوال حياته كان كلامه أكثر من أفعاله، مُفرطًا في رومانسيته، يحلم باقتسام قرص الشمس مع جيرانه كل صباح، وعند المساء يتبادل معهم عشق القمر، لكنه لم يحصد سوى فشل تلو الآخر، سلسلة طويلة من إخفاقات متتالية متشابكة، شكلت طوقًا غليظًا التف حول رقبته، لديه الكثير من الكلام لكنه لم يعد يريد أن يخبر به أحدًا، تخبطت خطواته وتبدلت أوراق اللعبة مرات كثيرة، ثقلت

قدماه فلم تدفعاه إلى الأمام، اختزلت آماله كلها في المقاومة ليبقى واقفًا مكانه ولا يسقط على ظهره مرة ثانية، على الأقل ليرى من يدفعه للخلف ولو لمرة واحدة، حتى لو كان الدافع هو عقله.

انشغل بترتيب أفكاره في رأسه، ليهيئ لنفسه مخرجًا مما سقط فيه، لكن تقرير اللجنة الطبية بمستشفى العباسية صدر بعد ستة أسابيع ليبعثر أوراقه كلها، مؤكدًا معاناته من اضطراب نفسي وعدم وعي كامل بالزمان مع مؤشرات لهلاوس ضلالية، الحالة تحتاج لاحتجازه بالمستشفى لحين شفائه، ظل محافظًا على ذهوله كعهدة حكومية تسلمها منذ وصوله إلى هنا، فلم تكشف عليه لجنة طبية جديدة ولا هو مضطرب نفسيًّا كما كتبوا، لكنه تجاوز التقرير كله وتوقف أمام عبارة أضافوها في نهايته، عبارة أربكته حتى استوعب أنها منحة من القدر لإعادة ترتيب أوراقه المبعثرة.. كتبوا.. "المتهم معتوق حسين رفاعي غير مسؤول عن أفعاله وقت ارتكاب الجريمة".

- آسف يا معتوق أنا قلت لك من الأول أنا مش محامي، أنا شاطر في الكتابة لكن مش بعرف أترافع وأول مرة أحضر تحقيق نيابة، وماكنش عندي حلول غير إننا نقول إنك مجنون ونأكدها في المستشفى لأن القضية بتاعتك للأسف كانت ....

قاطعه معتوق في يأس:

- مقفولة ضبة ومفتاح زي الدومينو، أنا عارف يا شاهين إنك عملت اللي عليك، كتر خيرك على كل حال.

- على فكرة الدكتور اللي كتب لك الشهادة قصده يساعدك، أنا والمعلم غالي ضغطنا عليه وبعدين لو جيت للحق ما هو أنت صعبت القضية علينا واعترفت بالسرقة وحكيت حكاية غريب أبو إسماعيل وصممت على موضوع تبديل اللوحة وإن الأصلية ما رجعتش، ولو كنا رحنا المحكمة كان ....

هذه المرة قاطعه معتوق بنبرة من لا يريد التوغل في سكة الماضي:

- كان لازم أعترف يا شاهين واللوحة المسروقة لوحتي وبكرة الحقيقة تبان، أنا لما بعمل حاجة بعملها عن اقتناع وبتحمل مسؤوليتها.. سيبك من اللي فات.. المهم دلوقتي أنا عاوز منك خدمة.

- قبل الخدمة بفكرك إنك لو صممت في المستشفى على كلامك إن اللوحة المسروقة بتاعتك والحكومة مضحوك عليها من سنة مش حتخرج من هنا خالص.. اعقل أرجوك علشان زي ما دخلناك بشهادة نعرف نخرجك بواحدة تانية.

تجاهل معتوق تحذيرات شاهين أو نصيحته لا فارق بينهما عنده، وأخرج من جيبه خطابًا كتبه لراوية، طلب من شاهين أن يسلمه لها ثم أوصاه بزَهرة ابنته، طمأنه شاهين أن زَهرة تعيش مع راوية وأمها ويتولى المعلم غالي كل مصاريفها، ثم ودعه بحرارة على وعد بزيارة شهرية كلما استطاع الحصول على تصريح من النيابة، لكنه أدمى قلبه لما أخبره قبل انصرافه أن الزيارة ممنوعة عنه بالنسبة لأهل العزبة لحين وضع التقرير النهائي بحالته، وإلى أن يحدث ذلك قد تمر أسابيع وربما شهور لن يرى فيها زهرة أو راوية.

شعر معتوق بعد كلمات شاهين أن عظام وجهه أشبه بقضبان سجن يرى من خلالها الدنيا التي اسودت أمامه في تلك اللحظة.



10

حكايات النزلاء مبكية دائمًا ومضحكة أحيانًا، لكن من وسط عشرات القصص التي سمعها أوجعته حكاية واحدة، وعلقت بذاكرته طوال فترة إقامته، حكاية سيدة تدعى حربية، المرأة الأربعينية ذات الوجه الباكي، حربية ليست مريضة ، مثلها مثل معتوق، تاهت من أهلها صغيرة فالتقطتها أسرة ميسورة عملت عندهم خادمة، ولما كبرت ونضج جسدها أقام معها ابن العائلة علاقة، انتهت بحملها منه فتزوجها عرفيًّا، ظلت الأسرة صامتة أسابيع حتى كبر بطن حربية فطردتها أم زوجها، أقامت في عشة صغيرة على النيل بشبرا مع صياد كان يهتك عرضها كل ليلة حتى وضعت وليدها فطردها. أمضت ليلة بالشارع وقرب الفجر عادت لبيت زوجها راجية ثم مهددة لكنهم سلموها إلى البوليس الذي قبض عليها بتهمة التسول مستغلة طفلاً وليدًا، مُعرضة حياته للخطر كما جاء بلائحة الاتهام، حكت لوكيل النيابة حكايتها فظنها مجنونة بعدما علم بالوضع الاجتماعي لمن ادعت زواجها منه، وأمر بأن يأتوا بها إلى المستشفى، وأودع طفلها بملجأ وحفظ المحضر، وربما ظل يحكيها لزملائه كنادرة.

سكتت حربية عن الكلام فجأة دون وضع مقدمات، نظرت لمعتوق وهما جالسان بالحديقة ثم زفرت قائلة:

- أنا نفسي أخرج من هنا يا أستاذ معتوق.. بقالي أكتر من عشرين سنة.. أنا تعبت أوي.

قبل أن يبحث في رأسه عن إجابة تريحها أردفت وهي تنظر للاشيء:

- بس مفيش حد يستلمني وأكيد ابني ما يعرفش شكلي ولا اسمي.. أنا حتى مالحقتش أختار له اسم ولا عارفة له ملامح.

كل ليلة يدخل فيها معتوق إلى فراشه كان يصطحب في ذاكرته صورة حربية، تطن كلماتها في أذنه لتطير النوم من عينه، لا شاغل عنده بعد كلامها سوى ابنته زَهرة، النقطة المضيئة الوحيدة

في حياته، لا يريد لها مصيرًا مؤلمًا كمصير ابن حربية . أغمض عينيه وهو يطمئن نفسه بأن زَهرة لن تنساه مهما ابتعد عنها، على الأقل لا يزال هناك قليل من الهواء كي يتنفسه ولا يموت مختنقًا.

صارت أيام معتوق متشابهات، لم يعد يسأل بعد شهر واحد عن اليوم، أهو ثلاثاء أم أربعاء، المهم أن ينقضي ليضع علامة صغيرة بجوار سريره معلنة اقتراب مولده من جديد، لا يزال متشبثًا بأمل أن تظهر الحقيقة، ورغم أن شاهين جف ريقه وهو يحاول إقناعه بأن الحقيقة هي ما نقوله، ما نصنعه، ما يراه الآخرون، لكنه رفض، واختار انتظار موعد مجهول يحدده القدر وحده لإعلانها.

تعرّف بالمستشفى على كثيرين، غالبيتهم تم شفاؤهم لكنهم لا يريدون العودة لبيوتهم وحياتهم وما زالوا يخافون من الغرباء، لديهم عبارة لطيفة يقولونها كلما سألهم عن سبب بقائهم.. "نبقى مجانين لو خرجنا من هنا"، يضحك معتوق ويكمل مسيرة أيامه في مجتمع هادئ لا يوتره إلا العاملون فيه، مع الوقت اكتشف أن مقولة النزلاء صائبة إلى حد كبير، هنا يجدون الشراب والطعام والمسكن والعمل.. والدفء والونس أيضًا.

- معتوق حسين رفاعي

- أفندم

- زيارة مخصوص.. المحامي

عندما اقترب معتوق من عنبر الزيارة كان بابه مواربًا، فلمح شاهين ممسكًا بأوراق ويبتسم، بجواره أحد المحامين الصغار الذين يتدربون في مكتبه، ما إن رآه شاهين حتى لوح بالأوراق في فرح، اتسعت ابتسامة معتوق حتى سبقت خطواته وهو يكاد يقفز نحوه، جال بخاطره في الخطوات الأخيرة أن قرار الإفراج صدر، والقبض على المحرض واللص غريب أبو إسماعيل حدث، كان موقنًا أن الحقيقة مثل الشمس لن تغيب طويلًا، حتمًا ستشرق ليراها الجميع، أو على الأقل يشعرون بدفئها.

هتف شاهين بحماس فاردًا ذراعيه:

- ألف ألف مبروك يا معتوق يا حبيبي، التقرير النهائي بيؤكد إنك مجنون، إحنا كده كسبنا القضية.

قالها شاهين وهو يحتضنه معربًا عن فرحته العارمة، بينما قلب معتوق يرتجف بين ضلوعه وشبح حربية لا يفارق عينيه.

*****

"قسم 17 عنبر 3 رجال".. لافتة كبيرة على باب مزدوج يُفضي لرواق عريض في نهايته غرفة بباب مستقل، صغيرة لكنها تتسع لشخصين، تشارك فيها معتوق مع الطبيب خليل البنهاوي، سرير معدني لكل منهما يكفي للنوم في وضع الجنين، فوقه غطاء خفيف نقشت عليه مربعات سوداء وبيضاء أشبه بكلمات متقاطعة لكنها عصية على الحل، في منتصف الغرفة حوض صغير على مقربة منه مكتب قديم عريض فوق سطحه أوراق كثيرة مبعثرة، تقارير مرضى وأشعة وروشتات دواء وأختام متنوعة، وفي ركن الغرفة الأيسر حامل خشبي متوسط وعليه أوراق بيضاء كبيرة، فاجأه خليل بأنه أعده ليكون مرسمًا احتفاء به بتوصية من شاهين.

هنا سيعيش معتوق بعدما وضعت اللجنة الخماسية تقريرًا سيبقيه بتلك الغرفة لحين شفائه، مع توصية بإعادة عرضه على لجنة ثلاثية كل ستة أشهر لتقييم حالته، حاول أن يصبّر نفسه بأنها مئة وثمانون يومًا ومؤكد سيخرج بعدها، لكنه تذكر أن اللجنة الخماسية لم توقع الكشف عليه، ومؤكد أن تلك العبارة روتينية، ثم تأكدت مخاوفه لما رآها على أوراق المستشفى المطبوعة منذ خمسين عامًا وربما يزيد، لم يُعرض بعدها على لجنة ثلاثية ولا حتى أحادية، صار واحدًا من الخمسمئة الموجودين هنا، يحمل رقم 444، نزيل سليم العقل والبدن، لكن الأوراق الحكومية تقول غير ذلك، هو حاليًّا مجنون رسمي كما بشره شاهين في أول زيارة بعدها، تلك الزيارة التي ألقى فيها شاهين قبل انصرافه بقنبلة أصابت شظاياها كل قطعة من معتوق، وحولته إلى ركام في ثوان. أخبره أن لوحاته التي ضبطتها الشرطة في غرفته وسلمتها للنيابة تسلمها غريب رسميًّا منذ يومين باعتبارها مملوكة له، واتهمه أيضًا بسرقتها.

خرج صوت معتوق مجروحًا بنبرة تئن من الوجع:

- والنيابة تسلم لوحاتي لغريب بأمارة إيه؟

- بأمارة إن حضرتك موقع عليها باسمه يا فنان فاتهمك بسرقتها من الأتيليه بتاعه، ولأنهم لقوها عندك صدقوه ولأنك مجنون حفظوا البلاغ وسلموا اللوحات لغريب صاحبها.

يدرك معتوق أنه ارتكب حماقات كثيرة في حياته، وكان يعرف وقت ارتكابها أنها ستكلفه الكثير، لكن عند سداد فاتورتها اليوم شعر أنها موجعة للغاية خاصة بعدما نفد رصيده كله، تهاوى على فراشه وضربات قلبه تتزايد لتلاحق أنفاسه اللاهثة مع أنه لا يبذل مجهودًا، بدت ملامحه ساخطة على الدنيا كلها، باتت أقصى أمانيه أن يرضى عنه غريب أبو إسماعيل ويقبل منه لوحاته التي سوف يرسمها هنا.. وراء الأسوار، حتى يعيش مجنوناً رسميًّا آمنًا، بدلًا من أن يموت عاقلًا كل لحظة.

*****

القلق مثل كرسي هزاز يجعلك تتحرك طوال الوقت لكنه لا يوصلك لأي مكان. سئم معتوق حكايات المرضى، كره اجترار الذكريات وعَد أيام الزمن، أقصى عقاب يتلقاه السجين هو عدم معرفته بموعد إطلاق سراحه، السجن المؤبد ألعن من الإعدام كما يردد كل يوم.

كان يقضي ساعات النهار بين المرسم والحديقة وقبل الغروب يأوي لفراشه، لتتبقى ساعات الليل طويلة كأنها يوم آخر لا يريد أن ينتهي، صارت كل الأيام متطابقات عدا يوم الزيارة، يوم الزوادة كما يسميه، أو أشبه بيوم قبض المرتب عند الموظف كما يُطلق عليه التمرجية، ظل معتوق ينظر في ساعته كل خمس دقائق تقريبًا، بعد قليل لن يحمل لقب "منسي" مثل آخرين كثيرين، لمح نظرة انكسار في عيونهم وهو ذاهب لعنبر الزيارة بعدما نودي على اسمه، اعتاد أن يُطيب خاطرهم بنفحة من زياراته، سجائر، طعام.. كل ما ينجح سراج في تهريبه، فأي منحة ولو رمزية تصبرهم على الوحدة وتُنسيهم الجحود مؤقتًا.

زياراته ثلاثية أو رباعية وأحيانًا فردية، البطولة فيها بالتناوب بين سراج البدوي وعبده العربي، أحيانًا يشترك فارس أو أسعد جرجس وفي أحيان أخرى يشترك معهما سعيد راديو وفتحي السماوي، ونادرًا المعلم غالي بسبب تراجع صحته بعد الزواج، الوحيدة التي ظلت تزوره بانتظام كل شهر هي راوية، لكنها تأتي بدون ابنته زَهرة، وفي كل زيارة يسير إلى العنبر المخصص للقائها وهو يترقب حضورها لكنها لا تجيء أبدًا، حتى أدرك أنه حُرم من رؤية ابنته، أخبرته راوية أن ذلك لصالحها، ومن الأفضل أن تبتعد عنه لفترة حتى تستطيع تجاوز أزمة كون أبيها صار لصًّا شهيرًا، بعدما سرق لوحة أشهر منه تقدر بملايين الجنيهات ولم يقم بإعادتها، اضطرت راوية لتغيير مدرسة زَهرة بسبب مضايقات زميلاتها وانهيارها كل مرة، تجاوز معتوق الأمر كله بالصمت، فلم يعد لديه ما يقوله بعدما اختار طريقه وحده.

- طمني على صحة المعلم غالي.

- بعافية شوية.. ربنا ينفخ في صورته ويفرح بابنه مينا.

سؤال عابر منه وإجابة عفوية من سراج البدوي دفعت ذهن معتوق لحسابات بسيطة أسفرت عن ابتسامة خبيثة، لم تكن زيجة المعلم غالي من أنهار خارج الصندوق كما ظن، إنما للحفاظ على سرية صندوق أسراره فيما يبدو، لا يمكن أن تنجب أنهار طفلها مينا بعد ستة شهور فقط من زواجها. وأد معتوق ابتسامته عندما لاحظ لامبالاة على ملامح سراج تشي بجهله بقواعد الحساب البدائية وانشغل به ومعه في حكايات طويلة عن ضبط المجرمين باعتباره مرشدًا للمباحث، كان سراج يجلب معه الجرائد والمجلات وكأنه يوثق حكاياته بالمستندات، يفتح صفحات الحوادث ويشير إلى كلمتين متجاورتين متفاخرًا أنهما ترمزان له.. "التحريات السرية"، ثم يشكو بعدها من عدم حصوله على ترخيص الكشك. لا يدرك سراج بعد أنهم لن يعطوه الترخيص، فهم يريدون عين صقر مُحلق بالمكان، لا كلب حراسة قابع في صندوق خشبي يسمى كشكًا كما يتمنى، لكنه لم يستمع لنصيحة معتوق وراح يُعيد شكواه كل مرة.

زيارات سراج لم تكن بهدف التسلية وحكي القصص بل تحول لجسر مزاج في كل مرة، هو الذي يمد معتوق بالممنوعات خلاف المسموحات المصرح بها في الزيارة، لكن الأمر لم يكن سهلًا، استلزم إجراءات أمنية صارمة تولاها معتوق بنفسه وبمعاونة بعض النزلاء تحت إشراف الطبيب

خليل البنهاوي، الذي بات مقربًا من معتوق وكأن خيطًا من صداقة قديمة يربط بينهما وكانا لا يريانه. يكفي أن خليل يستضيفه بحجرته الخاصة.

وضع معتوق سيناريو محكمًا في كل زيارة لسراج لينفذه الآخرون بدقة، يدخل سراج بحقيبة الزيارة العادية التي تحمل الطعام والدخان والملابس والكتب، وأيضًا صنوف الطعام التي تطبخها أنهار بتوصية من المعلم غالي، يتم تفتيش كل شيء بصرامة بينما سراج يصفر بلحن حزين حتى ينتهوا، ينزوي معتوق ورجاله من النزلاء بركن مؤمن في نهاية الحديقة انتظارًا لخروج سراج من باب خلفي لعنبر التفتيش يتركه الباشتمرجي مفتوحًا، مقابل عشرين جنيهًا وطبق من أطباق طعام الزيارة يختاره بمعرفته، ما إن يصل سراج للمكان الآمن حتى يفك ساقه الخشبية بسرعة ويخرج منها قطع الحشيش، وبقية علب السجائر وأنابيب الألوان التي يحتاجها معتوق لرسم لوحاته. ثم يمضي بقية وقت الزيارة في الثرثرة بعدما يتم نقل البضائع المهربة للغرفة بمعرفة الطبيب خليل البنهاوي.

في نهاية الزيارة هناك فقرة ثابتة، يحكي فيها سراج للنزلاء حكاية ساقه الخشبية التي حلت محل يمناه المفقودة في صحراء سيناء، وكيف حصد مقابلها أرواح أربعة من الصهاينة، انتهت الحرب وسرحوه من الخدمة لكنهم كرموه قبلها، تسلم شهادة التقدير والبطولة من قائد كتيبته، فعلقها على أحد جدران غرفته في مكان يصعب رؤيتها منه أو مسح الأتربة عنها، ولأنه كان مقبلًا على الزواج بعد انتهاء الحرب منحوه شقة بالطوب الأحمر، خمسين مترًا في عزبة الوالدة، اكتشف بعد استلامها أن عليها أقساطًا فباع القيراط ميراثه عن أبيه كي يسددها، فلن يعود للزراعة بساق واحدة.

يتوقف سراج كل مرة عند هذا المقطع لتغلبه دموع صامتة، كأنها تحذره قبل انهمارها فيسكت ثم ينصرف، مسرحية تراجيدية مؤلمة لكن لها جمهور عريض لا يمل من عرضها شهريًّا، لتنتهي الزيارة ومعتوق يتابع سراج بعينيه وهو يغادر مودعًا الجميع بابتسامة رضا، قبل أن يصفر أثناء خروجه بلحن مغاير للحن الدخول، مختتمًا بموسيقى حماسية تشي بإعلان انتصاره على العدو في المعركة الشهرية مثل كل مرة.

*****

صارت الحقيقة في حكاية حربية جبلًا ضخمًا من أكاذيب، مهما تسلقته لا تبلغ نهايته، لا أحد يصدق روايتها إلا معتوق، لكن التصديق ليس حلًّا مريحًا، حتى هداه تفكيره لاصطحابها إلى مرسمه كل صباح، تجلس أمامه، تحكي له عن ولدها، وهو يحفز خيالها لتتصور ملامحه كلما كبر فيرسم صورة له، وصورة مع صورة صار لدى حربية طفل، ثم صبي، فشاب على أعتاب الرجولة، سيحتفلون بعيد ميلاده الواحد والعشرين، حتى توقفت حربية فجأة عن التردد على مرسمه والتزمت فراشها بعنبرها، حل عليها الصمت وكأن الخرس أصابها مثل زهرة ابنته، ظلت نظراتها ذاهلة، لا ترد عليه كلما حدثها، نثرت كل صور ابنها بجوارها، وراحت تناجيه وتتحدث معه وترد عليه حتى أصابها مس من الجنون، أسمته محفوظ، ربما كانت أمنية أكثر منها اسمًا، منتظرة في شغف أن يسمح القدر بصدفة لا تتكرر إلا في أفلام السينما، ورغم تكرارها لا يصدقها أحد، وربما حربية أيضًا.. لكنه جنون الأمل الذي مسها ثم تغلغل في عقلها.

بكى معتوق وهو يغادر عنبرها، لم يعد قادرًا على زيارتها مرة ثانية، اعتكف في مرسمه أسبوعًا حتى أنهى لوحة صغيرة أفرغ فيها دفقة مشاعره، رسم سفينة كبيرة ثُقبت من قلبها فمالت، لكنها لم تغرق بعد.



11

الوقت مثل بركة راكدة لا يُرجى منها سقي، لكن معتوق ألقى بها حجرًا كي لا يقتله الملل، رسم أهل عزبة الوالدة في لوحة كبيرة بهمومهم ومشاكلهم ونواقصهم ولحظات انكسارهم الطويلة، وانتصاراتهم الهزيلة في الحياة، على الأقل مشاكله محبوسة معه وراء الأسوار، بينما هم عالقون فيها كل يوم، يجرونها كأثقال الحديد، فلا أقل من أن يحررهم منها بلوحته.

أول من فكر معتوق في رسمه باللوحة كان عبده العربي ، الذي لا يعرف من حياته إلا الخيول، عمل وراءها وأمامها وفوقها، بدأ بتقليب النشارة ثم عامل سَبخ يجمع البراز في مقطف كبير لينقله إلى عربة السِّباخ، ترقى مع الوقت ليصبح سائسًا، يُطعم خيول السباق ويُنظفها ويَسقيها، حتى جاء يوم ووقعت عين السفير البريطاني عليه، تابعه من المقصورة الرئيسية ثم مال على أذن رئيس لجنة التحكيم، همس له ببضع كلمات وهو يشير ناحية شاب ضئيل نحيل أسمر، وضعوه على ميزان خشبي عريض بكفتين مستطيلتين فوجدوا وزنه مثاليًّا وطوله مناسبًا، من يومها امتطى عبده أحصنة السفير الإنجليزي وطار بها في الحلبة، تعددت أشواط فوزه على خيول مختلفة، وفي مرة فاز بالأشواط السبعة كلها، رقم لم يُحقق منذ سنوات بعيدة، فبدأ اسم عبده العربي يلمع وتتجه العيون إليه بعدما خرج ما في الجيوب رهانًا على ما يركبه كل مرة.

بدأ معتوق يسترجع حكايات عبده العربي ليعيد رسمه بتكوين يتفق وما آل إليه حاله بعد سقوطه من فوق الحصان، صار أشبه بطفل يتعلم المشي والكلام، يذهب كل صباح إلى عمله الجديد متنقلًا بين عدة وسائل نقل حتى يصل لنادي الشمس، يتسلى طوال الطريق بحساب الوقت الذي يمكنه قطع هذه المسافة فيه بحصانه، لكنه يحصل على توقيت مختلف كل مرة.

بعد تقاعده الإجباري عَمِل في وظيفة "جوكي تمرين"، إصابته في رأسه جعلته لا يستطيع حفظ اتزانه على أي حصان لوقت طويل، صار يخشى السباق، يراه طريقًا ممدودًا نحو الموت بعدما كان سكة للحياة، رضي بمهنته الجديدة رغم أنه يقبض راتبًا ضئيلًا، مهمته تجهيز الفرس كي

يمتطيه غيره، يتولى حرق الشحوم وإطالة النفس وتقوية العضلات، عمل لا يُرضي طموحه وعاجز عن إسكات جوعه كل يوم، لكنه قَبِل به ليظل فوق الحصان للأبد. يفعل كل شيء ليحصد الفارس الجائزة وحده في السباق ويظل هو على الهامش.

- وعايش إزاي يا عبده وبتصرف منين؟

سأله معتوق بقلق حقيقي وعقله يدور ليرسم له نقودًا تعينه على مواجهة مصاريف الحياة لكن عبده العربي أجابه بخبث:

- عايش بسبب أولاد الحلال يا معتوق.. الحمد لله مستورة.

لم يخبره عبده عن أولاد الحلال ولا عن حجم الستر، تركهم مجهولين لغرض في نفسه، واكتفى معتوق من الإجابة بالاطمئنان على حاله، على الأقل لم يكن عبده العربي فاسدًا يتلاعب بنتيجة السباقات كما تمنى له.

انشغل معتوق باللوحة لكن على مدار شهور لم ينته منها، وكلما شعر أنها اكتملت وجدها ناقصة، ظل موقعه فيها يحيره، ومكان راوية منها لا يريحه، كل مرة يغيره خاصة بعد انتهاء موعد زيارتها، حتى جاء يوم وأتت بمفردها، تحمل وجهًا باكيًا يتشح بملامح متقلبة كإعصار في طريقه للهبوب، لم تقل شيئًا مكتفية بقدرة معتوق على قراءة عينيها، ولما تجاوز صمته انتظارها صاحت:

- قول لهم الحقيقة يا معتوق واخرج من هنا .. علشان خاطري كفاية وبلاش عناد وأنانية .

تقلبت ملامحه وهو يزفر في ضيق ، رفع عينيه لأعلى ثم ثبتهما على وجه راوية قائلًا في حدة :

- قلت لك مليون مرة إني قلت لهم الحقيقة لكن همة شاركوا في الكدبة وصدقوها.. اعترفت لهم إني سرقت اللوحة بتحريض من غريب لكن قبل ما تتسرق بسنة ، اللي أعلنوا سرقتها دي لوحتي أنا يا راوية .

خرجت كلماتها مختلطة بدموعها التي تفجرت كالسيل من مقلتيها :

- أنا ماقدرش أعيش بقية عمري منتظرة واحد بيكدب زي ما بيتنفس.. حرام عليك أنا تعبت .

- صدقيني أنا عمري ما كدبت عليكي .. أنا ....

قاطعته بحدة وهي تقول بنبرة عصبية :

- أنا قررت أتجوز يا معتوق.

لم تنتظر راوية منه ردًّا، وغطى الباشتمرجي بصياحه معلنًا انتهاء موعد الزيارة على كلمات معتوق التي كان يرجوها بها أن تهدأ، لا يتذكر معتوق ماذا قال لها وربما لم تسمعه ، ولا يعرف كيف مرت عليه تلك الليلة، لكن في الزيارة التالية لسراج البدوي كلفه بإجراء أول تحريات خاصة لحسابه.. مَن سيتزوج راوية وأين وكيف ومتى.. واحتفظ لنفسه بأداة الاستفهام الخامسة، هوالوحيد الذي يملك الإجابة عن سؤال يبدأ بلماذا تتزوج راوية غيره، فهو الذي رفض الزواج منها بسبب أدوات الاستفهام كلها عدا تلك، مع أنه لا يزال يحبها.

في اليوم الذي أخبرته راوية بأنها ستتزوج كانت ثلاث سنوات كاملة مرت على وجوده بالمستشفى، وعشرة أعوام على علاقتهما، وأربعون عامًا على مولده، الآن غربت شمس راوية بعد سنوات طويلة من إشراق مستمر، راوية التي أحبها وأحبته بعد وفاة زوجته، راوية التي اعتنت بابنته، راوية التي بادلته الغرام بغرفته قبل أن تنتقل زَهرة لتعيش معه عندما أكملت الخامسة من عمرها وماتت جدتها لأمها، راوية بطلة اللوحة التي تزين غرفة معتوق، ومعلقة فوق الأريكة تصورها عارية بجسدها الجميل المتناسق، لكن بملامح وجه مبهمة غامضة كي لا يتعرف عليها أحد، راوية التي ألقت خطابه في وجهه في آخر زيارة، رافضة كل ما قاله لها عن فكرة الزواج وتخوفه من إنجاب أطفال يعانون في الحياة مثل زَهرة، لا يمكن لأحد أن يشكك في حقيقة مشاعره ناحية راوية، لكنه يخاف من الفكرة، يسيطر عليه هاجس مريب أن أي أطفال سيأتي بهم مرة ثانية لهذا العالم سيكونون بؤساء، حسنًا فعل الرب عندما أخفى حقائق الحياة عن الصغار وهم يبدأون حياتهم، وإلا ما واتتهم الشجاعة على الاستمرار فيها.. جملة كتبها لراوية في خطابه الأخير وفي الأغلب لم تعجبها، أضاف بعدها.. فلنكتفي بزهرة وكفانا ما لحق بها بعد ولادتها، صمتت راوية لكنه ليس سكوت الرضا فلم يدفعه ليخطو خطوات واسعة نحو مكتب مأذون حلوان، اختتم خطابه بصراحة أكثر، وضع أفكاره أمامها بخطوط عريضة كعناوين الجرائد، لكنها ابتعدت خطوة للخلف ولم تهتم بالتفاصيل، مشاعرها تدفعها نحوه كرياح تطارد أوراق الشجر الساقطة، تقاوم أحيانًا

وتقترب كثيرًا، ومعتوق مثل جذع شجرة كانت تستند عليه كلما تعبت، لكن مع الوقت سقطت أوراق الشجرة وتخوخ جذعها عندما صارت كل أيامه خريفًا.

باتت راوية تتشكك فيما تراه ولا تريد أن تصدقه، وصفت معتوق في آخر زيارة بكابوس حقيقي يتجسد أمام عينيها كل يوم، ولا تملك رفاهية الاستيقاظ منه لتنهيه، لم يعد الحلم الذي تريده ألا ينتهي كما كانت تقول، لم يعد الأمر بميقات، صارت الكوابيس تتعدى أحلامها إلى واقعها بمنتهى السهولة، تقفز فوق السياج الفاصل بين الخيال والحقيقة ببساطة، تمرح هنا وهناك بلا ضوابط، لم تعد تملك من أمرها شيئًا. فعجز هو وهي عن بقية الكلام.

نال القدر غايته من معتوق مثلما أخذ كفايته من راوية، ولى زمن العاشقين المحبين اللذين كانا يلتقيان يومًا من بعد يوم على كورنيش النيل، هناك تعانقت الأعين وتلامست الأيدي، ليطير قلقها بجناحين كبيرين كلما طاردته السعادة، فيحلق بعيدًا عن مخاوفها وهواجسها، في هذا المكان شعر معتوق معها بتلك الرعشة التي تعتري القلب وتنبئهما بأنهما عاشقان، لتختفي كلمات أمها في الهواء كبالون أفلت فجأة من يد طفل، ظلت الأم تردد على مسامع ابنتها أن الفنان لا يوجد في قلبه مساحة ثقب إبرة لعشق آخر ، تبخرت فكرة الفراق وعذابات الوحدة كالدخان على لهيب كلمات معتوق .. الآن نفدت آخر قطرة من صبر راوية في الزيارة الأخيرة، نسيت طعم القبلات المسروقة بالطريق، وبهجة نزهة المراكب الشراعية، ومتعة ساعات الرسم وهي عارية حتى يشتهيها، فتتلاحم روحاهما قبل جسديهما في كل مرة مارسا فيها الحب، لن تتذكر تاريخ أعظم العاشقين الذين لم يتزوجوا، لن تصبر على جنونه الذي أتى به إلى هنا بسبب لسانه وعقله، ستذهب إلى غيره ليضع إمضاءه على كل موضع من جسدها مثلما فعل معها. سيصبح العريس المنتظر هو صاحب اللوحة الذي يصفق له الجميع، ليبقى معتوق رجل الظل إلى الأبد.

*****

مثل جندي خاسر بمعركة غير متكافئة مع الحياة صار معتوق واهنًا، بات أضعف من معاندة زمن نال كفايته منه في كل جولة، لكن هذا العذر لا يعوض انكساره، لا يزال يريد المحاولة والمعافرة

مع أنه يتراجع مجبرًا كل مرة، يا ترى هل نفدت ذخيرته أم زادت حيرته؟!

رجع خطوة في ركن المرسم بغرفته في مستشفى العباسية بعدما عدل في اللوحة وبدا مجهد الذهن، اكتملت وجوه أهل العزبة وأشرقت بلوحته، لكنه سَوّد وجه راوية منذ أيام، واليوم أعاده مبتسمًا لكنها ابتسامة مبتورة.. اقترب وأمسك بأنبوب الرسم الأزرق الداكن، وراح يضفي هيبة على سترة فارس عودة، جعله يشبه قبطان سفينة أعالي البحار، ثم زين صدره بالعملات الذهبية التي عثر عليها بالبالوعة، وهمس داعيًا أن يلهمه عقله الاحتفاظ بها.

اقترب الطبيب خليل البنهاوي متأملًا اللوحة سائلًا بجدية عن مكانه فيها، اتسعت ابتسامة معتوق رغمًا عنه وهو يُحييه بلقبه، ثم أطلقا ضحكة مدوية معًا.

على مدار ثلاث سنوات كان معتوق يظن خليل البنهاوي طبيبًا بالمستشفى، حتى فوجئ بالباشتمرجي يختلف معه ويتطاول عليه، يومها وضع خليل ذيله بين فخذيه وتراجع خانعًا، اعتقد معتوق أن خليل طبيب فاسد الذمة، مرتشٍ، حتى اكتشف الحقيقة عندما سأله. فاعترف خليل ببساطة أنه نزيل بالمستشفى مثله، وبظروفه ذاتها، ثم أردف ببرود:

- شاهين والي المحامي بتاعك عارف حكايتي وتوقعت إنك عارفها منه.

يومها قرر معتوق وضع خليل باللوحة فقصته تستحق التسجيل، حصل خليل البنهاوي على شهادة من معهد التمريض لكنه منذ اليوم الأول كان يرى نفسه طبيبًا، بعد تعيينه في قصر العيني بشهور قليلة تسلل خليل لغرفة العناية المركزة تدفعه الرغبة وترسم النشوة ابتسامة خبيثة على ملامحه، سحب وراءه ممرضة قسم الجلدية والتناسلية التي شاغلته فأيقظت مارده من سباته، ورغم أن اللقاء الحميمي الذي اتخذ من سرير غرفة العناية مسرحًا للعمليات كان بإرادتها الحرة، لكنها كما حكى لمعتوق ادعت الشرف واتشحت بالفضيلة خوفًا من الفضيحة عندما باغتهما رئيس قسم التمريض أثناء مرور عشوائي عابر، حولوا خليل وحده للتحقيق باعتباره الذئب البشري كما وصفته مذكرة الشؤون القانونية واحتفظت الممرضة بلقب الحمل، فُصل خليل من عمله وشطب اسمه من سجلات التمريض، لكنه لم يلجأ للمحكمة، ارتأى استئناف قرار رفته لدى الدهشان المزور الشهير بالسيدة زينب، كان يوقن باستحالة عودته عن طريق القضاء، ولأن الأمثال الشعبية تُحرض على سرقة جمل طالما نوى المرء السرقة، فصار خليل طبيبًا هذه المرة، مع الوقت أضاف طابور المرضى

على عيادته لقب "شهير"، يبدأ الطابور من ضريح سعد زغلول لينتهي أمام سرير الكشف فلا يستغرق الأمر دقائق معدودات، غالبية مرضاه من الذين لا يقدرون على سعر الدواء لكنهم سيدفعون جنيهًا في الكشف بسبب السمعة المدوية. ربما كان تعبير خليل نفسه أصدق من أي وصف آخر لما قال إن الناس تريد نسيان أعراض المرض وتقاوم لتعيش، فهي لا تملك رفاهية الرقاد بغير دخل. سحب خليل نفسًا طويلًا من سيجارته وكتمه لوهلة ثم أخرجه من فتحتي أنفه ببطء وهو يقول بنبرة فخر :

- لعلمك أنا كنت تمرجي بريمو في أوضة العمليات والرعاية مش ترسو زي بتوع العنابر والاستقبال .

شدت الحكاية معتوق فأعد كوبين آخرين من الشاي وجلس القرفصاء على فراشه مستمتعًا ببقيتها، ابتسم خليل وهو يستند بظهره لجدار الغرفة الملاصق لسريره ويتذكر، قبل أن يُطوى عقد السبعينيات بثلاثة أعوام تعرف على رجل سعودي يمتلك مستشفى بالرياض اصطحبه معه وعينه به، سافر خليل بتأشيرة وعقد عمل صحيحين، ولأنه الوحيد الذي يعرف حقيقة قدراته الطبية فاختار وظيفة إدارية حتى لا يتم ترحيله فهناك لن تعمل الفهلوة بكفاءة مثلما الحال بالقاهرة . عينوه في منصب مدير مناوب، وظيفة تدر دخلًا لم يكن يحلم به لو ظل بالقصر العيني راهبًا لا يقرب الممرضات، لكنها لا تحقق طموحه بممارسة الطب، فاعتبرها خليل سنة فائتة لادخار مبلغ من أجل شراء عيادة بوسط البلد، بدلًا من تلك التي استأجرها بالسيدة زينب. ولأنه بالفعل كان على موعد مع الفرصة فجاءت، لكن من حيث لا يدري.

- الحقونا بأي دكتور طوارئ يا اخوانا..

جملة قيلت بصراخ عصبي مغلفة بالفزع والقلق معًا بعد ستة شهور قضاها خليل بالرياض، خرجت الكلمات من حنجرة شقيق ضابط الاتصال بالسفارة المصرية، الذي وصل محمولًا على سرير معدني بعدما نقلته سيارة إسعاف إثر حادث سير نزف بسببه الكثير من دمائه، لم يكن بالمستشفى وقتها سوى خليل البنهاوي مسؤول الإداريات المناوب، الوظيفة لا تؤهله لوصف مُسكن صداع وخبرته بعيادة السيدة زينب لا تسمح له بتشخيص حالة إمساك بسيطة، فقد كان يعتمد على المسكنات والوصفات الشعبية مع كل مرضاه ولكل أمراضهم، لكن خليل تمكن من إيقاف النزيف وتعويض الدم المفقود بمساعدة الحكيمات الفلبينيات بعدما أجهد ذاكرته في تذكر ما رآه في غرف

العمليات قبل فصله، حتى وصل طبيب جراح حقيقي بعد دقائق وأنقذ حياة الضابط، لكن الفضل التصق في ذاكرة المريض وأهله بخليل البنهاوي وحده، فالبدايات هي التي تدوم.

- سمعت إنك مش مبسوط هنا في الرياض، إيه رأيك ترجع مصر وتشتغل في مستشفى الجلاء العسكري؟

قالها الضابط بعدما تماثل للشفاء، ودعا خليل على العشاء في بيته ليشكره، لكن كلمة عسكري في أي جملة تعني عند خليل الانضباط حتى ولو كانت الكلمة السابقة عليها مستشفى، احتمالات كشف أوراقه المزورة كبيرة، ووقتها سيطوله العقاب، وفي المحاكم العسكرية يكون الجزاء موجعًا. فمال ناحية الأماكن التي يأمن فيها الحساب وعقابها الأعظم الفصل من الخدمة فقال:

- ياريت لو أي مستشفى حكومي.. القصر العيني جنب بيتي القديم في السيدة ويبقى جميل أفتكره العمر كله.

هز الضابط رأسه موافقًا وهو يبتسم في شفقة على سذاجة عقل خليل الذي رفض المستشفى العسكري قانعًا بالميري الهزيل، قبل أن ينتهي الشهر كانت الموافقة على تعيين خليل البنهاوي طبيبًا بمستشفى القصر العيني قد صدرت، رغم أنه لا يزال بالرياض لم ينته بعد من إجراءات نهاية العقد وتسليم العهدة بعد بضعة شهور قضاها هناك.

عاد خليل للقاهرة وبعد عامين ذاعت شهرته بعيادة باب اللوق، ومع أنه لم يشف مريضًا لكنه لم يضر أحدًا في الوقت ذاته فصار طبيبًا ناجحًا، حتى تجرأ يومًا وأجرى عملية جراحية بمفرده في العيادة، لكنه نسي مقصًّا ببطن مريضة فماتت، ادعى الجنون في المحكمة فنقلوه إلى هنا، ورغم أن بإمكانه الخروج إلا أنه لا يريد المغادرة.

سأله معتوق مندهشًا عن سبب اختياره البقاء، فأجابه بآخر ما يتوقعه:

- أنا هنا بمارس الطب وفي كل التخصصات، الكل بيستشيرني.. أنا هنا الدكتور خليل البنهاوي يا معتوق.

ثم سكت برهة وأضاف بصوت خفيض:

- وبكسب فلوس كويسة كمان، والأهم مفيش حساب لأني مجنون رسمي.. أخرج ليه؟

سأله معتوق عن محاميه الذي أشار عليه بادعاء الجنون، ففوجئ أنه شاهين والي أيضًا، هو الذي نصحه عندما كان عرضحالجي، فلم يكن معتوق جعله محاميًا بعد، مدحه خليل مؤكدًا أن شاهين رجل يفهم في القانون أحسن من مُشرعيه، فقط تنقصه الفرصة.

أدرك معتوق سبب وجوده في غرفة مميزة ووضع خاص مع خليل، فالعلاقة بين شاهين وخليل تعود لأيام الصبا منذ سكنا معًا في حلوان أيام الدراسة، لكن تلك حكاية أخرى ارتأى خليل إرجاء روايتها لوقت لاحق، ثم ضحك وهو يقول لمعتوق قبل أن يغطي وجهه لينام:

- الأيام هنا زي الصحرا والحكايات زي المية.. فلازم نحوش حكاياتنا علشان نقدر نستحمل أيامنا ونعيش.

ليلتها ظل معتوق جالسًا أمام لوحته حائرًا لساعات طويلة حتى استقر على تجسيدهما باللوحة متجاورين، وبعد أسبوع شعر أنه لم يكن مبالغًا عندما رسم شاهين والي المحامي القدير وهو يرتدي روب المحاماة فوق جسد عارٍ، وربما كان منصفًا إلى حد كبير عندما غير لون معطف الطبيب الشهير خليل البنهاوي من الأبيض إلى الأسود.



12

الكلمات التي لم نقلها ربما غيرت الكثير من اتجاهاتنا، مقولة أعجبت معتوق لكنه لم يتبعها، وربما ندم على ذلك، هنا ضاعت عشر سنوات من عمره، عشر سنوات وبضعة شهور وراء السور من أجل عناد غبي، كان من الممكن أن يؤدي إلى دفنه بمدافن الصدقة، فلن يتسلم جثته أحد بعدما انقطع الجميع عن زيارته خلال العام الأخير.

مات المعلم غالي متأثرًا بمرضه منذ سنوات تاركًا أنهار والطفل مينا الذي صار على مشارف العاشرة، وضاقت الأحوال بزكي الساكت وهجرته زوجته وأطفاله بسبب عدم قدرته على الإنفاق عليهم، وأتت نقابة العمال بشاب غيره ينادي على الرئيس طالبًا المنحة بعيد العمال لأن صوته أقوى وأعلى، وتزوجت راوية من مدرس التاريخ بمدرستها لكنها لم تنجب منه بعد، واختفى عبده العربي وانقطعت أخباره، ولحق الاكتئاب بشاكر الجهيني بعد توقيع جزاءات موجعة عليه بالخصم من راتبه وتأخير ترقياته لفتحه خطابات البريد والرد على بعضها وتعرض سعيد راديو للحبس وغلق محله أكثر من مرة بسبب سرقته لقطع غيار أجهزة بعض المتعاملين معه، تنحنح سراج وهو يكمل سرد أخبار أهل العزبة لكن بعناوين رئيسية كالجرائد مسترسلًا بخبر سفر فارس إلى الخليج للعمل مدرسًا للموسيقى، وانشغال شاهين بمكتبه الجديد على كورنيش المعادي. حتى جاء فصل الختام، زَهرة ابنته التي تركتها راوية لشقيق والدتها كي يربيها بنصيحة من سعيد راديو، فجأة ثار معتوق وهاج وكاد يحطم ساق سراج الخشبية، فخال ابنته على خلاف دائم معه وكان ضد زواجه من شقيقته، وبعد وفاة زوجة معتوق تعمق الخلاف أكثر على ميراث زَهرة من أمها بعد استيلاء الخال عليه، مثلما استولى على ميراث شقيقته لما مات أبوها. ثم إنه تخلى عن زهرة من قبل فكيف ارتضى الاحتفاظ بها مرة ثانية؟

قطع شريط ذكرياته صوت الباشتمرجي زاعقًا:

- جالنا إشارة من النيابة، عندك جلسة تحقيق بكرة وعربية الترحيلات حتاخدك من هنا الساعة سبعة الصبح.

كلمات الباشتمرجي رغم وضوحها مُحملة بسحب كثيفة من الغموض، انصرف سراج وراح معتوق يقلب الأمر على وجوهه كلها فلم يقف على سبب واحد يجعل النيابة العامة تريد التحقيق معه بعد عشر سنوات قضاها هنا. الاحتمال الوحيد الذي ارتاح إليه لينام بعده، أن يكون تشابهًا لاسمه مع متهم آخر.

عند هبوطه في الصباح من عربة الترحيلات وجد شاهين والي المحامي واقفًا أمام دار القضاء العالي، استقبله بعاصفة من التهليل، ثم ضاعف دهشته وهو يقول بنبرة من يزف البشارة:

- ابسط يا عم الحكومة قبضت على حرامي زهرة الخشخاش واللوحة كمان رجعت مصر. إنت بريء يا معتوق!

اعتبر معتوق كلمات شاهين جملة حوار في مسرحية عبثية، فليس من الإنصاف أن يلعب معه القدر لعبة لا يعرف قواعدها مقدمًا ثم يفرح لهزيمته، مثلما لن يسعد هو ببراءته، لأنه ببساطة لا يعتبر نفسه فائزًا هكذا.

دخل غرفة المحقق فوجد رجلاً قصيرًا سمينًا أبيض البشرة كما البرص، اسمه حسن العسال، قدمه المحقق بوصفه اللص التائب، ظل الرجل مبتسمًا في بلاهة وكأنه في نزهة، أمر وكيل النيابة معتوق بالجلوس أمامه ثم سأله إذا كان يعرف العسال فنفى في هدوء، سأل المحقق العسال السؤال نفسه فنفى باستنكار، وبينما شرد ذهن معتوق فيمن يكون العسال هذا وعلاقته بزهرة الخشخاش، فوجئ بوكيل النيابة يجيب عن أسئلته بإشارة من يده لحسن العسال، كي يُعيد على مسامع معتوق تفصيلات اعترافه.

غامت ابتسامة اللص التائب وبدت ملامحه متسولة الشفقة وهو يحكي كيف طرأت على ذهنه قبل عشر سنوات فكرة سرقة لوحة من متحف محمود خليل، فتسلق السور ليلًا وكسر النافذة ودخل، راعه كم المقتنيات فاختار أصغرها لسهولة حملها، فك إطار زهرة الخشخاش، ثم طواها بعناية ووضعها أسفل فانلته الداخلية، وكما دخل خرج.

أفلتت شخرة خفيفة من معتوق وهو ينظر بقرف لحسن العسال، لكن وكيل النيابة أسكته بنظرة غاضبة مهددًا بحبسه، ليكمل العسال بهدوء الهُراء الذي بدأه شارحًا أن شقيقه كان مسافرًا في اليوم التالي إلى دولة الكويت فوضعها بحقيبته دون أن يخبره، ولما تاب عن السرقة أبلغ الشرطة فاتصلوا بشقيقه وطلبوا منه فتح الحقيبة، ولما وجد اللوحة في مكانها أعادها للقاهرة.

- بعد عشر سنين في نفس مكانها بالشنطة؟

- أيوة.. ما هو كان جيب سري.

تطوع معتوق بسؤال آخر للعسال بدلًا من المحقق عن تاريخ الجريمة بالتحديد، فأجابه العسال هذه المرة بلامبالاة أنه الرابع من يونيو 1977، تقمص معتوق دور وكيل النيابة في ظل سكوت الأخير وكأنه وجد من ينوب عنه في عمله، فسأل مرة ثالثة عن سبب عدم بيع اللوحة، فعاد العسال لابتسامته البلهاء ولم يجب، مؤكدًا على توبته التي باركها وكيل النيابة وسط ذهول معتوق.

التفت معتوق للمحقق مستفسرًا بقلق عن اللوحة التي عادت وهل تأكدوا أنها الأصلية؟ بدا كأن وكيل النيابة لم يفهم سؤاله عندما أجابه وهو منشغل بالتأشير في أوراق كثيرة أمامه كأن ترتيبها هو الأهم:

- إن شاء الله خير.

ولأن معتوق لا ينوي الانسحاب بسهولة بعدما أنفق عشر سنوات من عمره من أجل لوحة مقلدة، فطلب رؤية اللوحة التي عادت ليعاينها أو تشكيل لجنة من الخبراء لفحصها، تجاهل المحقق طلبه وأصدر قرارًا بالإفراج عنه وحبس العسال بدلًا منه. همّ معتوق بالاعتراض لكن يد شاهين كانت أسبق، جذبه خارج الغرفة وهو يهمس في أذنه:

- أبوس إيدك اخرس وكفاية لغاية كده، في لجنة عاينت اللوحة وأكدت إنها الأصلية.. أنت مش عاوز تشوف زَهرة تاني؟

انحدرت دمعة تائهة من عين معتوق على ذكر ابنته، حاول شاهين تهدئته لكن معتوق لم يتوقف عن ذرف الدموع بعدها، اعتذر شاهين عن توبيخه، ربما شعر أنه بات ضعيفًا.. لكن معتوق لا

يرى كل البكاء ضعفًا، فكلنا بكينا عند ولادتنا لنعلن أننا أحياء.

"إن شاء الله خير.. إن شاء الله خير".

ظل معتوق يغمغم مرددًا عبارة المحقق بعدما استخفه اليأس والضيق، حتى غادر سراي النيابة مع شاهين.

*****

عبر نافذة سيارة مرسيدس بيضاء اشتراها شاهين مؤخرًا، راح معتوق يتأمل القاهرة التي غاب عنها، توقفا في إشارة مرور لفترة، لمح معتوق عن يمينه وجهًا لطفل يطل عليه من نافذة سيارة مبتسمًا، ما إن بادله معتوق الابتسام حتى أخرج له الطفل لسانه ضاحكًا ضحكة انتصار وكأنه كان يعد له كمينًا، ذكّره الوجه الضاحك بطفولته لكنه كان عابسًا أغلب أوقاتها وربما خائفًا، لم يسقط من ذاكرته مشهده وهو محشور بين أبيه وأمه فوق دراجة بخارية "جاوا" حمراء، قبل أن تطلب الأم الطلاق وتتزوج من صديق أبيه لتترك معتوق شابًّا وحيدًا على مشارف دخول الجامعة، عاش مع جده بغرفته في عزبة الوالدة وورثها عنه بعدما أخذت الأم شقة المعادي التي ولد وعاش فيها سنوات طويلة، كل صلته بالمعادي مختزلة في اسم المحطة التي يتوقف عندها قطار باب اللوق، لم يكن يسكن بفيلا ملحق بها حديقة أو شقة فاخرة، إنما في منطقة عشوائية على التخوم في شقة من حجرتين بطابق أرضي لبيت صغير مقام على أرض زراعية، عاش طفولته مع والده الخطاط الشهير قبل أن يدخل الأب السجن بتهمة التزوير في أذون إجازات موظفي وزارة التربية والتعليم التي كان يعمل بها، لا يدري إذا كان أبوه مذنبًا أم مظلومًا، لكن القاضي قال إن الخط خطه والحكم عنوان الحقيقة كما قالت الجرائد التي اهتمت بقضية الأب لأنه كان مشهورًا، فهو من كتب عناوين اللافتات للمحال التجارية الكبيرة وبعض أفيشات وتترات أفلام السينما، وورث معتوق عنه الموهبة كلها، وربما ورث أشياء أخرى لم يحن وقتها بعد كي يكشف القدر له عنها.

ظل يتحسس مقاعد السيارة الجلدية ويحرك مفاتيح جهاز التسجيل بها ليعود بذاكرته لواقعه، بينما شاهين منشغل بالحديث في تليفون السيارة الذي يراه معتوق لأول مرة، ولم يصدق شاهين إلا عندما أجرى اتصالًا بالمقهى وتأكد أنه يعمل بالفعل.

كانا قد استلما منذ ساعات قرار النيابة بالإفراج عن معتوق، وذهبا في طريقهما بصحبة صول من إدارة الترحيلات عائدين للمستشفى لأخذ متعلقاته وتوديع خليل البنهاوي وبقية زملائه، سكت معتوق بقية الطريق لكن تبقى سؤال لا يزال يلح على عقله.. هل أخطأ بجعل تفاصيل حياته ذات معنى مع أن الحياة نفسها بلا معنى؟ أتى السؤال ردًّا على ما أطلعه شاهين عليه من مقدمات كي يفهم النتائج، أبلغه أن غريب أبو إسماعيل تعرض لحملة صحفية شرسة منذ شهور، بسبب دوره الخفي في سرقة زهرة الخشخاش وإيداعه لفنان تشكيلي بمستشفى الأمراض العقلية ظلمًا كما تجرأت إحدى صحف المعارضة وكتبت عنه قبل إغلاقها بأسبوع واحد، ولأن غريب مُقبل على دورة جديدة من الانتخابات نهاية العام ومرشح أيضًا لأمانة الحزب الوطني عن القاهرة، فكان لا بد من غسل يديه من الموضوع تمامًا ليبدو بعيدًا عنه، ولا يتكرر الكلام فيه كشبح من الماضي يظهر كل حين، فظهر حسن العسال اللص التائب ليحمل أوزاره بدلًا منه.

في منتصف الطريق كسر معتوق حاجز صمته سائلًا شاهين في ضيق:

- دي معلومات والا استنتاجات من دماغك؟

- تقدر تقول خليط من الاتنين.. مش مهم تعرف كل تفصيلة مصدرها إيه.. الأهم تعرف إني بقولك الحقيقة.

- البلد دي مفيهاش حاجة حقيقية، فيها محاولات للوصول للحقيقة بس يا شاهين.

قالها معتوق ولم يعلق بقية الطريق، تمسك بالصمت مؤجلًا ثورته إلى وقت لاحق حتى وصلا لبوابة المستشفى، فطلب منه معتوق الدخول معه لأن لحظات الوداع تتجاوز أحيانًا الوقت المقدر لها، لكن شاهين لم يطفئ محرك السيارة قائلًا:

- قلبك أبيض إنت لسه أيامك طويلة هنا يا فنان، لازم اللجنة الخماسية تجتمع وتقرر إنك مش مجنون وبعدها تخرج، أنا بكرة الصبح حتكلم مع خليل البنهاوي ونحاول نسرع الإجراءات على قد

ما نقدر. اطمن خليل عفريت وبالكتير شهر وتخلص.

كلمات شاهين غرست معتوق وحيدًا كنبتة غريبة وسط غابة الأشجار بمدخل المستشفى، عين على البوابة التي أغلقت بعد رحيل شاهين، وعين على المبنى الأصفر الذي لا يريد العودة إليه بعدما تبدلت قواعد اللعبة، ثلاثون يومًا أخرى لم يعد قادرًا على تحمل بضع ساعات منها، مع أنه حتى ليلة أمس كان متقبلًا البقاء لمئة وثلاثين شهرًا أخرى مثل التي قضاها هنا من أجل كلمة واحدة.. الحقيقة، لكن لا أحد يقولها بعد.

*****

لمعت خيوط ذهبية مستحية بالسماء قرب الظهر مهدت لسطوع شمس دافئة، أبلغ معتوق النزلاء فخرجوا للحديقة محتفلين، عرف خليل البنهاوي بقرار الإفراج فجرى نحوهم متخليًا عن وقار الطبيب، احتضن معتوق بقوة مهنئًا بعينين دامعتين، ثم قرر نقل الحفل إلى عنبر 27، أكبر عنابر الفصام المخصصة للرجال، رقص النزلاء على دقات عشوائية فوق مناضد خشبية، بدوا مثل قبيلة إفريقية بدائية صغيرة تحتفل بتنصيب زعيمها. بعد انتهاء مراسم الاحتفال نحاه خليل البنهاوي جانبًا، طمأنه أن قرار تشكيل اللجنة الخماسية سيصدر فورًا، وستنتهي كل الإجراءات أسرع مما يتوقع، ربت معتوق كتفه شاكرًا وهو في قرارة نفسه يدرك أن خليل لا يملك كل هذا النفوذ على الأطباء، لكنها الحماسة فيما يبدو.

في اليوم التالي ظهر شاهين بالحديقة، وقبل أن يسأله معتوق عن حضوره المفاجئ أجابه:

- خليل البنهاوي شكل لجنة إمبارح ووقع قرارها من المدير وحاليًّا بيكتب التقرير وحنخرج بعد ساعة إن شاء الله.

ظل معتوق لدقائق متصلة لا يقوى على الكلام، حتى تسلم إذن خروج نهائي بعد ساعتين، فذهب ليودع خليل البنهاوي ويشكره لكنه أصر على اصطحاب معتوق في جولة سريعة بمباني المستشفى وعنابرها قبل رحيله، أراد أن يريه شيئًا عزيزًا عليه كما قال، وعبر رواق طويل وقعت عينا

معتوق على أكثر من عشرين لوحة لزهرة الخشخاش التي قلدها طوال العشر سنوات الماضية، كتب خليل طلبًا لإدارة المستشفى بقبولها كهدية من معتوق ثم شكل لجنة قبلت الهدية، ولجنة أخرى أوصت بوضع اللوحات في الرواق وبعض الغرف والعنابر، تخليدًا لإبداع معتوق وتكريمًا لفنه.

لم يدرِ معتوق هل يفرح أم يبكي، الشعوران تملكا منه ولم يستطع الفكاك منهما، بدا مثل مهرج على مسرح، يرتدي قناعًا ضاحكًا ويطلق النكات لكن قلبه يدمى من الألم. مسح وجهه ووضع ابتسامة طفيفة على ملامحه، أحس ببعض الرضا، على الأقل سيترك هنا أثرًا لن يمحوه الزمن، أثر له مكانة خاصة عنده، تلك هي المرة الأولى التي يقلد فيها زهرة الخشخاش ويضع توقيعه عليها. لكن دموعه عادت للانهمار كصنبور عطب بغرفته وهو يلملم القصاصات الصغيرة التي رسم عليها أكثر من مئة وثلاثين وجهًا لابنته زهرة، وجه لكل شهر قضاه هنا، مع مرور السنين كان يطلب من راوية أن تلتقط لزهرة صورة بالكاميرا وتُريها له، كي يتابع مراحل عمرها ويستطيع رسمها وهي تكبر أمام عينه ولو في صورة، بعدما حرم من شم رحيقها كل يوم، وبعد زواج راوية تولى سعيد راديو المهمة حتى توقف عن زيارة معتوق، فلم يعد يعرف ملامحها في السنوات الأخيرة عقب انتقالها للعيش في مكان آخر، لا يريد ذكر اسم الخال كي لا يتقيأ، بعدها رسمها من خياله، أضاف لها سنين بحساباته فزادتها جمالًا، سنون لا تنتقص من طفولتها ولا تحرمها من أنوثتها.. فزَهرة اليوم تجاوزت الثامنة عشر من عمرها بتسعة شهور وخمسة أيام.

انتهى من عناق خليل بحرارة وتركه لشاهين ليودعه، ثم التفت فجأة نحوه وسأله وهو يضحك:

- إزاي قرارات اللجان بتطلع بسرعة كده يا خليل؟

ارتسمت الجدية على ملامح خليل البنهاوي وهو يقول بنبرة غرور ربما لم يشأ إخفاءها لتظل محفورة بذاكرة معتوق:

- أنا مقدم الطلبات كلها وأنا اللجنة وأنا الدكاترة اللي بتكتب التقارير وأنا الموظف اللي معاه ختم النسر، أنا الكل في الكل هنا يا معتوق. أنا هنا عايش ولو خرجت أموت.

عندما عبرت سيارة شاهين بوابة المستشفى في طريقهما للدنيا، كان خليل البنهاوي لا يزال يقف ملوحًا بمنديله الأبيض ودموعه تغطي وجهه بعدما تركها تنهمر عقب رحيلهما، أما معتوق فكان يشعر بأحاسيس متضاربة لا يستطيع معها الجزم بأنه كان سعيدًا بتجربته وعناده، لكنه مع ذلك

شعر بألفة غريبة مع المكان والنزلاء، لن يمكنه نسيان اثنين طوال حياته، خليل وحربية، ورغم أنه وعدها بالبحث عن ابنها وهو يودعها إلا أنه على يقين بأنها في مكان أفضل بعدما فقدت عقلها وربما لم تعِ وعده رغم احتفاظها بالصور التي رسمها لابنها محفوظ، كان يتمنى لو أنها استجابت له وتشبثت بأمل لكنها خيبت آماله وانتكست. أما خليل البنهاوي فسيظل مدينًا له بحياته طوال عمره، بعدما أنقذه من الموت لما هاجمته آلام الزائدة الدودية وكادت تنفجر ببطنه، لولا أن نقله خليل للعيادة الخارجية بالمستشفى وأجرى له الجراحة منفردًا، ثم ظل بجواره ثلاث ليالٍ كاملة حتى اطمأن على سلامته.

اليوم أبكاه خليل على حالهما معًا، وشعر معتوق أنه ينظر في مرآة وهو يرقب خليل أثناء كتابة تقرير اللجنة الخماسية بتفصيل دقيق وعبارات علمية طبية سليمة قبل أن يضع توقيعاتهم عليه بصفتهم الأطباء، سيقف خليل بجوار معتوق في الصف على هامش الحياة وفي صدارة اللوحة، وربما وراءهما طابور طويل يقف فيه مئات المهمشين، لكنهما لم يعودا قادرين على الالتفات مرة ثانية، أو على الأقل هذا شعوره وحده الآن.



13

في قاعة مغلقة يتواطأ كل من فيها على الصمت، فإن كلمة حق واحدة تقال يكون لها دوي عيار ناري.. وهذه الكلمة هي الحقيقة، ومعتوق رفاعي هو الوحيد الذي يستطيع أن يقولها، لكنه هذه المرة اختار أن يكون كتومًا رغم أن الكذبة تنتشر والكل يتنفسها.

خرج من متحف محمود خليل بالجيزة الذي ذهب إليه مع شاهين كأول مشوار له بعد عودته للحياة الثانية، هناك تأمل اللوحة التي نقلت لمكانها الجديد بعد استعادتها كما أعلنت الحكومة بفخر، استغرق الأمر منه دقيقة واحدة، ليعلن بعدها في جرأة وثقة أن اللوحة المستعادة لوحته، والرواية التي ألفوها وقدموها على طبق العسال اللص التائب إلى النيابة كانت وستظل متهافتة ومهترئة، لا تفلح في إقناع طفل بأي فصل من فصولها. الخدش لا يزال بإطار اللوحة، لم يفكروا حتى في ترميمه ليخدعوا معتوق به، الخطوط خطوطه، والألوان ألوانه. يا ليتهم خدعوه.. كما أخبر شاهين قبل أن يغادرا في صمت، أطلق معتوق سؤالًا في الفراغ ولم ينتظر إجابة:

- تفتكر عساكر حراسة المتحف سكتوا ليه عن حكاية اللوحة التقليد؟ ليه أنكروا الحقيقة؟

استنكر شاهين سؤال معتوق، فهو رغم مرور عشر سنوات، لا يزال يتساءل بدهشة العلماء وشك الفنانين ومع ذلك أجابه:

- يمكن الظابط قالهم يقولوا كده والناس دي غلابة يا معتوق، انسى الموضوع بقى. تصدق بالله أنا متعاطف معاك.. بس حتفرق إيه إن دي لوحتك والا لوحة فان جوخ ما أنتم الاتنين رسمتوها زي بعض. والاتنين اتسرقوا.

أفلتت ابتسامة من معتوق على كلمات شاهين، رغم سخريته إلا أنها الحقيقة، فتح نافذة السيارة ليستقبل نسيمًا باردًا يفتقده بعد شعوره بالاختناق في المتحف. بالطريق لمح أكثر من لافتة تحمل

صورة ضخمة لغريب أبو إسماعيل باسمه الجديد غريب سعيد، يظهر فيها مبتسمًا في ثقة، وشعار دعايته الانتخابية مكتوب ببنط أحمر عريض.. "معًا سنحقق الحلم".

تمتم معتوق.. "بالفعل أنا وأنت يا غريب حققنا أحلامك وحدك"، ثم لم يتمالك نفسه وبصق عبر النافذة باتجاهه، بعدما صوب عقب سيجارته نحو صورة غريب وخاب في الوصول إليها لعلوها.

توقفت سيارة شاهين مجبرة قبل النفق بمسافة كبيرة بسبب غرق الشوارع بالأمطار فقرر الذهاب لمكتبه بدلًا من البيت، لم يترك شاهين بيته في عزبة الوالدة، لا يزال فيها الدفء والونس كما يقول، أما معتوق فترجل من السيارة تاركًا حقائبه فيها، ففضوله لرؤية أهل العزبة ومن قبلهم ابنته لا يمنحه رفاهية الانتظار أكثر من ذلك.

سار على الكورنيش وحيدًا، وجد كفه اليمنى تمتد في الفراغ لتمسك بيدها، تنبه إلى أن راوية ليست معه ولن تكون بعد زواجها، أكمل سيره بهمة رغم أنه لم ينم من أول أمس سوى بضع ساعات، تجاوز المدرسة وهو يرمق المبنى بلامبالاة، تذكر زَهرة. لا بد وأنها أنهت دراستها هذا العام، ثم خيل له أنه يسمع صوت راوية وهي تشرح دروس التاريخ للتلاميذ، كاد يجن وكلماتها ترن في أذنيه كصدى صوت، يسمعها بوضوح وهي تعيد على مسامع تلاميذها الدرس الذي تلقنهم إياه كل عام من خارج المنهج كعادتها، ثم تذكر أن موعد المدرسة قد فات ولاشك أنها مغلقة فأسرع الخطى نحو عزبة الوالدة حتى بدا مهرولًا كمن يهرب من هواجسه.

*****

أشبه بمنارة في ليل معتم، جلست الست أنهار في شرفة تكاد تلامس الطريق، ترتدي جلبابًا أبيض وتغطي نصف رأسها بمنديل من اللون ذاته، لمحها معتوق من الرصيف الآخر وهي تفرج عن ساق دافئة كانت أسيرة أسفل مؤخرتها، ثم تعتدل في جلستها وتتثاءب في كسل، يبدو أنها لم تذهب بعد لمحلها الذي تبيع فيه الحلوى كما علم من سراج في زياراته الأخيرة. فجأة دق نفير مرتين متتاليتين، التفت معتوق حذرًا فوجد عربة توزيع بضائع بالجملة تقترب من شرفتها حتى توقفت

أسفلها مباشرة، سلمها المندوب كراتين البضاعة وانصرف، اندهش معتوق أن تعتبرها شركة الحلويات تاجر تجزئة، ثم تنامت دهشته وهو يشاهدها تبيع من شرفة مساحتها متر مربع وترتفع عن سطح الأرض بنصف المتر.

أحصت أنهار نقودها لمرة ثالثة وهي تقربها من عينيها التي تغطيهما نظارة سوداء سميكة، قسمتها لكومتين ثم دفست إحداهما بصدرها وتركت الصغيرة بيدها. اقترب معتوق منها لكنها لم تلحظ وجوده، دهش لتبدل من كانت غصن بان حتى صارت جذع شجرة عجوز أحرقته النيران، جالسة على صندوق عريض مصنوع من خشب رخيص، تغطيه قطعة قماش قديمة ذات ألوان باهتة تشبه العَلم لكنها لا تدل على وطن، تتأمل السماء في غضب كأنها تتوعدها إن أمطرت ثانية، خيل له أن طيف ابتسامة حَوم على ملامِحها عندما مالت للأمام فجأة وقلبت قفصًا مصنوعًا من الجريد، ظن أنها ستصافحه مرحبة لكنها رصت عليه كراتين حلوى، وأخرجت من صدرها قطعًا صغيرة ملفوفة بسيلوفان أصفر، تلفتت يمينًا ويسارًا عدة مرات في قلق، ثم بدأت ترصها بقاع علبة كرتونية مطبوع عليها "حلويات فرفشة".

اقترب أكثر حتى كادت تشعر بأنفاسه، لا يفصله عنها سوى أسياخ شرفتها ذات الفتحات العريضة، شهقت أنهار رافعة نظارتها السوداء محاولة النهوض وهي تبكي وتتحسس وجه معتوق.. لا يدري إذا كانت دموع فرحة لرؤيته أم حسرة على ما آل إليه حالها.

تسلق معتوق سور الشرفة برشاقة وجلس بجوارها على الصندوق الخشبي، تفرس فيها فوجدها تبدلت، صارت مثل قاطرة بشرية مترجرجة بالشحوم إذا ما تحركت، راحت تحكي له كمذياع لا ينطفئ أن الدنيا أدبرت يوم وفاة المعلم غالي وبال عليها أولاده من زوجته الثانية، لم يكن معتوق يعرف أن أنهار زوجة ثالثة للمعلم غالي، ولا يفهم كيف كان غالي يطلق زوجاته أو يتزوج عليهن وهو قبطي بهذه السهولة، لكنه ظل يستمع إليها دون مقاطعة وهي تشكو من فقد بصرها ولولا أن مينا ابنها يساعدها لكانت الحياة أصعب، رغم ذلك ساوره شك يرقى لمرتبة اليقين أنها ليست كفيفة كما تدعي، شعر أنها ترى بوضوح لكنها أحبت اللعبة وأعجبتها بعدما لاحظ خلال جلستهما أنها تشير لأهل العزبة وتحيي بعضهم، وتخبره بأسماء آخرين يمرون من أمامهما على مبعدة، لكنه تجاوز ذلك كله وتركها تسترسل، مالت عليه وأفضت له بسرها، المعلم غالي ترك ثروة عبارة عن لفائف كتانية تحوي فِرش الحشيش، لكنها لا تبيع المخدرات لأهل العزبة أو عابري السبيل، تبيع

بالجملة لموزع واحد يتحكم في السعر وأحيانًا كثيرة يبتلع مكسبها، ذكرت بفخر أنها تخصصت في الحشيش باعتباره أقل ضررًا من بين أنواع المخدرات، همست لمعتوق أن غالي أخبرها قبل وفاته بتقنين البرلمان لتعاطي الحشيش حتى لا يثور المواطنون على الحكومة، لكن غالي رحل والحشيش لا يزال ممنوعًا والجماهير مستكينة بلا ثورة وغالبية العزبة من المتعاطين.

رغم شكوكه أن أنهار تكذب عليه، وأن المعلم غالي لو ترك لها جبلًا من الحشيش قبل رحيله لنفد بعد كل هذه السنين، لكنه شعر بقلق حقيقي عليها وهو يسألها عن مكان تخزين المخدرات خوفًا من ضبطها، لمعت عينا أنهار بخبث بعدما خلعت نظارتها السوداء وشبكتها بصدر جلبابها، ثم همست أنها تخفيها بالسندرة، زم معتوق شفتيه وأخبرها أن السندرة ليست مكانا آمنًا، بدت ابتسامتها أشد خبثًا من نظراتها وهي تشير له إلى السندرة، فوجدها الصندوق الذي يجلسان فوقه، فاتسعت دهشته بحجمه.

*****

مثل مقبرة لم تفتح منذ زمن طويل اشتم معتوق رائحة النسيان التي تملأ المكان، تسلل شعاع نور مصباح من ورائه عبر فتحة الباب المواربة فأضاء مساحة ضئيلة لكنها كافية ليرى، وقف على عتبة غرفته بعزبة الوالدة بعد غياب أكثر من عشر سنوات، كل شيء ثابت ظل مكانه محتفظًا بغبار كثيف يخبره بطول فترة غيابه، يعاتبه على إهماله لأشيائه التي عاشت معه عمره كله، ولم تشكُ يومًا من عدم اكتراثه، خطا خطوتين حتى وقف في منتصف الغرفة، الجدران عارية، محفور بها خطوط متعرجة وأخاديد عميقة، كأنها شاخت مثله بعدما جفت شرايين الحياة بها، كل صور زَهرة وهي صغيرة اختفت، وكل لوحاته استولى عليها غريب، أما القط الأعور.. فمؤكد مات منكمشًا من الجوع والخوف والبرد، لكن معتوق لا ينوي دفن نفسه هنا مثله.

انتهى من تعليق بورتيريهات زَهرة التي رسمها بالمستشفى على جدران الغرفة فغطت قبحها وتعرجاتها ونقراتها، ثم دق مسمارًا خلف باب الغرفة ليعلق اللوحة الخشبية التي تحمل اسم عنبر الفصام ورقمه والتي كانت تزين باب حجرته بالمستشفى، وقف يتأمل مكانها، سيراها المغادرون

لغرفته كل مرة فيطمئنون على عقولهم، شعر براحة غريبة فتمدد على الأرض وغفا لنصف الساعة.

رأى في منامه زَهرة تطير بأجنحة ورقية عريضة وهو يحاول اللحاق بها لكنه لا يفلح، كل مرة يشعر أنها قريبة وكلما لامسها وتأهب للإمساك بها ابتعدت أكثر حتى تبخرت واختفت، ثم خيل إليه أنه عاد صبيًّا صغيرًا بالمدرسة وراوية تدرس له مادة التاريخ، الابتسامة ذاتها تتسيد محياها وهي تحكي عن الخديوي إسماعيل، لكنها توقفت عند الوالدة باشا، خوشيار هانم وحديقتها الشاسعة، رئة القاهرة التي كانت هنا، ثم اختفى صوت راوية فجأة من أذنيه فلم تكمل بقية الحكاية مع أنها ما زالت تحرك شفتيها، ووجد نفسه يعود بالزمن ويتقدم خطوات وكلما تقدم تأخر ما حوله، رأى الخديوي توفيق يهمل العزبة ويحرمها من الخدمات، ثم تبدل اسمها إلى عزبة السلطان لما تولى حسين كامل عرش مصر لكنها ظلت مهملة، ثم جاء الخديوي عباس الثاني فسمح للمصريين ببناء بيوت طينية فيها ليخدموا في أرضه لا لشيء آخر، ولما تولى الملك فؤاد عرش مصر أزالها، وتحولت العزبة لمنتزه عام للأمراء والوجهاء، ونقل المواطنون قرب الصحراء، ثم جاء فاروق فهدم جزءًا كبيرًا من القصر، وحوّل حديقته ملاعب لممارسة رياضة التنس نكاية في الإنجليز عندما أرادوا استخدامه كمستشفى وقت حربهم مع الألمان. ثم ظهر فجأة عبد الناصر والأحرار فصارت الحدائق مصانع، والرياحين أبخرة، والأشجار مداخن، والمواطنون ما زالوا يهللون مثلما كانوا في كل عصر. انزعج معتوق من الهتافات وحاول إغلاق أذنيه لكن الصوت لا يزال يرجه بشدة حتى قام من نومته ضيق الصدر قليل الصبر، نظر في ساعته فوجدها تجاوزت فجر اليوم التالي بخمس ساعات كاملة، هرول وهو يكمل ارتداء قميصه على الدرج لاعنًا الخديوي وأمه وكل من تولى عرش مصر من بعده وتسبب في تأخره.



14

غامت صفحة السماء رغم توقف الأمطار التي تركت سحبًا داكنة متربصة بقرص الشمس، لا أحد يعرف لماذا أرجأ معتوق زيارة ابنته زهرة بعد خروجه من المستشفى، ولماذا فضل الذهاب للمتحف أولًا ثم العزبة لتتراجع زَهرة إلى المرتبة الثالثة، لم يجب معتوق عن سؤال شاهين عندما استفسر منه، ولا أراح سعيد راديو عندما مَر عليه بدكانه في طريقهما إليها.

ربما معتوق نفسه لايعرف إجابة واضحة.. عشر سنوات بمستشفى الأمراض النفسية التي دخلها سليمًا لا بد وأن يخرج وقد ترك بعض عقله بها، ومن المقبول أن نلتمس له الكثير من العذر.

عاشت زهرة مع عائلة موسى زيدان شقيق زوجته بعدما تزوجت راوية من زميلها، كان المعلم غالي يتولى الإنفاق على الفتاة الصغيرة طوال تلك الفترة، وعندما مات غالي كوّن أهل العزبة جمعية فيما بينهم لا يقبضونها أبدًا، إيراداتها تصب لصالح زهرة، وقبل أن تنحدر دموع معتوق تأثرًا من موقفهم وهو يستمع للحكاية من سعيد راديو في سيارة الأجرة التي تقلهما، تذكر جذور الخلافات بينه وبين موسى زيدان فظل متجهمًا، جذور عداوة ضاربة في تربة علاقتهما منذ زمن بعيد، لما مات أبو زوجته واستولى موسى على ميراث شقيقته زوجة معتوق، لكن سعيد راديو راح يردد على مسامعه عبارات من نوعية أن الخال والد والظفر لا يخرج من اللحم، سكت برهة ليردف:

- زَهرة بقت عروسة ما شاء الله وفي ناس متكلمين عليها.. افرح بيها وبلاش تشغل بالك بموسى.

في غرفة صغيرة بطابق أرضي بعزبة أولاد علام بالدقي التقى معتوق بابنته زهرة.. ظلت تنظر له واجمة من وراء ستار شفاف، كبرت ونضجت ولا تزال عيناها الواسعتان جميلتين رغم حزنهما، أطلال الابتسامة المبهجة الطفولية باقية لكنها غائمة، التردد والرغبة في الرجوع للوراء غالبة على حركة جسدها، لاحظ معتوق أنها تغطي رأسها بطرحة سوداء لا تظهر منها خصلة شعر واحدة مع أنه كان ناعمًا طويلًا جميلًا كأمها، عشر سنوات باعدت بينهما، وعشرة أمتار

تفصل بينهما الآن، لكن المسافة أعمق وأكبر بداخلهما من كل هذه السنين والأمتار، رغم أنه لم ينسها يومًا، بورتريهات زهرة أمام عينيه، يناجيها ويكلمها ويطلب منها كل صباح أن تسامحه، أرسل لها مئات الرسائل مع زواره ولم يتلق منها ردًّا واحدًا، كان ولا يزال متلهفًا على احتضانها واحتوائها.. اقترب فتحركت مترددة لكن للوراء، زهرته كبرت لكنه محروم من كل شيء فيها حتى رحيقها، مطلوب منه الابتعاد بمسافة أكبر كي لا يشم عبيرها ولا يراها بوضوح، لم تعد له وحده، لم تعد تحمل ذكريات بينهما، كأنها تبدلت وصارت زَهرة أخرى.

جاهد معتوق لتخرج كلمة واحدة منه.. اسمها.. اسمها وكفى، يحمل كل المعاني الجميلة وكل الذكريات الحلوة، كل أشواقه ولهفته ناحيتها، كل أيام الفراق والغربة بالمستشفى، قالها لكنها ظلت تحملق في وجهه كأنها ترى وحشًا أفزعها أو اسمًا لا يخصها، عيناها تتسعان وفمها ينفتح وملامحها تتبدل في ضيق ممزوج بخوف كبير، جعلها تتراجع خطوة ثالثة للوراء.

أدرك معتوق أنها لن تستجيب لكنه يشعر بها، لا تزال قطعة منه، فاقترب باسطًا ذراعيه.. مبتسمًا رغم دموعه التي تنحدر ببطء على وجنتيه.. فابتعدت بوجه باكٍ ومشاعر حائرة، ثم سمع باب غرفة يوصد بعنف، وقف وراءه وطرقه مرات فلم يتلق سوى نهنهة البكاء. ظل الباب موصدًا، فاصلًا بينه وبينها.

- مفيش حاجة بالعافية يا معتوق، إنت معرفتش تربيها ولا تحافظ عليها، تعبتها معاك زي أختي الله يرحمها، أظن كفاية كده واتفضل من غير مطرود. المعلم غالي الله يرحمه صرف عليها كتير ومن بعده أهل العزبة قايمين بالواجب وزيادة ومش عاوزين من وشك حاجة.

يدرك معتوق أن موسى زيدان يتعمد استفزازه بكلماته، يجره إلى مشاجرة لا طائل من ورائها سوى ابتعاد زهرة عنه أكثر، يعرف معتوق أن موسى يكرهه وربما لا يريد زهرة عنده، لكنه سيحتفظ بها نكاية فيه ليعلن انتصاره عليه ولو لمرة واحدة، ثم إنه لا يصرف عليها مليمًا وربما يختلس من تبرعات أهل العزبة، لاحت ملامح الانتصار على وجه موسى عندما انسحب معتوق مضطرًّا، لمح في طريق خروجه كراسات وكتب زهرة فوق منضدة قريبة، دفعه الحنين فاقترب، اختار كراسة التاريخ لعله يقرأ فيها ما يذكره بفقيدته الثانية راوية.. قبل أن يتصفح الكراسة قرأ اسم ابنته ثلاثيًّا مدونًا عليها بخط منمق، ظل يحملق في الاسم مذهولًا، أحس لوهلة أنه نسي حروف الكلام، طارت كلها من على طرف لسانه العاجز حتى عن التحرك بفمه، طلب بصعوبة كوب ماء

من موسى راجيًا أن يلبي رغبته برؤية زهرة مرة ثانية ليتكلم معها، تدخل سعيد راديو للتهدئة، لكن لم تفلح محاولاته في إثناء معتوق عن رغبته التي رفضها موسى بصلف، علا صوت معتوق وبدا مهيأً لافتراس موسى المبتسم في برود وتحدٍ وهو يمد يده بكوب الماء، بينما سعيد راديو يحاول الحفاظ على مسافة آمنة بينهما، علا صوت معتوق بالسباب، بات على أعتاب عراك مرتقب حتى خرجت زهرة من غرفتها وهي تهمهم بصوت عالٍ، وقفت أمام أبيها بوجهها الباكي، ثم هرولت ناحيته وألقت نفسها في حضنه وكأنها تطلب الغفران.

*****

ظهر النيل من ورائهما عريضًا تحوطه أشجار الكافور العالية مثل حرس شرف، من بعيد تبدو نقاطًا ملونة تشي بأنها مراكب شراعية متناثرة بعناية، خرجا من لوحة لفنان قدير إلى واقع مرير، أمامهما مصرف راكد وبركة تجمعت من مياه أمطار تصب فيه لكنه لا يبالي، تتناثر أكشاك خشبية قبيحة وكتل أسمنتية مخيفة وأخرى صلعاء بالطوب الأحمر، تتصاعد أدخنة لا يُعرف مصدرها بعدما أفلست المصانع التي كانت تُطلقها عليهم، ينتشر باعة جائلون كالجراد في أماكن مبعثرة بعشوائية، ينادون بأنكر الأصوات على بضاعتهم، وتفاصل نسوة عابسات معهم بشراسة، وجوه مأزومة وجباه مكفهرة وشفاه مزمومة.. الغالبية في ضيق والكل على وشك الانفجار في وجه الأضعف بعدما فرغ من الانحناء أمام القوي.

افترقا عند مدخل عزبة الوالدة، ذهب سعيد لمحله وغرق معتوق في دوامة أحزانه، لم يكن في حاجة لأن يخبره أحد بأنهم اضطروا لتغيير اسم ابنته كي تعيش وتتزوج وتنجب بعيدًا عن جرائمه، لم يكن يريد سماع كل ما قاله سعيد راديو عندما غادرا بيت الخال، وكيف غير موسى زيدان بشهادة ميلادها أخرى مزورة، وأن البطاقة الشخصية صدرت بناء عليها حتى لا يعايرها أحد بماضي أبيها، دار بذهنه أنهم ربما كانوا محقين فيما فعلوا، فلن تعاني زهرة مثلما عانى هو شابًّا ورجلًا من ماضي أبيه لما اتهم بالتزوير ومات بالسجن، ظل طوال سنوات الدراسة معروفًا بابن رفاعي المزور، ولما تخرج لم يُعين بالكلية رغم أنه أول دفعته، ولم يلتحق بأي وظيفة حكومية بسبب ملف أبيه، حتى زواجه كان بصعوبة لما قاطعته أسرة زوجته حتى وفاتها بسبب سمعة أبيه

وكثرة زيجات أمه، ظل العار يلاحقه أينما ذهب، الآن مثل كل لوحاته لم تعد زَهرة معتوق رفاعي تُنسب له، لم تعد ابنته في الأوراق الرسمية.. صارت زهرة موسى زيدان وكأن غريب أبو إسماعيل يتجسد له في شخصية أخرى، وربما شخصيات أخريات في انتظاره ولا يدري، كلمات سعيد راديو الأخيرة ترن في أذنيه وتضايقه.. "سيحترمها الجميع باسمها الجديد وستجد فرصة ثانية وثالثة"، ربما يكون كلامه صحيحًا، لكن معتوق سيظل يسير على هامش الزمن وحده ولن يلتفت له أحد بعدما خسر زهرته الثانية.

*****

مثل صباحات مفعمة بالأمل ونهارات تحمل أخبارًا سعيدة اختار معتوق أن يلون أيامه بصبغة وردية مبهجة، صار سعيد راديو الناقل الرسمي لأخبار زهرة ابنته واحتياجاتها في الحياة وأيضا مدبر لقاءاتها السرية بأبيها الحقيقي كل حين بعيدًا عن عيون موسى، كانت شهادة الميلاد التي زورها الخال لزهرة لا تعجب معتوق، اعتبرها بدائية عادية لا تنطلي على المغفلين، لكنه تجاوز عنها باعتبار أن بطاقتها الشخصية صدرت صحيحة بعدها، واحتفظ لنفسه بملاحظات كثيرة على المطبوعات الحكومية ورداءتها، واعدًا ابنته بأخريات لا يمكن كشفها أبدًا. حياة زهرة مليئة بالعقبات ومعتوق الوحيد الذي بإمكانه سد الفجوات لتكون طريقها ممهدة، أبلغه سعيد راديو بعد شهرين بعقبتها الأولى، رسبت بالثانوية العامة وباتت مُهددة بالفصل بسبب مادة التاريخ، قفزت راوية لذهن معتوق، لا بد وأن دروسها التي من خارج المقرر هي السبب، ثم ساهم نقل زهرة من مدرستها في تفاقم المشكلة حتى صارت معضلة، لكن معتوق لا يَعدم الحلول، بعد تفكير طلب من سعيد راديو تجبيس ذراع زهرة، ثم زور لها شهادة طبية حكومية بإصابتها بكسور ومعاناتها من عدم القدرة على الكتابة، في يوم الامتحان دخل معها اللجنة عبده العربي ذو الملامح الطفولية والجسد الضئيل ببطاقة مزورة من إبداعات معتوق، مدون فيها أن عمره سبعة عشر عامًا وبضعة شهور.. يعرف معتوق أن القانون يشترط صغر سن المرافق الذي سيؤدي الاختبار عن طريق الإملاء عن سن الطالب المريض، جاء اختياره لعبده العربي بعد إعداد معسكر مغلق لمدة أربعة أسابيع بشقة معتوق، لقنه فيها ملخصات مادة التاريخ المقررة على طلبة الثانوية العامة.

نجحت زَهرة بالكاد بسبب خيبة عبده العربي في الحفظ لكنها تجاوزت عقبة الثانوية العامة في النهاية، بعدها توالت المشاكل وفي ذيلها الحلول، وفر لها معتوق حياة اجتماعية لطيفة في نادي الزمالك بعضوية عاملة وأصدر لها بطاقة ركوب للمواصلات العامة مجانية باعتبارها من أوائل الطلبة، جعل معتوق موهبته في التزوير وقفًا لإسعاد ابنته، لكنه فشل في تلوين أيامه باللون المبهج الذي أراده لنفسه، صارت كلها نقاطًا سوداء في لوحة بيضاء صغيرة حتى غاب نصوعها.

*****

هتفت الجماهير الغفيرة لمصر و للمدرب محمود الجوهري وهي تسير في حشود بعد وصول منتخب الكرة لكأس العالم بالكاد، التحم معتوق معها مثلما التحمت أسابيع حياته فكونت شهورًا ، حاول خلالها بيع لوحاته التي رسمها بالمستشفى، تردد على صالات العرض الفني بالقاهرة وذهب لمحال متخصصة بوسط البلد، لكن لم يشتر منه أحد، الكل كان يرفض بمجرد رؤيته أو معرفة اسمه، الجميع وقعوا اتفاقًا ضمنيًّا مع غريب أبو إسماعيل لإعطاء الفقر مفتاح غرفة معتوق كي يزوره يوميًّا ويتلذذ بقتله ببطء، أما الخوف فقد جعل يده التي تزوّر النقود مغلولة إلى عنقه حتى لا يتم ضبطه، فلن يتحمل السجن أو دخول مستشفى العباسية مرة ثانية على أضعف الإيمان، بالكاد عشرون جنيهًا يوميًّا لمصاريف الحياة البسيطة ومثلها لزهرة، لكن الفقر بدأ يطبق فكيه كالعادة.

طرق آخر الأبواب أمامه، قرر إقامة معرض للوحاته عن طريق وزارة الثقافة، لكنهم قالوا له آخر ما يتوقعه.. "ليس لديك شخصية فنية خاصة بك، خطوطك كلها تشبه لوحات الفنان الكبير غريب سعيد".

يومها لم يصدق ما سمعه، هذا الأفاق لا يزال يبيع لوحاته التي رسمها له، وربما حاول تقليد غيرها ونجح مع أنه لم يضع خطًّا في لوحة وأفلح، ولا يستطيع ضبط لون على قطعة قماش، هز معتوق رأسه متعجبًا، لا بد أن لديه عشرات المغمورين يرسمون له، مظاليم جدد في طريقهم إلى المستشفى مثله أو البقاء في الظل كحاله، فالغالبية تمر على السطور بعينيها ولا تنزل إلى الهوامش إلا نادرًا. كاد يفقد صوابه للحظات ثم استجمع ما تبقى له من أعصاب، أنفقها كلها في إفهامهم أن

غريب أبو إسماعيل هو لص الفن، سمعوه للنهاية ثم قالوا ببرود إن كل ناجح يظهر له مغمور يقول إنه سرق أعماله، تلك حيلة قديمة ومستهلكة.. وبعدها طردوه.

أيقن أن غريب أخرجه من المستشفى برواية اللص التائب حسن العسال لكي يعيش هو في راحة، يريد أن يُميته فنيًّا ببطء، وإلى أن يحين الأجل لا بأس من قبلة حياة صغيرة كي يدخل البرلمان لمرة ثالثة نائبًا عن عزبة الوالدة بغير شوشرة أو مقبرة حكايات ينبش فيها الصحفيون والمتلصصون.

انشغل بمسح دمعة تجرأت على الانهمار فتراجعت الباقيات لتحتبس بصدره لما نهاها عقله، لا يزال غريب ممسكًا بخيوط حياته، يحركه أينما يريد بعيدًا عنه، أخرجه من المستشفى ليعيش كجثة مجمدة في ثلاجة لا ترجو حياة قادمة، لكنها لم تدفن بعد، حتى صار كل ما يرجوه معتوق مجرد فرصة بمكان محدود، يقف فيه تحت الشمس، لا يطالب بحقه ولم يطلب تعويضًا عما فات.. ومع ذلك اتهموه بالجنون.. فليكن مجنونًا إذًا، فليس على المجنون حرج.



15

سطوع خفيف ثم كسوف غير مبرر أعقبته غيمة طويلة لتنقشع بعدها سحابات ثلاث كبيرة، الأولى تشبه الذئب والثانية أقرب لثعلب، أما الثالثة فتعلن بوضوح أنها لخرتيت ضخم.

بدا الطقس خريفيًّا مترددًا بين الشتاء والصيف مثل معتوق الذي قادته قدماه ناحية كورنيش النيل، جلس على الشاطئ موليًا ظهره لمتحف محمود خليل، يحدث نفسه ويحرك يديه متعجبًا ثم يسكت لبرهة طويلة وبعدها يُعيد الكَرة، ألقى بحجرين في الماء وأمسك بالثالث مترددًا، الرؤساء منذ طردوا الملك يزوّرون في الانتخابات ليبقوا فوق كراسيهم للأبد كأنما الملك مثلهم الأعلى، والنواب يزوّرون في الانتخابات ليدخلوا البرلمان من أيام الملك نفسه.. قبل أن يبحث عن إجابات صدمته حقيقته، هو نفسه يزوّر ليعيش فلماذا يتعجب الآن؟ تخشب في مكانه حتى انتصف النهار، لم ينتظر لحظة الغروب حتى لا يرى قرص الشمس وهو ينتحر في النهر مثلما يفعل كل ليلة، نهض بعدما أعاد طرح سؤال أخير على نفسه مرات ومرات ولم يجد له إجابة، فقرر أن يسأله للحكومة علها تجيبه.

عبر نهر الطريق في طريقه إلى قسم شرطة الدقي، اختار غرفة تحمل لافتة كبيرة تشير إلى أن مأمور القسم يجلس فيها. ما إن اجتاز عتبتها حتى فوجئ أنها تعج بضباط كثيرين، يتحدثون في أجهزة لاسلكية بجدية بالغة، ظل واقفًا بينهم ولا أحد يلتفت ناحيته، كأنه هواء تسرب ولم يترك أثرًا.

ألقى السلام بصوت عالٍ فتنبهوا جميعًا، ردده بعضهم بغمغمة بسيطة من شفتيه ونظر له الآخرون في دهشة، تشجع وهو يثبت نظره على كبيرهم في الرتبة قائلًا:

- أنا عاوز أعمل بلاغ في قضية تزوير وسرقة للمال العام.

اعتدل المأمور في جلسته وباحت لغة الجسد بأسرارها لما تنبه الآخرون وتحركت غريزة البحث والفضول لديهم.

- البلاغ ضد مين وبخصوص إيه؟

سأله ضابط آخر، بدا من هيئته الغامضة ونبرة سؤاله والسيجارة المدلاة من شفتيه أنه رئيس المباحث، لكن معتوق ظل محتفظًا بثباته لآخر حرف وهو يجيب:

- ضد السيد وزير الداخلية ووزير الثقافة.

سكت المأمور وشرع في إشعال سيجارة مبتسمًا، وخرج الضابط الغامض ليستكمل حديثه في جهاز اللاسلكي وهو ينفث دخان سيجارته في وجه معتوق الذي لم يسعفه الوقت ليحكي لهم حكاية لوحة زهرة الخشخاش، اكتفى فقط بذكر اسمها كموضوع للبلاغ، تبادلوا جميعًا نظرات صامتة قبل أن ينفجروا ضاحكين، وجد معتوق نفسه بعد ربع الساعة في تخشيبة القسم انتظارًا لعربة آتية كما سمعهم يقولون، ظن أنها ستذهب به إلى مستشفى العباسية لتقدير مدى سلامة قواه العقلية، فكلمات مثل مجنون ومخبول التي ترددت على مسامعه هي عادة التي تسبق القرار بفحصه، في هذه اللحظة لم يكن يدور في عقله إلا شخص واحد، الوحيد الذي يمكنه إخراجه منها عاقلاً.. الطبيب الكبير خليل البنهاوي.

*****

لفح هواء الليل البارد وجه معتوق بشدة كأنما يلطمه على اندفاعه ويحذره من تهوره، خرج من بوابة قسم الدقي يسير بجوار شاهين والي الذي ضمن خروجه، بعدما رق قلب ضابط المباحث الغامض أثناء تحرير المحضر، فوافق على منحه اتصالًا هاتفيًّا وحيدًا فاختار شاهين، ذهبا لفندق الشيراتون المواجه للقسم بعدما ارتأى شاهين أن معتوق بحاجة لمشروب بارد يهدئ أعصابه المتعبة.

جلسا بالتراس المطل على النيل وأمامهما كأسان من الويسكي، ظل شاهين يثرثر وحده لائمًا معتوق، بدا مثل أسطوانة مشروخة تُعيد المقطع ذاته بصورة تجلب الملل، بينما معتوق يستمع لعتابه بأذن ويسكبه على الأرض من الثانية، حتى غلب اليأس شاهين فأخرج مفتاحًا صغيرًا من جيب سترته وضعه أمام معتوق قائلًا:

- ده مفتاح شقة في جليم على كورنيش إسكندرية اشترتها السنة اللي فاتت، روح اقعد فيها شهر والا اتنين على حسابي وارسم زهرة الخشخاش بتاعتك زي ما أنت عاوز.. والا أقولك ارسم البحر كله وما ترجعش قبل ما تخلصه.

أشاح معتوق بوجهه ناحية النيل وأطلق دخان سيجارته على هيئة حلقات، شاهين لن يفهمه بعدما ذاق طعم الاستقرار، حقق المال والشهرة وصار يرى ضرورة سير الجميع خلفه بالطريق ذاتها لأنها آمنة، يقولها بثقة بعدما عبر نفق الخوف من ضبطه بالكارنيه المزور في أسابيعه الأولى من العمل بالمحاماة، لا يدرك شاهين أن معتوق فنان حرفته الخيال، لا موظف ينتظر راتبًا أول كل شهر. غريب أبو إسماعيل حتمًا سيفوز بمقعد مجلس الشعب عن دائرة حلوان ووقتها سيُخرجه من رأسه، لن يضعه في مرمى التصويب مرة ثانية، ولن يهدده بكشف سره ونقوده المزورة، أحس معتوق لوهلة أنه مجرد ذبابة أبعدها غريب بكفه ثم نسي أمرها، ارتاح لهذا التفسير وارتاحت ملامحه أكثر وهو يتفرس في وجه شاهين المنزعج، طلب لنفسه كأسًا آخر من الويسكي وفنجان قهوة لشاهين كي يركز في كلماته القادمة:

- اسمعني كويس يا شاهين أنا عاوز منك خدمة حياة أو موت. أنا عاوز أشتري حتة ألماني.........

تقلبت ملامح شاهين كإعصار هب فجأة وهو يقاطعه:

- لأ بقى إنت كده مجنون فعلًا يا معتوق.. طبعًا عاوز حتة سلاح ونويت تقتل غريب، اسمع يا جدع إنت، أنا لا يمكن..........

حاول معتوق إسكاته بسبب علو صوته ولم يفلح فاضطر لكتم فمه بكفّه وقال:

- أنا فنان يا أستاذ.. ماليش في القتل والسلاح والدم، أنا عاوز حاجة أنت الوحيد اللي ممكن تساعدني فيها.

رفع كفه من فوق فم شاهين وهو يضحك لكنه لم يمهله ليسأل، أخرج قصاصة جريدة تحمل صورة ماكينة طباعة صغيرة ألمانية الصنع في إعلان لتسويقها بمصر أسفل خبر عرض فيلم عصر القوة بسينما ميامي اعتبارًا من الغد.

سكت شاهين لفترة طالت وهو يقلب القصاصة، اختلس نظرة فاحصة لفخذ نادية الجندي بالإعلان، ثم ومضت نفس الفكرة برأسه فالتفت لمعتوق قائلًا وهو يبتسم بخبث:

- إنت أكيد اتجننت فعلًا..

رَجع معتوق بظهره في مقعده، وتجرع ما تبقى بكأسه ثم أغمض عينيه قائلًا بصوت خفيض.. "الحقيقة أنا عقلت".

*****

عشر سنوات في عمر الشعوب مثل دقيقة في عمر الإنسان، لكنها في حياة أهالي عزبة الوالدة كفيلة بتغييرها مئة وثمانين درجة، منذ خرج معتوق من المستشفى وعاد إلى حلوان لم يجد شخصًا على حاله، كل المواطنين الذين وضعهم في لوحة تغيروا وعليه أن يعيد تجسيدهم، أراد ألا يعيشوا ما تبقى من حياتهم في إطار أجبرهم الزمن على الدخول فيه، تمنى أن يصبحوا مثل الصورة المتخيلة التي رسمهم عليها لأول مرة، على الأقل وهم في لوحته يبتسمون كل يوم، ولا يظن أنهم قادرون على ذلك خارجها.

لاحت منه التفاتة عابرة للوحته، احتفظ لهم بتاريخهم فيها، التاريخ الذي عرفهم الناس به ومع ذلك ظلوا مهمّشين، اليوم سيعيد كتابة التاريخ بيده، سيضع لمسة سحرية ليغير بها مسار الغالبية منهم في لوحته التي رسمها طوال عشر سنوات ولم يفرغ منها بعد. لكنه هذه المرة سيجعل كلًّا منهم يشعر بأنه في اللوحة وحده مع أنهم في الهم سواء.

انحسرت بِرك الماء خجلًا من خيوط لامعة بالسماء لاحت قرب الظهر، لمح معتوق من نافذة غرفته فارس عودة وهو يرفع القارب فوق الرصيف بمعاونة سعيد راديو واثنين آخرين، منذ عاد فارس من الخليج وهو لا يريد الحديث مع أحد عن سبب إنهاء عقده هناك بعد شهور قليلة من سفره، خلع قبعته القماشية الكبيرة وارتدى الحذاء ذا الرقبة، الحذاءالذي يشكل فصلًا مهمًّا في رواية حياته، ففي يوم طلوعه للمعاش منذ عام أبلغهم بفقده في إحدى البالوعات كي لا يتهم بتبديد عهدة، وظل يحتفظ به بعد ترك الخدمة في هيئة الصرف الصحي، لن يفهم المسؤولون حقيقة احتياجه للحذاء وسينشغلون بتسوية ثمنه بالدفاتر، في حين يعتبره فارس سجل بطولاته وشاهد نجاحاته، يرتديه فخورًا بإنجاز وحيد حققه على مدار عمره حتى ولو كان هذا الإنجاز في القاع بعدما اختار البقاء به، هز معتوق رأسه أسفًا على هذا المخبول الذي احتفظ بحذاء وأعاد خبيئة ذهب.

مَد فارس يده بطول ذراعه في بطن القارب، التقط آلة الترومبيت الفضية ووضع الراديو في جيبه متوجهًا لدكان سعيد لإصلاحه، عَبر فارس من أمام شرفة أنهار فحيته بترحاب، رَد لها التحية رافعًا آلته الموسيقية عازفًا نغمة متقطعة عالية مرتين، يطبقان سويًّا بنجاح برنامج الغذاء نظير المزاج، يعطيها سمكتين من قفته إذا خرج للصيد نظير قطعة عريضة من الحشيش تناولها له في المقابل.

وقف فارس على مدخل الدكان أسفل لافتة بهتت حروفها الخضراء مع الزمن حتى انمحت، لم تعد تقرأ سعيد ولا راديو، حتى كلمة دكان التي تسبق اسمه طار منها حرف الدال.

وضع الراديو الترانزستور الذي يستعمله بالقارب على حامل خشبي، ابتسم وهو يتفحص صور سعيد التي تملأ الحائط باللونين الأبيض والأسود عدا واحدة ملونة لكنها غير كاملة، بُتر منها ذراعه الأيسر بسبب قطع عشوائي لصفحة مجلة آخر ساعة، بدا سعيد في الصور مبتسمًا بثقة، يظهر مرتديًا لباس بحر ضيق وجسده يلمع بعد دهنه بالزيوت، مستعرضًا كمال جسمه وتناسق عضلاته الضخمة التي أكملت معه رحلة العمر على هيئة شحوم خاصة مؤخرته العريضة المتدلية، صفق له كي ينتبه، هرول سعيد متحمسًا من خلف الحامل الخشبي الذي يقف وراءه طوال النهار، صار ممصوص الوجه ومترهل الجسد في آن، ابتسم كاشفًا عن أسنان ناقصة وأخريات غطاها السواد، حمل الراديو بكف واحدة وعاد لطاولته العامرة بالأسلاك وقطع الغيار الصغيرة،

فحصه بسرعة ثم غاب بالداخل ليصلحه، ذكره فارس بعرضه الذي قدمه له من يومين لإصلاح الراديو مجانًا مقابل ركوب القارب معه وقت المطر، فابتسم سعيد ابتسامة خبيثة تلحس وعوده كلها، هو لا يُصلح شيئًا في الواقع، وربما ليس كهربائيًّا من الأساس، يعمل بطريقة جحا، يعيش منتظرًا أن يموت الحمار أو السلطان أو يرحل هو عن الدنيا، يفك قطع الغيار من راديو ليضعها في آخر يحتاجها، يستلهم عمله من نقل الأعضاء كالأطباء، هناك دائمًا زبون على قائمة انتظار طويلة، وربما الموت يسبقه فلا يصلح سعيد جهازه أبدًا، يتمنى ذلك، فوقتها سيضمن قطع غيار احتياطية لورشته تكفي غالبية الزبائن بلا تأجيل لشهور مثلما يفعل كل يوم.

أغلق معتوق نافذته وجذب ستارته فلم يعد المشهد يجذبه، يعرف أن فارس سيجلس هنا بقية النهار مثلما اعتاد، وربما يعزف لأهل العزبة بعد الظهيرة لو كان لديه مزاج، لكن فارس كان شاردًا في عالم آخر بعيدًا عن الموسيقى، يؤمن أن ما تبقى له من العمر بالكاد يكفي لحفر مقبرة لائقة به، بفارس عودة أشهر من نظف بلاعات مصر، الرجل الأمين الذي استقبله محافظ القاهرة منذ سنوات وأعطاه شهادة ادخار بخمسين جنيهًا كمكافأة لعثوره على خبيئة عملات ذهبية بمجاري عزبة الوالدة سلمها للحكومة، الشاب الذي ظهرت صورته يومها بالصفحة الأولى أسفل صورة رئيس الجمهورية.. دائمًا في أسفل الصفحة، في القاع..

رجع معتوق خطوة للوراء ثم بدأ يضع اللمسات الجديدة لفارس في لوحته، جعله أصغر عمرًا لعله يحصل على فرصة ثانية، ممسكًا بيسراه بآلته المحببة، الترومبيت، عاد خطوة أخرى ليتأمل اللوحة ثم زم شفتيه، فيها شيء ما لا يعجبه ولا يرضيه، ربما لون سترة فارس الأزرق يبدو باهتًا، وربما صارت أقرب لبدلة سجين.

قرب العصر هَب فارس فجأة من مقعده كمارد خرج من قمقمه، أمسك بالترومبيت كقناص يفحص بندقيته قبل التصويب ثم عاد لمكانه على رأس الحارة، راح يعزف موسيقى "الدخول إلى الجنة" لفانجيليس، تمايل طربًا وعروق رقبته نافرة وجبهته تميل للاحمرار بعدما اندمج في العزف، على مقربة منه أولاد يلعبون الاستغماية، بعضهم حفاة وآخرون لا تغطي مؤخراتهم ملابس داخلية، ثم ظهر رجل أشعث يرتدي جوالًا ممزقًا ممسكًا بعصا وراح يجري وراءهم لكنه لم يدركهم بعدما ألقموه بالحجارة فنزف أنفه، ثم أتت فتيات في عمر الزهور يغطين رؤوسهن بحجاب يمتد لجيوبهن، حاملات حقائب مدرسية تنوء بها أذرع الرجال، يضحكن في خجل على عبارات السباب

المتبادلة بين الصبية، ثم سرعان ما يعدن للتجهم كعجائز سئمن الحياة، علت موسيقى فارس فتوقفن والتفتن ناحيته، قذف المجذوب حجرًا أخيرًا بلامبالاة ناحية الأولاد ثم بدأ ينجذب للموسيقى بجسده كله، اقترب الصبية في طابور متعرج مستندين إلى الجدران وهم يتهامسون ويبتسمون وقد تناسوا لهوهم، أحدهم كان يتبول ولما صدحت الموسيقى شعر بالخجل فتوارى قليلًا، القلوب الخضراء تلتوي على الفرح وتتشبث به بقدر ما افتقدته، الثغور تتبسم والشفاه تنفرج، والفرحة تتكون إذا ما استراحت الملامح وهدأت النفوس، عبثت البنات بخصلات شعورهن اللاتي جذبنها من أسفل الطرحة في غفلة من العادات والتقاليد، تمايلن في طرب، فاصل بسيط يستردون طفولتهن فيه ويتصرفن بالفطرة خلاله، تفرس فارس في جمهوره بنظرة طويلة لكنه لم يتوقف عن العزف، عيناه تشيان بفرحة نابعة من وجدانه بعدما فُتحت النوافذ وظهرت النسوة ليستمعن للموسيقى في شجن، لوح له معتوق من نافذته بكوفيته الخضراء محييًا، توقفت الحركة في العزبة طوال العزف، وثُبتت الصورة على الجَمال، فالجمهور ما زال يستجيب.



16

هبط الظلام مُقبضًا على غير عادة، خفتت أنوار أعمدة الشارع وانطفأ بعضها، هدأت الحركة بلا سبب معلن وكأن أهل العزبة اتفقوا على التواري فجأة، ظلت أنهار جالسة في شرفتها وحيدة، تبدو ككتلة سوداء ضخمة من انعكاس ضوء القمر، من بعيد ظهر معتوق عائدًا مع أحد جيرانه، رجل وقور تركي الملامح يبرم شاربه، يسير متوكئًا على عصا طويلة تبدو غالية الثمن من هيئتها فقط، يرتدي بذلة سوداء قديمة لها ذيل، تغطي رأسه قبعة ربما كانت بيضاء بعدما اجرب لونها، رفيق معتوق كان كومبارس السينما الشهير أسعد جرجس، وأحد أبطال لوحة عزبة الوالدة، رغم أن معتوق لم يستقر على شكل محدد له بعد.

أغلب الظن تلك الليلة أن أسعد جرجس لم يجد وقتًا لتغيير ملابسه بالاستديو، فعاد وهو يرتديها، توقفا أمام شرفة أنهار، ناولها أسعد عشرين جنيهًا وظل محتفظًا بابتسامته، أحصت أنهار النقود ثم شهقت فأربكته، لكن معتوق فهم وضحك، أشارت بعصاها نحو بقعة حمراء كبيرة على قميص أسعد ناحية بطنه فاستدرك ضاحكًا:

- ما شاء الله يا ست الكل اللهم لا حسد وكمان بتحسي بلون الدم من غير ما تشوفيه، على العموم اطمني ده لون من بتوع السيما، أصلهم قتلوني في حلقة النهاردة لما إسماعيل اتنازل عن الحكم.

- إسماعيل مين اللي اتنازل يا سي أسعد؟

- الخديوي إسماعيل اتنازل لابنه توفيق بعد ما الإنجليز أجبروه يتنحى ويرحل.. بس دي كانت تمثيلية.

- تمثيلية؟! يعني إسماعيل حيرجع تاني بعد ما اتنحى؟

ارتبك أسعد من سؤالها فتدارك معتوق الأمر قائلًا:

- ما تشغليش بالك يا ست أنهار كله محصل بعضه.. أحمد زي الحاج أحمد.

تجاوزت أنهار عدم فهمها، ولم تستطع كتم ضحكاتها لما فضحها فضولها برؤية البقعة الحمراء على ملابس أسعد جرجس، لكنه لن يفشي سرها مثلما لن تفضح هي سره، فهو من العشرة المستثنين في الكيف عندها ومعتوق ليس غريبًا، مثله مثل فارس وسراج وسعيد راديو، الاستثناءات زادت فلم تعد أنهار تحصي عددها، الكل يعرف أن أسعد يشتري الحلوى لحفيدته التي تعيش معه، لكن أنهار أشارت له على كرتونة الحلويات الثانية بعصاها ليتناول منها قطعة من الحشيش، دس أسعد يده في العلبة وقبض بأصابعه على قطعتين داعيًا:

- ربنا ينور بصيرتك كمان وكمان يا ست الكل.

اتسعت ابتسامتها وهي تقول ضاحكة:

- وماله يا خويا.. الحتة التانية من عندي يا راجل يا طيب..

- ربنا ما يحرمنا من كرمك وكراماتك.

- حنحتاجك قريب يا عم أسعد في مصلحة، عاوزين نجوز البت فريال بنت سوريال.

ضرب صدره بكفه عدة مرات مباركًا وهو ينحني لها وانصرف متجهًا لبيته رافعًا رأسه بكبرياء وعظمة، تاركًا معتوق مع دهشته التي تولدت من اللقطة الأخيرة، زواج فريال واعتباره مصلحة، استعصى الأمر عليه فذلك المشهد فاته من تحولات أهل العزبة عندما كان بالمستشفى، كل ما يعرفه معتوق أن أسعد جرجس هو أشهر كومبارس صامت في السينما والتلفزيون، دوره لا يتغير، وكلمة مسلسل تاريخي تعني عند أي مكتب ريجيسير أن أسعد له دور محدد مسبقًا بغير حاجة لقراءة السيناريو، باشا يظهر في حفل بخلفية المشهد وكأنه يتكلم مع آخرين، أو واقفًا في صف أول خلف البطل مباشرة ولا ينظر للكاميرا، وأحيانًا قادم يتصدر اللقطة يُحيي البطل بإيماءة من رأسه ولا شيء آخر، لم ينطق حرفًا أمام أي عدسة، ولم يلتفت له مخرج لزيادة مساحة دوره، يُخبره الريجيسير بموعد ومكان التصوير فقط، فملابسه لا تتغير منذ اشتراها.

فات معتوق أن هيئة أسعد جرجس وملامحه تشيان فعلًا بأصول عريقة، فاستعان أهل العزبة به في مناسبات الخطوبة والزواج، عشرات الأفراح أقيمت هنا بعزبة الوالدة وخارجها، ظهر فيها أسعد جرجس مع أسرة العريس أو العروس على أنه خال الأم عادة، كانوا يتفقون معه من باب الوجاهة والتفاخر على الأسر الغريبة عن العزبة وتريد النسب من أبنائها وبناتها. لا يهم المكان، مسجد أو كنيسة، قراءة فاتحة أو جبنيوت، المهم أن له أجرًا ثابتًا يتقاضاه مقدمًا، مئة جنيه عن المناسبة، صار بندًا متعارفًا عليه في مصاريف الزواج، ربما دخله من المناسبات أقل من السينما والتلفزيون، لكنه سيمارس هوايته فيها كما يريد، وتساعده على أن يتشبث بالحياة، يتكلم، ويلعب دور البطل، الأنظار كلها مُسلطة عليه وحده، هو النجم كل مرة، دور عمره الذي انتظره طوال حياته.

يضع أسعد جرجس ساقًا فوق أخرى في زيارة التعارف بين أهل العروسين، يحكي لهم عن تاريخه، والعزبة التي ورثها عن جده في أسيوط، عن ثروته التي ضاعت في بورصة القطن، وأمواله وعقاراته التي صادرها جمال عبد الناصر منه، ينزل ساقًا وهو يُبدي استنكارًا ويلوح بيديه في ضيق، شارحًا أنه لولا إيراد أفدنة الموالح المئة التي يزرعها، والقضايا التي رفعها على إدارة الحراسات أيام السادات لكان يتسول الآن، ثم ينشغل بإشعال غليونه ويمضي بقية السهرة في الاستماع للمدعوين والتقاط الصور معهم.

تتفاخر العائلات التي تناسب أقارب أسعد جرجس المزعومين بالنسب، يتنازلون عن بعض الشروط المالية التي تمسكوا بها قبل رؤيته وكادت تفسد الزيجة، وجوده وظهوره يُسرع من إتمام الإجراءات، الوجه السينمائي معروف للغالبية، والشهرة مُسكرة والثروة مخدرة. أحيانًا يسأله المدعوون عن نجوم السينما الذين يعمل معهم، فيروي لهم قصصًا من نسج خياله تجعل رأسه برأسهم في الجلسات الخاصة وخلف الكواليس، وإذا ما كان المزاج رائقًا يحكي عن غراميات أيام شبابه التي حلم بها مع بعض النجمات المتقاعدات.

يحين مشهد النهاية بعد عقد القران، فيبدأ طقس اختفاء أسعد جرجس، لا يزور أحد عزبته بأسيوط، ولا يتذوقوا طعم برتقاله الذي وصفه لهم بأنه في حجم حبة الرمان، وبالطبع لا يدخل مخلوق فيلا مصر الجديدة التي يتشمس كل يوم بحديقتها القبلية ويتناول فيها الشاي أحيانًا مع بعض الفنانين،

فهي لم تشيد إلا في خياله، ومع ذلك لم تقلل تلك الثغرة الواسعة في حبكة حكاياته من الإقبال على طلب خدماته.

الليلة استقر معتوق على وضع أسعد جرجس باللوحة، سيرسمه كما يعيش بدون رتوش، كومبارس في الحياة وفي السينما، لا يشعر بالحد الفاصل بينهما، حتى لو لم يظهر بلوحته فلن يلحظ أحد غيابه، فأسعد جرجس لا يعرف متى يمثل ومتى يكون شخصًا عاديًّا، حياته عبارة عن مشاهد محفوظة ومشاعر سابقة التجهيز، لكنه لا يكترث لذلك كله، كل ما يهمه في الحياة تأمين مستقبل حفيدته التي تعيش معه بعد فقد أبويها في حادث سير بكورنيش حلوان صدمتهما عربة شاب أرعن تمكن من الهرب، ومن أجلها صار يقبل أي دور يعرض عليه في السينما والحياة، حتى لو عاش طوال حياته ممثلًا.

*****

وضع معتوق الفرشاة وتنهد راضيًا، رسم ساق سراج البدوي ضخمة للغاية، ذكريات حياته كلها هنا.. في هذه الساق.. نقطة التحول الفارقة الأولى في مسيرته بسبب فقدها والثانية لوجودها.

الرابع من ديسمبر 1976، كان يومًا عاديًّا من أيام الشتاء التي مرت عليهما بعد الحرب، لكنه صار تاريخًا لم يعد نسيانه سهلًا، في هذا اليوم البعيد وضع معتوق في المتحف لوحة زهرة الخشخاش التي رسمها حتى صارت مع الزمن اللوحة الأصلية، وأيضًا يمكن اعتبار اليوم ذاته مولدًا جديدًا لسراج البدوي بصفته أول خريج لدفعة مُنادي السيارات في مصر.

"السيارة ترجع إلى الخلف".. ظلت الأسطوانة المسجلة تُعيد الجملة حتى أشار سراج بكفه لسائق العربة بالتوقف. أكثر من عشر سنوات مرت عليه في المكان ذاته، لم تتغير فيها هيئته كأنه يقاوم الزمن، ينافس جمود تماثيل إبراهيم باشا ومصطفى كامل وسعد زغلول في ميادين القاهرة، وقف هنا شابًّا وكهلًا، أكثر من ثلث حياته قضاه في ميدان الدوران، طوال هذه الفترة لم تتغير مهنته، ما تغير هم البشر والحجر من حوله، الاثنان في ازدياد قبيح، وجوه غريبة عن عزبة الوالدة بل عن

حلوان كلها التي يعرفها، ومبان ضخمة بلا مرافق مكتملة للإسكان الشعبي الذي يلقب بالفاخر ولا يسكنه أحد.

- اتأخرنا يا معتوق على معادنا والباشا منتظرنا.

استعجله سراج البدوي ليذهبا سويًّا إلى مصلحة الأمن العام بوسط القاهرة، فبعد سنوات من مراقبة البشر وتنظيم السيارات بميدان الدوران دمعت عينا سراج من الفرحة لأول مرة، فتح الجريدة من يومين فرأى صورة الضابط عزمي الأشرم، ترقى رئيس المباحث الذي جعله مرشدًا إلى رتبة اللواء، صار مساعدًا لوزير الداخلية ومديرًا للأمن العام، ذهب سراج مباركًا مهنئًا، لم ينتظر طويلًا بالاستراحة مثلما كان الحال بالقسم، سمحوا له بالدخول على الفور ومعتوق خلفه مندهشًا، قدمه اللواء عزمي لمعاونيه باعتباره "وش السعد"، أول من عمل في مهنة المنادي كمصدر سري، المهمة التي رُقي بسببها عزمي الأشرم لكفاءته وابتكاره تلك المهنة الغريبة.

حفاوة استقبال اللواء عزمي شجعت سراج، فطلب ترخيصًا بالكشك لمرة أخيرة، وعده اللواء خيرًا كالعادة، وأعطاه مئة جنيه مكافأة بلا سبب واضح، غسل اللقاء مؤقتًا عتاب السنوات العشر الماضية، وساهمت الجنيهات المئة في إزالة ما علق بها من شوائب، لكنه في الوقت ذاته أثار شجون أيام التجاهل، فكان من الطبيعي بعد اللقاء أن تتقلب الأحوال، قررت طليعة الدفعة الأولى للمنادين المرشدين الخروج عن طوعه، التمرد على صانعها، وبدأت تطالب بأبسط حقوقها.. ترخيص الكشك.

يعرفون في غالبية أقسام البوليس أن كل مُرشد له نقطة ضعف فيعزفون عليها ببراعة، وسراج يدرك ذلك لكن الملل تسرب إلى نفسه من تكرار اللحن، فعاد لميدان الدوران وهو لم يدخر قرشًا لليوم الأسود والمئة جنيه طارت وتصريح الكشك لم يصدر، أيامه تزداد سوادًا واللواء عزمي الأشرم رفض مقابلته في مرات تالية، ويوميته لا تزيد على بضعة جنيهات لا تكفيه، كل ما استطاعه هو العصيان المدني، لكنه غفل عن أن الحكومة لا ذراع لها لكي يلويه أحد، ففوجئ بضبطه بتهمة بيع الحشيش.

فتشه أمين الشرطة فلم يجد شيئًا ومع ذلك اصطحبه للقسم، هناك وجد ضابطًا جديدًا للمباحث ففهم أن ظهره كُشف، طلب منه سراج في ثقة الاتصال باللواء عزمي الأشرم، ابتسم معاون المباحث

ابتسامة صفراء وهو منشغل بتقليم أظافره قائلًا دون أن ينظر إليه:

- اقلع رجلك الخشب يا روح أمك بدل ما نقلعك ملط.

من يومها أدرك سراج أن الكشك صدر له قرار إزالة من نياتهم، سيعود مجبرًا للعمل كمصدر سري بعدما رغب في التقاعد، وعلى مشارف دَسّ قطعة من الحشيش بتجويف ساقه الخشبية تمهيدًا لتلفيق قضية له على جُرم لم يفعله بعد.. لكن الشرطة ترى الحقيقة من زاوية أخرى.. "سهلة يا عم سراج" كما قال له الضابط وهو يودعه بالابتسامة الصفراء ذاتها التي استقبله بها بعدما انتهى من تقليم أظافره كلها. خرج سراج من القسم يومها وهو ينظر لنصف الكوب الملآن متأملًا ساقه الخشبية، أعطوه فكرة مجانية باستغلالها وتطويرها لصالحه، خاصة وأنه سبق أن مارسها كهواية عندما كان معتوق بالمستشفى، فلماذا لا يحترف ويجعل من ساقه مخزنًا متنقلًا آمنًا للحشيش لن يكلفه شيئًا؟

لم يكن سراج في حاجة لكي يقنعه أحد، الإجابة بعقله مكتوبة بنعم منذ خرج من القسم، اتسعت ساقه لتسع فِرش حشيش عريضة كبيرة كل مرة، النقل يوميْن أسبوعيًّا من وادي حوف لحلوان على عربة كارو قديمة محملة بالكثير من الخضراوات الطازجة، على خطى المعلم غالي كما قال معتوق، مع الوقت أفلح العمل الإضافي الجديد في تحسين أحوال سراج المادية حتى نسي الكشك مؤقتًا رغم أنه لا يزال مشيدًا بعقله.

وقف معتوق أمام لوحته حائرًا، هل يبني لسراج كشكًا فيها، أم يكتفي بساقه الكبيرة التي صارت مخزنًا لكل ذكرياته؟!



17

أسدل الليل ستائره وقاومت العزبة الظلام بمصباح يتيم بدون غطاء زجاجي، بعد الغروب بساعة توقفت عربة نصف نقل أمام مدخل الحارة التي يسكن معتوق في منتصفها، أنزل العمال صندوقًا كبيرًا منها، حمله اثنان منهما بعناية وسط توجيه وإرشاد من شاهين ومعتوق حتى استقر بداخل غرفته. منذ وصلت السيارة وحتى صعود الصندوق لسطح البيت متجاوزًا ثلاثة طوابق والمباركات لم تتوقف من المواطنين، مهنئين معتوق على شراء غسالة ملابس جديدة، أما في داخل الغرفة فقد قبع الصندوق بين شاهين ومعتوق المتلهفين لفضه، كأنهما آثاريان على وشك اكتشاف مقبرة ملك من ملوك الفراعنة.

ظهرت الطابعة الألمانية المتوسطة وألواح الزنكوغراف تلمع بها، كانت عصا الدوران مفكوكة، فقام معتوق بتركيبها دون الاستعانة بكتيّب التشغيل، يحفظ كل قطعة فيها كأنه صانعها، انتهى في وقت قياسي من إعدادها للتشغيل المبدئي، لكن راعه ارتفاع صوتها بصورة مقلقة، فأسكتها بعدما هرول شاهين ناحية النافذة مطلًّا في قلق ليطمئن أن صوتها لم يوقظ نائمًا.

جلسا مطرقين شاردين بجوارها كأنهما يزوران مقبرة فكرة ماتت عقب ولادتها فجأة، قرب منتصف الليل تركه شاهين محبطًا لا يجد حلولًا، قام معتوق متكاسلًا من جلسته على الأرض، راح يتثاءب وهو يطقطق عظامه المتيبسة، أدار الماكينة مرة ثانية لكنها لا تزال تصدر صوتًا عاليًا أثناء تشغيلها، حاول لبضع ساعات فك صواميل وربط أخرى، وضع أوراق كارتون وقطع فلين بها، لكنه لم يفلح في إسكات الصوت المزعج. قبل أن يخلد للنوم أدار الراديو ليريح أعصابه على أنغام الموسيقى، لكن صوت الماكينة ابتلعه، راح يرفع الصوت أكثر وأكثر حتى غطى عليها وغلبها. كاد يقفز كأرشميدس وهو يصيح.. "وجدتها.. وجدتها"، أقسم ليلتها أن يرسم لوحة كبيرة للسيدة أم كلثوم صاحبة الإلهام العظيم بعدما كان يستمع لأغنيتها الشهيرة "للصبر حدود".

منذ هذا اليوم بات معتوق يُعرف في عزبة الوالدة بعاشق السِّت، صارت الفكرة رمزًا وعلامة وربما حكاية تروى لأجيال قادمة، راح يُشغل أغانيها مساء كل خميس حتى مطلع الفجر، بعدما اشترى سماعة مكبرة للصوت وضعها على السطوح أمام باب غرفته، اعتاد أهل العزبة على سماع الحفل الساهر، وصاروا ينتظرونه بشغف مثلما كان جمهور السِّت يتشوق لحفل الخميس الأول من كل شهر، لكن معتوق تفوق بجعلها حفلة أسبوعية، إيرادها بدأ بألف جنيه يطبعها كل مرة، فزادت قاعدة جماهير الطرب الأصيل.

*****

أدار مفتاح الصوت ورفعه ، كان الرئيس مبارك يتحدث في البرلمان مكررًا كلمة " ماعنديش" ، مؤكدًا على عدم وجود وسيلة أخرى لديه كي يعطي إلا أن يأخذ من الأغنياء ليطعم الفقراء ويخلق لهم فرص حياة جديدة، فأغلق معتوق الراديو مطمئنًّا .

بدأ الأمر بفكرة عابرة خيالية، يعرف معتوق ملامحها المبدئية لكن نهايتها مشوشة، وما بينهما خيالات غير واضحة، صور مهزوزة لأطياف شخصيات لم تكتمل في ذهنه، ومع ذلك شرع في الرسم مبحرًا في عتمة الدهشة لأول مرة، مستمتعًا بالبحث عن باقي أبطال اللوحة فوجدهم ينيرون الطريق له، وكلما توغل زادت متعته، جذبته الفكرة، وبعدما كان الهدف رسم لوحة ومضت فكرة الجمعية ليعيد رسم شخصياتهم في الواقع، في كل يوم يمر عليه كان يجد شخصية من الجمعية السرية للمواطنين تُناديه، تُلح على تفكيره وتضغط على عقله لتتحرك فرشاته، شغلته التفاصيل والملامح واللمحات الغريبة في حياة كل منهم، تحولاتهم من ماضيهم الغريب لمستقبلهم المبهم، أسهبت كل شخصية في وصف نفسها له شارحة طموحاتها وآمالها البسيطة، هامسة في أذنيه بما يغريه لتجسيدها في لوحته، لم تنتظر رأيه وظلت تلح وترجو الخروج على الورق، ولما رسمها راحت تحترق شوقًا بكواليس عقله منتظرة لحظة دخولها خشبة مسرح الحياة، فأذن لبعضها مترددًا، لم يكن معتادًا على التفكير بهذه الطريقة، لكن لم يُخيب المواطنون توقعاته، وبعضهم أدهشه لما أثار خياله، ووجد أن البعض الآخر يصلح بطلًا للوحة بمفرده لكنه لم يشأ بتره من

اللوحة الأصلية، وبعدما قرر أن يكون دور الغالبية منهم ثانويًّا ليضبط به إيقاع لوحة تصوره كبطل وحيد وهم من حوله، عدل عن فكرته ومنحهم دور البطولة مثله.

الآن هو صانع السعادة، صاحب البهجة، الذي يبث الطمأنينة، الصندوق الأسود لأهل عزبة الوالدة، لكن لو تكلم واحد منهم لفقد معتوق سطوته وقوته، صار بإمكانه أن يجعلهم أكثر ثراء إذا ما بسط يده كل البسط، لكنه أراد أن يعيشوا مستورين لا يمدون كفوفهم لأحد، يجدون قوتهم كل يوم ولا ينامون بغير عشاء، لا يريدهم يحيون قلقين من فقر ومرض وعوز، وفي الوقت ذاته يرد لهم الجميل عندما شكلوا جمعية فيما بينهم للإنفاق على ابنته بعد موت المعلم غالي. غالي نفسه له دين في عنقه لم يرده بعد، وكان لا بد أن يسدده لأنهار ومن بعدها لابنهما مينا الذي صار مراهقًا. لكن سنه دون الثامنة عشرة فلم يشأ معتوق ضمه للجمعية.

أخذ قرار تكوين جمعية سرية للمواطنين وقتًا كافيًا من معتوق في التفكير والتدبير، امتد لشهور طويلة جاوزت العام بكثير، شكّلها برئاسته لكنه عيّن شاهين والي المحامي نائبًا له ومستشارًا قانونيًّا للجمعية بالإضافة لعمله، وتولى سراج البدوي مهام منصبه كمندوب للتحصيل، أما شاكر الجهيني ساعي البريد فشغل منصب أمين الصندوق ومسؤول الحالات الحرجة، في حين احتفظ فارس عودة لنفسه بمنصب مدير الحسابات والمراجعة، واكتفى زكي الساكت بالإشراف على مشاكل الأسرة.

لم يكن معتوق في حاجة لوقت طويل لإقناع المواطنين من أهل العزبة بالانضمام لجمعيته، رغم أنه تحدث مع كل منهم على انفراد، اختار من رسمهم باللوحة.. فوافقوا وكأنه يرسمهم في وضع جديد لمرة ثانية بالحياة، سهولة موافقتهم بدت أشبه بمن كان ينتظر العرض ليومئ برأسه موافقًا، كان يظن أنه سيدخل حقل ألغام فتحسس طريقه، ثم اكتشف بعد خطوات قليلة أنه يمرح في غيط برسيم تنحني العيدان لينة تحت قدميه وتفسح له الطريق لينطلق. فقط شاهين الذي كان متحفظًا في البداية لكن معتوق أقنعه بمنطقه، وكيف صار محاميًا شهيرًا بسببه، أما الباقون فقبلوا وكأنهم خطوط طيعة في لوحة يرسمها، لا أحد منهم لديه رفاهية رفض منحة شهرية أو أسبوعية، أو حتى سلفة لا ترد كلما احتاج إليها، ولا أحد منهم بغير خطيئة ليرمي جمعية معتوق السرية بحجر ويرفضها.

صار فتحي السماوي وأنهار وعبده العربي وسعيد راديو وأسعد جرجس أعضاء بمجلس الإدارة، يواظبون على الحضور ويصوتون على القرارات ويقبضون ما يحتاجون إليه في المقابل.

عقدت أولى جلسات الجمعية بالتزامن مع ترشح الرئيس مبارك لفترة ثالثة وفق الدفاتر التي يحتفظ بها معتوق، وبعد مرور أكثر من عشر سنوات على وعد الرئيس السادات لشعبه بعام الرخاء الذي لم يتحقق في عهده، واحتفالًا بتأسيس الجمعية صرف لكل منهم مئة جنيه تحت بند مكافأة حضور، ثم صارت الاجتماعات بعدها تعقد شهريًّا في اليوم الأخير من كل شهر، موعد ثابت لا يتغير بمكتب شاهين والي الجديد على كورنيش المعادي، خُصصت غرفة رحبة لاجتماعاتهم، وأنشأوا دفاتر منتظمة لتدوين ما يدور فيها وملفات لحفظ قراراتها، تولى فارس مسؤولية متابعة تنفيذها، ثم تودع بعد انصرافهم في خزانة ضخمة بالمكتب، وإذا ما كانت هناك حاجة لجمعية عمومية غير عادية دعاهم معتوق إليها، تلك هي الحالة الوحيدة التي تشدو فيها كوكب الشرق بأغنية لا تذاع أبدًا إلا للجمعية غير العادية.. قصيدة "أغدا ألقاك" تشدو بها الست عبر السماعة المكبرة، فيعرفون أن موعد الانعقاد في الثامنة مساء اليوم التالي.

منذ الاجتماع الأول اتخذ معتوق قرارًا وافقوا عليه بالإجماع، تخصيص خمسمئة جنيه إعانة شهرية ثابتة لمساعدة المواطنين من أعضاء الجمعية، أسماها شاكر الجهيني ساعي البريد بمعاش معتوق، أسوة بمعاش السادات الذي قرره الرئيس قبل رحيله لكنه مضاعف خمس مرات بسبب التضخم، أعجب معتوق بفلسفة شاكر، وقرر أن ينول رضا الرب مثل الرئيس المؤمن، الوحيد الذي سجل اعتراضه على المسمى رغم موافقته على المنحة كان فارس عودة، الذي يهاجم بشراسة كل ما لا يرتبط باسم جمال عبد الناصر، أو أبو خالد كما يحب أن يسميه.

بعد مرور عام على اجتماعات الجمعية السرية اقترح سعيد راديو ترشح معتوق في دورة الانتخابات القادمة لمجلس الشعب بدلًا من غريب أبو إسماعيل، تحمس فارس للاقتراح مؤكدًا أنهم طوال خمس سنوات فائتة لم يروا وجه غريب سوى مرة واحدة، ابتسم معتوق ولم يعلق، لديه شك يرقى لمرتبة اليقين أن غريب يعرف بأمر الجمعية، وأنهم يطبعون النقود المزورة ليعيشوا في بحبوحة مؤقتة وهو ما يناسبه ويرضيه، فلا مشاكل من أهل الدائرة ولا طلبات لهم، وربما يكافئ البرلمان غريب باعتباره النائب الوحيد الذي لم تشكُ دائرته شكوى واحدة طوال فترة الانعقاد. بنى

شكوكه على سكوت غريب المريب عنه طوال تلك الفترة، وعدم تهديده مثلما كان الحال قبل تأسيس الجمعية، وكأنه يبارك تلك الخطوة من المواطنين حتى ولو كانت سرية.

*****

أحيانا يتقلب الطقس فيرى المواطنون الفصول الأربعة في نهار واحد. بعد ثلاث ساعات ونصف من مناقشات حامية انتهى اجتماع جمعية عمومية غير عادية، دوّن معتوق ملاحظات صغيرة على هامش المحضر الذي وقّع عليه جميع الأعضاء عدا فارس، الذي اعترض على صرف منحة عاجلة لفتحي السماوي لمساعدته في التخلص من الكلاب الضالة بعد رفض الجمعية بالأغلبية لتمويل مشروعه الجديد، ربما يكون فارس على حق لأول مرة، لكن فتحي السماوي أيضًا يملك بعض المنطق، وراح يحاول إقناعهم به في مجلس الإدارة. منذ فقد فتحي ابنه عصمت بسبب تناوله للحوم مسمومة مخصصة للكلاب وهو حريص على ألا تفقد ابنته الوحيدة حياتها بسببه، لم يسامح نفسه بعد، ولا يزال يعيش بتأنيب ضمير يحمله فوق كتفيه مثل جبل من ذنوب لا تنقص. بدأ بالتكفير عنها عندما أنجب ابنته وأسماها على اسم ابنه المتوفى، كبرت البنت وأحبت الكلاب، ظنت أن أباها يصطادها لتضعها الحكومة في حديقة الحيوانات، ألحت عليه لكي يقتني لها واحدًا منهم، وما بين حيرة البوح بسر المهنة وضعفه كأب ناحية مشاعر رقيقة من ابنته الوحيدة، اختار السماوي جروًا مولودًا لأحد كلاب العزبة المشهود لهم بالطيبة والوداعة، ثم طلاه بلون أحمر قانٍ ليسهل التعرف عليه إذا ما ابتعد عن البيت وقت غياب ابنته بالمدرسة، فلا يُطلق عليه النار نهارًا أثناء عمله أو يضع له زميله السم بغتة في الليل، حاول تدريبه على البقاء أمام البيت وعدم الابتعاد عنه، وعندما لم يجد الكلب ما يُغريه بالبقاء في عزبة الوالدة تكررت مرات هروبه، وظل لونه يفضحه كل مرة، فيعيدونه قرب الحدود مع المعادي بسهولة مجبرًا، حتى سئم الكلب الهروب.

احتارت الفتاة الصغيرة في تسمية الكلب حتى أسماه فتحي "عناب" نسبة للونه الجديد، فاقت شهرة الكلب كثيرين من سكان العزبة، حتى صار علامة من علاماتها، وعند السؤال عن منزل فتحي السِّماوي موظف البلدية يكفي أن تشير نحو كلب أحمر ضخم يسير ببطء ويتشمم الأرض في امتعاض، ثم يفترش مكانًا بمدخل بيت قديم من دورين، لتدل السائل على العنوان بدقة.

- اللحمة جاهزة يا سي فتحي

قالتها زوجته وهي تضع الأطباق على طاولة خشببية صغيرة، لكن فتحي لا يزال شاردًا، موضوع المنحة العاجلة التي تقدم بها للجمعية السرية يشغل كل تفكيره، روى لهم حكايته وبات ينتظر موافقتهم، بعدما أجلوا نظر التماسه لعدم اكتمال النصاب القانوني للتصويت، يعرف أن العُقدة وضعها فارس والكل يحترمه لكبر سنه، ولو وافقوا سيطلبون منه العمل بعيدًا عن عزبة الوالدة .

ظل يحملق في وجه ابنته عصمت وهو يحاول إفلات نسيلة لحم علقت بين أسنانه أثناء التذوق، هو أول من يضع قطعة اللحم في فمه، ينتظر بعدها لدقيقة، فإذا لم تظهر عليه أعراض السُّم، ينادي أهل بيته ليأكلوا معه، لعبة موت يلعبها كل مرة مضطرًا، كمن يضع مسدسًا قرب رأسه ويضغط الزناد مترقبًا خروج الطلقة أو النجاة. عاد لشروده، المنحة يحتاجها لبدء مشروعه الجديد الذي اقترح أن تموله الجمعية لزيادة مواردها، مع الاحتفاظ بعمولته أو تعيينه مديرًا له، فكرته التي قوبلت بالرفض كانت تجميع الكلاب الضالة وإيداعها مجزر السلطان قرب مجمع المدارس، تمهيدًا لذبحها بمعرفة جزار وافق على مشاركة فتحي في مشروعه المستقبلي، بيع لحوم الكلاب لبائعي الكبدة ومحلاتها، ربح مضمون، وفي الوقت ذاته يضمن إنجاز عمله أمام رؤسائه بالتخلص من الكلاب في حلوان كلها، لم يجد لنفسه حلولًا أخرى، ولو قضى عمره يقتل كل كلاب الأرض فلن يتحصل على ربع هذا المبلغ الذي سيكسبه من مرتبه أو من المنحة الشهرية التي تقدمها الجمعية السرية، رغم أن معتوق يرفعها سنويًّا مع ارتفاع الأسعار ورفع الدعم عن بعض السلع.

ما زال يأمل في موافقتهم على منحة التمويل للمشروعات الصغيرة، مثل ماكينة الخياطة التي وافقوا عليها لأنهار وبعض قطع الغيار الكهربية لسعيد راديو، وحتى يطمئنوا وتتبخر هواجسهم كتب لهم تعهدًا بعدم بيع الكلاب المذبوحة بدائرة حلوان كلها، رغم يقينه أن لحم كلابه الضالة أفضل بكثير من تلك القطط المذبوحة والمجمدة التي يبيعها لهم مطعم الإيمان الشهير بعزبة الوالدة.

خرج من شروده لما مدت ابنته عصمت يدها لقطعة لحم وتعلق بصرها بعينيه تنتظر موافقته.. أشار لها بتناولها وعينه تدمع في صمت على موقف مشابه منذ أكثر من عشر سنوات عندما فقد ابنه عصمت، لا يزال يتفادى تذكره، لكنه لا يفلح كل مرة.



18

فلسفة عبده العربي في الحياة أن كل مواطن قد يضطر للسرقة، لكن أشرف السرقات التي تكون للستر فقط، يسرق ليملأ بطنه بالطعام، وينتقي من الملابس المسروقة من البيوت ما يناسب مقاساته، ثم يبيع ما لا يحتاجه في وكالة البلح، يمر على المنازل قبل الفجر بساعة والناس يغطون في نومهم، يختار بعناية من يتركون ضلفتي الشيش مفتوحتين لدخول قدر من الهواء، يفضل الأدوار الأرضية لكن لا تستعصي عليه العليا منها، لا يزال قادرًا على تسلق المواسير كفأر، يعرف طريق الثلاجة بالفطرة، يختار بعض الطعام وقطعتين من الملابس ثم يخرج من الباب متعمدًا تركه مفتوحًا، ليوجه شكوكهم نحو إهمالهم بعدم غلقه جيدًا قبل نومهم، وأحيانًا يقوم بمغامرات غير محسوبة، أشبه بخدمات ما بعد البيع التي تقدمها المحلات الكبرى.

يتذكر معتوق تلك الحكايات على هامش اجتماعات مجلس إدارة الجمعية السرية، ويذكر عبده العربي بها ليحكي تفاصيل تلك الخدمة التي يقدمها لأصحاب البيوت المسروقة، يظهر الفخر بوضوح من نبرة صوت عبده ولمعة عينيه الجاحظتين وهو يحكي عن ملابس لم يستطع بيعها بسبب حالتها المتردية، وتلك التي تخص أطفالًا ولم تكن ملائمة له لكن السوق مُشبع بمثيلاتها، صحيح هو ضئيل لكنه يرتدي مقاسًا يناسب فتى في الرابعة عشر من عمره لا طفلًا على مشارف السابعة، وفي عتمة الليل ورهبة دخول المساكن خلسة لا يوجد وقت لرفاهية الانتقاء والقياس، وقتها تبدأ خدمة ما بعد السرقة، يتسحب كقط جائع خطط جيدًا لاختلاس طعامه بغتة حتى يصل للبيت المنشود، يضرب مزلاج الشيش ضربة واحدة مكتومة بخفة تدرب عليها في مسكنه، ينتظر برهة لسماع النفس المنتظم ثم يدحرج صُرة الملابس بهدوء وينصرف من الشباك كما دخل.

"بابا نويل" مَحلي، يحمل خاتم صنع في مصر، فقط في مصر.

يضحك عبده مختتمًا حكايته بسؤاله الشهير:

- عمركم سمعتم عن حرامي اتقبض عليه علشان بيرجع اللي سرقه؟

مثل ملايين غيره لا تراهم الحكومات المتعاقبة بعين الرعاية كان عبده العربي، مجرد شهادة ميلاد وبطاقة شخصية، وبعدها ينتظر تصريح دفن وشهادة وفاة، أما ما بينهما من حياة فهي على مسؤوليته الشخصية. مؤخرًا أعلن توبته عن السرقة أمام مجلس إدارة الجمعية السرية للمواطنين بعدما أقنعه معتوق بها، واعدًا إياه بمهنة جديدة أشرف، لا تتعارض مع فلسفته وتستخدم منهجه، وفي اليوم ذاته أطلق عليه فارس اسم شهرته الذي صار يعرف به الآن.. "عبده شَنكل". وقتها نظر له فارس بإمعان وهو يتفرس في جسده الضئيل ثم قال بعدما سحب نفسًا قصيرًا من سيجارته:

- اسمك مش جذاب، عادي، في منه كتير ومش لايق عليك. إنت من النهاردة عبده شنكل.

لعبده شنكل مكان بارز في لوحة الجمعية السرية للمواطنين، عندما رسمه معتوق يمتطي حصانًا بأجنحة ويطير به نحو السماء، ربما أصدق لقب يليق بشنكل هو ابن الريح، لا يستطيع الجلوس ساكنًا لفترة طويلة، بالكاد تتلامس مؤخرته مع السَّرج وسرعان ما يرفعها، لكنه قليل الحظ، سقط من فوق فرسه ليركب حصان خياله فقاده للجريمة.

انتهى اجتماع الجمعية واستلهم معتوق من الحكايات وشكاوى بريد شاكر الجهيني فكرة جديدة، كان منشغلًا منذ فترة بتوسيع نشاط الجمعية وحجم استثماراتها بعزبة الوالدة لصالح المواطنين حتى جاءته الفكرة، فقرر المغامرة بتنفيذها وحده دون العرض على مجلس إدارة الجمعية، بعدما راقب عبده شنكل من بعيد شهرًا كاملًا وهو يدخل البيوت من شبابيكها حتى شعر أنه تعلم الصنعة واكتفى.

*****

ضرب معتوق الشنكل برفق كما تدرب عشرات المرات بغرفته، دفع الشيش بهدوء وقفز داخل الحجرة المظلمة، دقات قلبه تتسارع وتسبق لهاثه، ارتكن بظهره إلى الحائط حتى انتظمت أنفاسه ثم دسَّ يده في جيبه ليبدأ مهمته الليلية لأول مرة، في تلك اللحظة سطع نور الغرفة فجأة، تحولت العتمة الساترة إلى نهار فاضح، وجد أمامه رجلًا ضخمًا، أصلع الرأس عاري القدمين، يرتدي

كلسونًا باهتًا وفانلة بأكمام طويلة ربما كانت بيضاء هي الأخرى، شهق صاحب البيت لكنه لم يصرخ ولم يستغث، تلاقت نظراتهما في دهشة مُحملة بعشرات الأسئلة، بكل أدوات الاستفهام، وجميعها بلا إجابة. ارتعشت يد معتوق في جيبه ثم أخرجها ببطء، بينما عينا الرجل الأقرع مثبتة عليها، بدا صاحب البيت خائفًا عندما فضحته حبات عرق راحت تتلألأ على جبهته كزينة شهر رمضان بالساحات الشعبية، فتح معتوق الظرف الذي أخرجه من جيبه، لتبدو الأوراق المالية فئة العشرين جنيهًا بارزة بوضوح، مد يده بها نحو الرجل الذاهل، راح معتوق يحثّ الرجل بنظراته كي يقبل الثروة الهابطة عليه من السماء، لكن الرجل تخشب مكانه.. لم يتوقع ما يراه، وكأنه يستكمل كابوسه عندما نام ليلتها نومًا قلقًا وتقلب مرات عديدة في فراشه، بسبب عجزه عن سداد القسط الثالث لمدراس أولاده، وفي إحدى تقلباته كانت مثانته قد امتلأت عن آخرها وأوشكت على الانفجار، ولما نهض متكاسلًا لإفراغها تعثر في معتوق بحجرة الصالة، راحت الحَصرة وحَلت الرَّجفة، ظنه الرجل لصًّا مع أن معتوق لا ينوي السرقة، فقط أراد توصيل خدمات الجمعية لمن يستحقونها ببيوتهم على طريقة عبده شنكل.. وما بين رهبة الموقف وغرابة التصرف لم تستطع المثانة الصمود أكثر، فوجدها معتوق فرصة سانحة للهرب مع القطرات الأولى التي انسابت بهدوء، تاركًا الرجل يُغرق كلسونه وقدميه في مكانه.

قبل هذا اللقاء الغريب بنحو شهرين تولدت لدى معتوق فكرة مساعدة أهالي العزبة من غير أعضاء الجمعية، لكن دون ضمهم لمجلس الإدارة، أو حتى معرفتهم بمصادر التمويل، حرصًا على السرية التي تميز اسم الجمعية ونشاطها، لكن بعد تلك المحاولة كانت المرة الأولى والأخيرة التي يمارس فيها معتوق عملًا لا يمتلك مهاراته، لم يغامر مرة ثانية بدخول شقة مواطن، وقرر إعطاء العيش لخبازه كما نصحه شنكل نفسه، وفي اجتماع مجلس الإدارة التالي مباشرة اقترح معتوق تعيين شنكل مندوبًا لتوزيع نقود الجمعية السرية على أهل العزبة استغلالًا لمواهبه، فوافقوا بالإجماع.

صار لدى شنكل عمل جديد، يضرب مزلاج الشيش ثم يلقي مظروفًا منتفخًا بالأوراق المالية التي يسلمها له شاكر، وينصرف معتقدًا أنه غسل ذنوبه كلها. ورغم أنه لم يضبط وقت السرقة إلا أنه صار مشبوهًا لدى الشرطة في أيام توزيع الصدقة، عندما لمحه المخبرون وهو يتسلق المواسير في بعض المرات، راحت الشرطة تتحرى عنه بعدما نجح في الإفلات منهم كل مرة، لكنه بات في حيرة من أمره، فلا أحد يقدم بلاغًا عن رجل يضع نقودًا بمساكنهم، وهو توقف عن السرقة وتاب. دارت الأفكار برأسه حتى اختار عقله منها أن الجريمة إذا كانت خطيئة فإهدار الحياة وترك ما

يُريحه خطيئة أكبر، ولا مخرج بينهما سوى ما يفعله في صمت، لكن رئيس مباحث حلوان كان له رأي آخر.

*****

صار القدر صاحب دور ثانوي في مقالات رؤساء التحرير وعناوين الصحف الحكومية، مجرد ظهور عابر لا يلتفت له أحد، بينما البطل الأوحد هو الرئيس وحكمته وثبات أعصابه وحسن تصرفه، عندما شعر بمحاولة جادة لاغتياله صاح في سائقه ليدور عائدًا إلى مطار أديس أبابا ومنها إلى القاهرة وكأنه كان في نزهة.

طوى معتوق الصحيفة وألقاها بسلة قمامة المتحف، اليوم الذكرى السنوية لزيارة لوحته "زهرة الخشخاش" ولم يعد راغبًا في قراءة ما يعكر مزاجه قبلها، رغم أن الطقوس لا تتغير، يصل للمتحف مبكرًا، يقف أمام لوحته ربع الساعة في قداسة، ثم يتجاذب حديثًا قصيرًا مع أحد الزائرين إن وجد، يخبره بشكوكه في كونها مقلدة، ليتلقى دهشة واستنكارًا لا يتغيران وكأن رواد المتحف يتسلمونها وهم يشترون تذكرة الدخول. يهز رأسه راضيًا عن الإجابة وتنتفخ أوداجه، يصير ممتلئًا بالرضا والزهو ثم يمضي في طريقه مغادرًا.

هذه المرة قرر تعديل مسار الزيارة، عرج إلى غرفة مدير المتحف، وقف ببابها يتطلع إليه وهو يوقع أوراقًا حكومية بالعشرات في عجالة، فلما انتبه المدير لوجوده هاتفه معتوق بنبرة واثقة:

- صباح الخير.. بالمناسبة لوحة الفنان أحمد مرسي في الدور الأول مقلدة.

ظل المدير يحملق في وجه معتوق وكأنه ينصت لصوت ضميره فأردف:

- مرسي كان بيوقع في الستينيات بالعربي، بيكتب اسمه بالكامل في كل لوحاته الأولى، لكن بعدما استقر في فرنسا اكتفى بحرف اسمه الأول مع كتابة اسمه التاني باللاتيني. مقتنياتكم مزورة يا سعادة البيه أو بتتقلد وانتم نايمين على ودناكم.

فرغ معتوق من كلامه وانتظر برهة حتى يرى الدهشة وهي تغرق وجه المدير وتعوق حركته ليكمل:

- أما زهرة الخشخاش فكان لازم تعملوا لجنة تفحصها وتمرروا اللمبة عليها علشان تتأكدوا من كونها قديمة، ما ينفعش تكذبوا علينا وتقولوا إن بروازها الأصلي موجود فيها لما رجعت، لأن الأصلية اتخلعت من البرواز والمقلدة اتحطت مكانها وأنتم عارفين إنها رجعت من غير برواز زي ما خرجت، ولو مش مصدقني شيل اللوحة حتلاقي اتنين سنتي في كل ناحية محشورين في الحروف لأن أي قطع لازم يسيب أثر. وإن شاء الله الزيارة الجاية أحكيلك عن بقية اللوحات. سلامو عليكو .

أنهى معتوق حكايته تاركًا المدير حائرًا كشهريار، لا يملك قطع رقبة معتوق، وربما ينتظر منه بقية الحكاية أو الحكايات، لكن معتوق سكت عن الكلام وانصرف في هدوء دون أن يعترضه أحد، بعدما وحدت المفاجأة المدير مع كرسيه الذي تخشب فيه حتى التصق به.

*****

زمجرت أصوات عالية رجفت لها السِّت أنهار وهي جالسة بشرفتها تبيع الحشيش في اطمئنان، ظهرت أنوار ثنائية كثيرة تومض وتنطفئ، عشرات الجنود بملابس سوداء كأشباح، يهبطون من بطن عربة كبيرة، حصان طروادة الذي اطمأن له أهل العزبة لحراستهم ففوجئوا به يطاردهم.

- لمي الفرشة بسرعة يا ست أنهار واقفلي الشيش.. الحكومة عاملة كبسة على العزبة كلها.

قالها صبي مرَق أمام شرفتها كومضة، نهضت تاركة خلفها قفص الجريد المقلوب وعُلب الحلوى الملونة المتراصة عليه، جمعت أنهار الحشيش كله في علبة واحدة احتضنتها، وضعت كفها على صدرها لتتأكد أن نقودها في أمان، تحسست الجدران في طريقها لحجرتها، وأصوات الدبيب تعلو من خلفها حتى جبنت عن الالتفات. ظلت كامنة في حجرتها ترتجف، رئيس مباحث حلوان أغار على العزبة بصورة مفاجئة ولا تعرف ما الذي يبحث عنه، مخدراتها التي تبيعها، أم نقود الجمعية

المزيفة التي يطبعها معتوق، أم كلاب فتحي السماوي التي يبيع أكبادها؟.. الجرائم كثيرة، والضابط يكفيه الإشارة نحو أي مواطن من أهل العزبة ليضمن جريمة كاملة.

حشد الضابط قواته وراحوا يزأرون بعدما أطلقهم من السيارة فهرولوا متعطشين، لا يدرون مثل بقية أهل العزبة أنهم يطاردون يومها فأرًا مذعورًا اسمه عبده شنكل، ابتعدت الأصوات حتى سكنت ثم علا صوت رجل توحي نبرته أنه الضابط، نادى على عبده شنكل ثم سمعت أنهار صوت معتوق يسعل، وشاكر يتحدث بلباقة مع الضابط العصبي، بعدها هوت صفعة هائلة على وجه أحدهم، ظهر صوت شنكل مرة ثانية وهو يقسم بأغلظ الأيمان إنه لم يسرق شيئًا ففهمت أنه الذي صُفع.

لملمت شجاعتها بالكاد وتحاملت على نفسها متكئة على فضولها وصعدت للسطح، منحتها إعاقتها جواز مرور من كردون العساكر الذي شكل دائرة معوجة يقف وسطها عبده شنكل بسطح البيت حيث غرفته القريبة من غرفة معتوق وتتوسطهما غرفة شاكر، يكاد شنكل ألا يُرى من بين يدي الضابط الضخم الذي بدا مثل نسر قبض على فرخ صغير تائه وتأهب لالتهامه.

تشجعت أنهار وتقدمت بجرأة لم تتوافر لدى رجال العزبة، راحت ببساطة شديدة تنزع الملابس المنشورة فوق الحبال بالسطح وتلملمها في هدوء دون أن تتبادل حرفًا واحدًا مع الموجودين. تابعوها بدهشة كأنهم يشاهدون حاويًا ينوي إخفاء ما جمعه بعد قليل، تنبه الضابط لهيبته التي كادت أنهار تلملمها مع هلاهيل الملابس التي تجمعها فصرخ فيها:

- بتعملي إيه يا ولية إنتي؟

ظن الضابط أنها ستخاف من نبرة الوعيد التي غلف بها سؤاله، لكنها لم تعره التفاتًا، من المفترض أنها عمياء ولا تدري من صاحب الصوت. تعمدت أنهار النظر باتجاه معتوق وشاكر، ثم قالت بنبرة لبؤة شرسة جُرحت في أول القتال لكنها لم تخسر المعركة بعد:

- اسم الله على نضرك يا ضنايا، بلم الغسيل بتاعي، هدومي وهدوم ابني مينا. عدم المؤاخذة أنت مين؟

اسم "مينا" له وقع السحر أحيانًا، ليس على محمل سلبي كل الوقت، التعليمات والتوجيهات التي تظهر بصفحات الجرائد من قيادات الضابط تؤكد على المواطنة وحق شركاء الوطن، لا داعي لأن يكون هو أحد طرفي الأزمة، ثم إن المرأة التي أمامه ضريرة على مشارف الخمسين، ومنحها الزمن سنين إضافية مجانية مع الفقر والمرض، لتصير أقرب لعجوز تجاوزت السبعين بكثير.

لملم الضابط عساكره ومخبريه، هبطت فورتهم لما وجدوا قائدهم مدحورًا، وغادر السطح إلى الشارع شبه مطرود منهزم، لم يتمالك شاكر نفسه، راح يصفق لأنهار بحماسة وشاركه معتوق استحسانًا للأداء، في حين اقترب منها شنكل وقبّل يدها بأعين دامعة من فرط الامتنان، بدا المشهد أقرب لجمهور الصالة وهو يُحيي بحماس سيدة المسرح الأولى، بعدما انفعلت وهي تلقي جملة حوار نهاية الفصل الأخير.

دارت أغنية أم كلثوم "أغدًا ألقاك" وفي الثامنة مساء اليوم التالي كانت الجمعية السرية للمواطنين تجتمع بدعوة عاجلة من معتوق وتقرر مكافأة استثنائية ألف جنيه لأنهار نظير شجاعتها في حماية عبده شنكل، ثم قرروا صرف ألف أخرى لشنكل نفسه بسبب مقاومته الباسلة وصلابة موقفه وعدم اعترافه رغم التعدي عليه بضراوة من قوات الشرطة، قبل أن ينتهي الاجتماع جرى التصويت على توقيع غرامة ألف جنيه على أنهار لمخالفتها قرار الجمعية بضرورة توقفها عن بيع الحشيش فوافقوا بأغلبية الأصوات الصحيحة، بعدما أبطل الحشاشون منهم أصواتهم.



19

تناوب الرعد والبرق إفزاع أهل العزبة، هطلت الأمطار بغزارة كالليلة السابقة وكأن المشهد يُعاد بحذافيره، فارق وحيد بين المشهدين أن في اليوم الثاني انتظر رجال المباحث شنكل لما غادر البيت، ووضعوه في سيارة الشرطة وذهبوا به إلى القسم، كاد شنكل من فرط الضرب الذي تعرض له أن يخبرهم بكل حوادثه القديمة، كل سرقاته التي تعدت الخمسمئة بيت وربما أكثر على مدار عشر سنوات حتى أعلن توبته، أوشك بعدما تبعثرت كرامته أن يرشدهم عن الجمعية السرية ويفشي سرها ليضمن أمانه، لكنه تراجع في آخر لحظة وهو في طريقه للتخشيبة للمرة الثانية بعد استجوابه، عندما لمح معتوق صحبة شاهين يدخلان مكتب المأمور ومعتوق يغمز له مطمئنًا.

بعد نصف الساعة خرج المأمور من مكتبه مودعًا بحرارة شاهين ومعتوق وهو يربت كتفيهما كأصدقاء قدامى، وعندما غادرا قسم حلوان لم يتمالك شاهين نفسه من الضحك، والتفت لمعتوق بعينين دامعتين وهو يكمل كلامه بصعوبة وسط ضحكاته:

- يخرب عقلك.. أنا كنت فاكر الراجل حيحبسنا مع شنكل، لقيته وافق وفرحان.

استعدت عزبة الوالدة لتنفيذ ما اقترحه معتوق على مأمور القسم وأقنعه بتنفيذه، استغرقت الاستعدادات شهرًا، لكن عبده شنكل تم الإفراج عنه في مساء اليوم نفسه الذي زار فيه معتوق قسم حلوان.

دخلت عزبة الوالدة التاريخ عندما زارتها مذيعة التلفزيون الأشهر نجوى إبراهيم، لتحاور عبده شنكل باعتباره اللص التائب عن السرقة، البداية من اقتراح قدّمه مأمور قسم حلوان لوزارة الداخلية نقلًا عن فكرة لمعتوق، ثم جاءت الموافقة على أجنحة الطير بعد مصرع متهم في حجز قسم التبين قبلها بأسبوع، ورغبة الحكومة في غسل يديها وتبييض وجهها بمساحيق ثقيلة تصمد أمام رياح المعارضة.

وقف شنكل أمام الكاميرات لأول مرة في حياته بدون حصان، يرتدي ملابس مسروقة تليق ألوانها مع المناسبة التي ستجعله نجم حلوان لسنوات قادمة، زادت الطموحات وتوسعت الآمال، فبعد إذاعة الحلقة الكل سيُحييه بعزبة الوالدة، والبعض سيتَعرف عليه بالمواصلات العامة، سيؤلف عنه كاتب مغمور رواية فيشتهران سويًّا، وسيطلب منه أحد مخرجي المقاولات الظهور في فيلمه القادم لكن المشروع لن يرى النور، سيصور إعلانًا عن خزينة حديدية يستحيل سرقتها لكنه يفتحها، ثم ترفض الرقابة إذاعة الإعلان بدون إبداء أسباب ولا يقبض بقية أجره.

أضيئت الكشافات ودارت الكاميرا بزاوية ضيقة بالطريق حتى لا تكشف العشوائيات سوأتها، استحال التسجيل فوق السطح عندما اكتشفوا أن الكاميرات والعمال وأدوات الإضاءة والصوت لو دخلت غرفة شنكل فلن يكون هناك موضع لقدم آدمية بعدها، استعان طاقم التصوير بقوة كبيرة من قسم حلوان، نصفها ارتدى ملابس الشرطة الرسمية ليمنعوا جمهور العزبة من ملامسة المذيعة الرقيقة أو المرور من أمام الكاميرا والتلويح للمشاهدين، فاكتفوا بإرسال قبلات بالمئات لها في الهواء من فوق الأسطح، ناداها الأطفال باسمها مسبوقًا بكلمة "ماما" كالعادة، ثم زغردت النساء من الشبابيك لرؤيتها مما عطل التصوير عدة مرات.

يئس المخرج بعد المرة الخامسة، فأشار باستكمال التصوير آملًا في مهارة القائمين على المونتاج، أما باقي قوة البوليس الذين ارتدوا ملابس مدنية فقد ظلوا يروحون ويجيئون واجمين دون أن تلوح التفاتة من أحدهم ناحية العدسات، انضباط رائع أشرف عليه مأمور القسم بنفسه، غير يائس من تكرار اسمه على مسامع المذيعة كلما توقف التصوير، ليذكّرها به كأنهما في كُتاب، على أمل أن تتذكره أمام وزير الداخلية فينقله بحركة الشرطة إلى مكان آدمي يُنهي فيه خدمته وهو على مشارف رتبة اللواء.. قسم قصر النيل هو الحلم.. هو المكان الذي يضيفه بعد ذكر اسمه ثلاثيًّا كل مرة كي تتوسط له، لكن المذيعة تنسى الاسم، فتضحك وتطلب منه تكراره في خجل، لتتسع ابتسامته وتنافس قُطر ماسورة الصرف الصحي الراقدة على مبعدة منهما، يعيده بصوت عالٍ وهو يضغط على حروفه كلها:

- العميد عايد فايد الشنشلاموني، مأمور قسم حلوان يا هانم.

تعلو ضحكات المذيعة مرة ثانية وربما ثالثة، ثم تمل اللعبة فتطلب منه كتابة اسمه في ورقة وتلتفت لشنكل طارحة أسئلتها عليه، لكنه يتلعثم فيعاد التصوير من جديد، يثور المخرج وتهدئه المذيعة

برقتها الزائدة، تتسارع دقات قلب شنكل وتقترب دموعه، تتأهب للانهمار، فيحرك وجهه يسارًا، يحاول التركيز في أي شيء آخر كي لا يبكي على حاله، لم يهتم به مخلوق وهو يكسب سباقات عديدة، لم يُكتب عنه حرف وهو يصمد فوق حصانه ويتجاوز غيره من المخضرمين، لم تُلتقط له صورة من قريب، لا يُعرف له اسم بسباقات الخيل، مجرد رقم يتغير كل مرة، في حين كانت صورة الحيوان الأبكم الذي يقوده تتصدر وحدها المشهد، أما هو فمن بعيد، نقطة خضراء أو صفراء على حسب لون ملابسه يومها. تلفت حوله في حسرة، العشرات وربما المئات بالقرب منه، يصفقون له ويبتسمون في وجهه ويلوحون في سعادة، يطيبون خاطره ويراعون مشاعره، الأضواء كلها مُسلطة عليه وحده، الحكومة كلها هنا تحرسه وتدلله لدقائق معدودات قبل أن يعود لكهف التهميش الإجباري. لكن كل ذلك متى؟ لما صار لصًّا؟!

اقتربت منه نجوى إبراهيم وهي تحافظ على وضع الميكروفون في الفراغ مناصفة بينهما قائلة:

- اسمك شنكل؟ اسم غريب أوي، احكي لي بقى يا عم شنكل حكايتك مع الاسم ده، وعن التوبة النصوحة ودور وزارة الداخلية وجهودها في إنك ترجع مرة تانية للمجتمع مواطن صالح شريف.

ظهرت ابتسامة خبيثة على وجه شنكل وهو يستمع لأسئلة المذيعة التي قررت إطلاقها دفعة واحدة بعدما أوقفت التصوير عدة مرات بدورها بسبب ضحكاتها من اسمه، نظر شنكل لمعتوق الذي اتفق معه على الأسئلة، فغمز له مشجعًا، لكن شنكل في حيرة، السؤال الأخير من خارج المنهج المتفق عليه مع معتوق، ووزارة الداخلية بكل أجهزتها لم تستطع ضبطه متلبسًا ولو لمرة، لا دور لها في توبته ولا حتى ثانوي، وقضاياه أُتُّهم فيها آخرون وربما قيدت ضد مجهول، الشرطة تبحث الآن عن اللَّقطة، ولا بد أن يعطيها لها كي يعيش تائبًا في أمان، حان أوان دوره ليسدد ديونه للحكومة على ما لم تقدمه له، انتابه شعور غريب، كمن قال لحكومته إنه يشعر بظمأ شديد فمنحته ماء البحر كله ليشربه، ثم راحت تمنُّ عليه بكرمها.

دار بخلده أن يحكي لهم السبب الحقيقي الذي جعله يتوب عن السرقة ولا يعرفه أهل العزبة ولا معتوق نفسه، فمنذ أعوام لم يعد يتذكر عددها لعب معه القدر لعبة غريبة، سَرق كالعادة ملابس قليلة وباعها بجنيهات زهيدة واشترى بنصفها جزرًا لمهرة اسمها "حياة"، مُهرة يحبها ويتولى رعايتها وسبق له ركوبها أيام السباق وكبرت على يديه كابنته، لكن الجزر كان فاسدًا بسبب المبيدات المرشوش بها كما قرأ بالجرائد بعدها، ماتت الفرسة بعد يوم ونصف اليوم، ربما خدعه

القدر ونفقت مهرته بسبب طول عمرها، أو لمرض آخر أصابها ولم يدركه طبيبها ووجد في المبيدات شماعة مناسبة لجهله، لكن شنكل اعتبرها علامة، محطة وصول نهائية يتم تكهين قطار السرقة بعدها للأبد، أما المبيدات فلم يَعرف سرّها، بعدما تاه في الهوة السحيقة بين مبالغة المعارضة وكذب الحكومة.

ابتسم للمذيعة ابتسامة خبيثة ثم أطلق للسانه العنان مثلما كان يفعل مع حصانه بعدما قرر هذه المرة الابتعاد تمامًا عن مضمار الحقيقة حتى يعيش ما تبقى له في أمان.

*****

اليوم حدث تاريخي مهم.. افتتاح الحديقة الدولية العالمية الكبرى بحلوان، تلقى معتوق وأعضاء مجلس إدارة الجمعية السرية دعوة من سراج البدوي للحضور، باعتباره صاحب مكان ومؤسس ميدان الدوران. لم يتمكن الجميع من تلبية الدعوة، ذهب معتوق وفارس وفتحي السماوي مع سراج ممثلين عن الجمعية، متوقعين الوقوف في الصدارة بالصف الأول ككبار الزوار، حتى إن فتحي السماوي توقع مصافحة المحافظ ونوى أن يشكو له من قلة الكلاب الضالة، لولا نهره معتوق وحذره من الانقياد لغبائه بهذه السهولة مثل كل مرة.

قبل بلوغهم الميدان بأمتار لفت نظر معتوق لافتة زرقاء تحمل الاسم الذي ألفه سراج يومًا ما "ميدان الدوران"، محفورًا بالعربية والإنجليزية، لاح طيف ابتسامة على وجه معتوق لكنه تبخر قبل أن تكتمل عندما اقترب منهم أمين شرطة شرس الملامح آمرًا سراج وحده بالمثول بين يدي ضابط المباحث الجالس على مقعد خشبي وسط معاونيه أسفل شمسية وضعها سراج بالميدان لتحميه من الحرارة والأمطار. طلب منه الضابط بطاقات ضيوفه ودسها بجيبه، ثم أشار له بيده كي يختفي معهم بعيدًا، بعدما حذره من الظهور في كادر الكاميرا ولو بظهره، انسحب سراج مجبرًا وهو يشعر بالخوف، مع أنه لم يكن كذلك حتى فُقدت ساقه، كان أشجع وأجرأ، يعرف عدوه بوضوح، وكان العدو بدوره يعلن عن عداوته بوضوح أكثر.

لم يشأ معتوق والآخرون إحراج سراج، فتراجعوا عائدين للعزبة ملبين رغبته بالبقاء وحده، توارى خلف دورة المياه العمومية مع ذكرياته التي تحكيها ساقه حتى انفض مولد المحافظ وافتتحت الحديقة، دارت السرينة وارتفع صوتها عاليًا، خلفت السيارات الغبار وراءها، وراح زكي الساكت كناس البلدية يُعيد الأتربة إلى اليسار بعدما زحزحها قبل الزيارة إلى اليمين، اختفى موكب المحافظ بعدما التقطوا مئات الصور، وأجروا عدة أحاديث تلفزيونية أثناء غرس ثلاث فسيلات كنواة لحديقة دولية، لكنها لن تصمد طويلًا أمام رياح يناير القوية.

عاد سراج للميدان ليلملم هيبته المبعثرة، حاول أن يستدعي صوته من أعماقه لكنه خذله، شعر بانكسار روحه لأول مرة منذ سنوات بعيدة، كاد ينسى فيها المهانة رغم ندوبها التي ظهرت على ملامحه، لمح بطرف عينه كاميرا صينية دقيقة الصنع والشكل معًا، تلك العين السحرية المركبة في غالبية الميادين هي التي ستفقده عمله وتقعده في بيته، ستنقرض المهنة مع الزمن وتحل هذه الآلة محل البشر، سراج البدوي طليعة الدفعة الأولى من المنادين المرشدين في طريقه إلى التقاعد بسببها ليسدل الستار خلفه على جيل الرواد.

في غمرة أحزانه اقترب منه شاب متردد يتلفت حوله بارتياب ظاهر، نهره سراج عن ارتباكه بنظرة واحدة تمرس عليها مع زبائنه المستجدين، همس الشاب طالبًا التموين رافعًا إصبعين.

- اسبقني على دورة المية..

قالها سراج بصوت خفيض لكن النبرة آمرة، بعد خمس دقائق تأكد أن لا أحد يلحظ تحركاته، فتوجه لدورة المياه، لديه حجة دائمة مقبولة بكثرة التردد عليها كي لا يثير فضول باقي المرشدين بالميدان، مريض سكر.

بمجرد دخوله دورة المياه العمومية وجد الشاب مرتبكًا أكثر مما كان، أقبل نحو سراج كطفل تائه، دفعه سراج بيديه للداخل، لطمه لطمة خفيفة على رأسه ثم دلف إحدى الكبائن، فك ساقه الخشبية من ناحية فخذه وقلبها بحرص، التقط قطعتين من الحشيش ثم أعاد تركيب ساقه، ترك له المخدرات بجوار فتحة المجاري وخرج، قبض من الشاب ثمنها وأخبره بمكانها، ثم غادر من الناحية الأخرى قبل أن يتوجه الشاب لأخذها حتى لا يراهما أحد سويًّا، فالبلد كلها صارت مصادر سرية على بعضها كما يعتقد.



20

تسلل إبليس إلى الجنة في غفلة من الملائكة وأوصد بوابتها، وفي اللحظة ذاتها وضع زكي الساكت موظف بلدية عزبة الوالدة جنزيرًا طويلًا على باب الحديقة يسمح بمرور بغل من بين الضلفتين المربوطتين به، الحديقة الدولية العالمية الكبرى التي افتتحت منذ أيام قليلة وجدها بعض المواطنين دورة مياه عمومية مناسبة، ومكانًا رحبًا يتسع لمخلفاتهم بغير تمييز، ولأن سور الحديقة لم يكتمل بناؤه فلم تكن هناك حاجة لأحد كي يرفع ذراعيه ويلقي بأكياس سوداء في الفضاء الفسيح، أو ينحني للمرور من بين ضلفتي الباب.

قبيل المغرب تكومت القمامة فوق بعضها البعض كمقبرة جماعية، سرعان ما تبعثرت عندما عبثت القطط والكلاب الجائعة بمحتوياتها. عمل إضافي وعبء ثقيل سيتحمله فتحي السِّماوي، المنتظر دوره منذ العصر في طابور صرف تموين اللحوم بالبلدية، تسلم قطع اللحم ووقّع على استمارة العهدة، كمية تكفي عشرين كلبًا على الأقل وإلا وقّعوا عليه الجزاء بالخصم من راتبه لكنه هادئ البال، فالكلاب تُجمع بعربة البلدية لتخرج في رحلتها الأخيرة متجهة إلى السلخانة بعد موافقة الجمعية السرية للمواطنين على تمويل مشروعه، سيكتفي بخمسة كلاب فقط يقدم جثثها قرابين لمصلحة البلدية مع عشرات القطط المسمومة كي تسكت وتغمض عينيها عن بقية كلابه، وربما يُعيد بقية عهدة السم للدولة وستكافئه وقتها على أمانته، في آخر النهار وبينما الشمس تغلق عينها كان السماوي يفرغ حمولة سيارة البلدية من الكلاب بفناء مجزر السلطان، حملها صبيان الجزار وجرى فصل رؤوسها ثم سلخها وأُلقيت جثثها في قدور عريضة عميقة مملوءة بالماء الساخن.

قبض فتحي مكافأة الصيد وحوافز اختياره للكلاب السمينة وانصرف راضيًا، في منتصف الطريق شعر بجوع شديد فتوقف أمام مطعم الإيمان بعدما جذبته رائحة الشواء ودخانها الذي صنع سحابات كثيفة. لكن قبل أن تقوده قدماه للداخل استجابة لنداء بطنه، أوقفه عقله في الأمتار الأخيرة وهو يذكره بأشياء عديدة عمَّا ما ينوي أكله، كانت كفيلة لأن يفرغ كل ما في جوفه ويعود لبيته بعدما شعر بالشبع واطمأن على صحته.

*****

دخلت مصر الألفية الجديدة لتبدأ القرن الحادي والعشرين في حين لا تزال المياه مقطوعة عن بيوت حلوان لليوم العاشر على التوالي من أيام شهر أغسطس، ورغم أن انقطاع المياه هو الأصل، إلا أن طول فترة الانقطاع تلك المرة سجل رقمًا قياسيًّا جديدًا في تاريخ إنجازات عزبة الوالدة. قرب الظهيرة وبينما القاهرة تئن تحت وطأة زحام خانق أغلق كل شرايينها التي تظل متكلسة حتى المغرب، كان شاكر الجهيني قد تجاوز الدقيقة العشرين وهو لا يزال يُغرق رأسه وجسده بالماء البارد ليرطبه، حتى تنبه فجأة أنه تأخر على موعده مع شقيقه لما نظر في ساعته، ارتدى ملابسه على عجالة واقفًا فوق المرحاض كي لا تبتل قدماه، تاركًا المنشفة العريضة التي اختلسها من استقبال النادي الصحي على الأرض لتتشرب مياه البحيرة الصغيرة التي تسبب فيها على مدار ثلث الساعة. تأكد من إعادة الشطاف مكانه وألقى ببقايا الصابونة الصغيرة في البالوعة كمجرم حريص على التخلص من آثار جريمته، ثم طرق الباب المجاور مرتين ليسمع صوت معتوق يخبره أنه على وشك الانتهاء من ارتداء ملابسه.

غادرا دورة مياه فندق هيلتون رمسيس منتعشين في طريقهما للمقهى البلدي المجاور ، ما إن وقعت عين معتوق على فاضل شقيق شاكر الذي سبقهما للمقهى قادمًا من جريدة الأهرام، حتى شعر أن شاكر هو الذي أمامه لكن بغير شارب، قليلون من يعرفون أن شاكر الجهيني لديه شقيق توأم، وأن التطابق بينهما مذهل لهذه الدرجة، فشقيقه فاضل لا يعيش بعزبة الوالدة، بينما قضى شاكر حياته كلها بحلوان لقربها من عمله، باعدت الحياة بينهما منذ صغرهما عندما شب حريق كبير في بيتهما، الخسارة لم تكن في موت الأب والأم معًا فقط، بل في طريقة المباعدة بين التوأم بعدها، وزعت التركة كأن الطفلين من أنصبتها، عاش فاضل مع جده لأبيه بينما كان شاكر من نصيب جده لأمه، لا يوجد سبب منطقي لهذه القسمة سوى أسماء الجدود التي أطلقت على الطفلين إرضاء لكبراء العائلتين، لكن العائلتين المختلفتين منذ بداية الزواج صممتا على القسمة.

افترق الطفلان بنظرات صامتة وأعين شبه دامعة وهما على أعتاب الرابعة من عمرهما، لا يتذكر شاكر أو فاضل شيئًا عن طفولتهما حتى لو عادا بالذاكرة قدر الممكن، هناك دائمًا عتبة لا يمكن تخطيها بسهولة تبدو فيها الصورة ضبابية للغاية، الوجوه غير واضحة والأصوات متداخلة، ولأن عائلة الأب ميسورة فقد أكمل فاضل تعليمه بالجامعة وتخرج من كلية الآداب وعُين صحفيًّا بجريدة

الأهرام، بينما عاش شاكر طفولة بائسة، لم يستطع جده لأمه الإنفاق عليه، ومنعه العناد من إعادته لعائلة أبيه ليهنأ بالعيش مع شقيقه، أودعه ملجأ يضم مدرسة داخلية واكتفى بزيارته شهريًّا لسنوات قليلة، تحولت مع كبر سن الجد ووهن صحته إلى خطابات حتى انقطعت بسبب شلل رعاش أصاب كفه اليمنى. كان شاكر يترقب الخطابات بلهفة وينتظرها بشغف، سطور الجد وحكاياته هي عينه التي يرى بها الدنيا، عاش يتأملها ويضيف إليها، يأخذ منها ما يحب ويطرح ما يضايقه.

أنهى شاكر تعليمه في الملجأ الذي تربى فيه ثم اختار له الجد مهنته ذاتها، أدخله معهد البريد ليتخرج منه بعد عامين ويُعين بالمصلحة. عمل بمكتب بريد حلوان الرئيسي، لم يتغيب يومًا عن الحضور، حتى أيام الجمعة كان يوزع فيها الخطابات المتأخرة لزملائه، لكن تملكته عادة لم يتخلَّ عنها، لا يعرف متى ولدت ولم يستطع مقاومتها، ظل يفتح الخطابات ويقرأها قبل إعادة إرسالها لأصحابها، صار يرى عالمًا أوسع من عالمه، يتفاعل مع القصص الحقيقية، يحزن لحالات الطلاق وظروف الوفاة خاصة المفاجئة، يفرح للأخبار السعيدة وعلى الأخص مناسبات قراءة الفاتحة والخطوبة وعقد القران، ينتظر بشغف حصول الابن على الشهادة ويترقب عودة مسافر من غربة أو وصول خطاب تعيين لعاطل، أحيانًا يتابع خطابات بعينها لمعرفة نهايات كل قصة، يُعجب بالأبناء البارّين بأمهاتهم، يزفر في ضيق لعقوق هؤلاء الذين لا يردّون على رسائل ذويهم، يقرأ سطورًا كتبت بالدموع، يشتم منها رائحة الأسى والجحود فاضطر في مرات قليلة لكتابة رد بدلًا منهم لتهدأ قلوب الأهل وتطمئن النفوس، رغم فضوله كان لا يقترب من الرسائل الحكومية، ولا يميل لرسائل العاشقين المطولة رغم ندرتها، يمر على سطورها بعينيه ويطويها سريعًا. مع الوقت اكتسب خبرة، يستطيع القراءة الطولية من أعلى لأسفل، يعرف الموضوع من أول لمحة وبناء عليها يقرر الاستمرار في القراءة لو جذبته الحكاية، أو إعادة لصق الظرف وإرساله لصاحبه دون تدخل منه.

منذ إجبار شاكر على الاستقالة بسبب تكرار فتحه الخطابات والرد عليها شعر أن بداخله طاقة لم تعد غرفته تكفي لتبديدها، جلس على المقهى لإنفاق ما تبقى منها، لكن الطاقة لا تزال كامنة تسأل هل من مزيد، اقترب من عبده شنكل وارتاح لمجالسته، تحدثا في السياسة وكرة القدم والفن، لعبا الطاولة والشطرنج وأوراق اللعب، خسر شنكل في كل لعبة على التوالي لكنه احتفظ بضحكته الطفولية ونبرته التي ينغم بها الكلمات كلما كان مزاجه رائقًا، تندر شنكل على شاكر بأنه التطور الطبيعي للحمام الزاجل، ابتسم شاكر له يومها ابتسامة باردة، سئم هذا المزاح السخيف الذي ظل

يسمعه طوال الخدمة من آخرين، قال بأسى وهو يشير لهاتف محمول يضعه شاب حول خصره معلقًا بحزامه:

- الحديدة دي حتبلع مشاعر الناس يا شنكل، حيبطلوا يكتبوا جوابات، وقريب أوي البوسطجية حيقعدوا في البيت زي حالاتي، والمصلحة كلها يمكن تقفل.

- لازم تشتغل أي حاجة تانية يا شاكر، إن شاالله تبقى حمامة بلدي وترقد لك على بيضتين.

يقولها شنكل ويضحك عاليًا وهو يضرب قدميه ببعضهما كأنه يصفق بهما كعادته، تفلت ضحكة من شاكر رغمًا عنه على طريقة عبده شنكل في التعبير عن فرحته، ويغادر المقهى كل ليلة شاردًا وهو يفكر في كلامه عن العمل من جديد لكن الفكرة لم تومض حتى اقترب معتوق منه وأشعلها في رأسه عندما أطلعه شاكر على صورته مع شقيقه التوأم فأنارت طريقه.

*****

المكان الوحيد الذي يمكن لأعضاء الجمعية تغيير هيئتهم فيه هو لوحته، يظهرون فيها كما يحبون أو كما أرادوا أن يراهم الآخرون، أراد لهم ألا يقضوا ما تبقى من حياتهم في إطار أجبرهم الزمن على البقاء فيه، تمنى أن يعيشوا مثل الصورة المتخيلة التي رسمهم عليها، على الأقل هم يبتسمون في لوحته كل يوم، ولا يظنهم قادرين على ذلك خارجها.

مال معتوق بجذعه للأمام ناحية لوحة الجمعية السرية، عرضها متران وطولها متر ونصف المتر، المكان هنا يعطيها قيمة أكبر باعتباره موطنها الأصلي، يكفي أنها ألهمته تكوين الجمعية في خياله حتى صارت واقعًا، جمعية لا يدفع فيها المشترك مليمًا، لكنه يقبض بانتظام وأحيانًا كلما طلب، ارتعشت يده لما ساوره هاجس سخيف عن مصير لوحته مثل طائر نقر رأسه فجأة، ماذا لو مات فجأة واشتم أهل العزبة رائحة جثته؟ سيكسرون باب الغرفة وستكون اللوحة أول ما يصافح أعينهم، سيرون حقيقتهم أمامهم، سيتذكرونه طوال حياتهم وربما أولادهم من بعدهم، وقد تباع

بملايين الجنيهات فيما بعد باعتبارها آخر لوحاته، لكن ماذا يحدث لو لم يلتفت لها أحد؟ فطالما الأمر كله سري فلتكن اللوحة كذلك ويتجاهلها الجميع حتى تؤول ملكيتها لبائع روبابيكيا متجول.

سيطر عليه فجأة هاجس أشرس من الأول، سيأتي غريب أبو إسماعيل ليلقي نظرة أخيرة على جثمانه ويتأكد من رحيله، سيجد اللوحة ويدرك قيمتها، ووقتها سيشتريها بملاليم من الورثة.. زفر معتوق في ضيق فلا وريث له، سيحصل عليها غريب مجانًا ويربح الملايين وحده بعدما يضع توقيعه عليها. بصق بعصبية عندما تملكه الهاجس الأخير، ألقى بعقب سيجارته ودهسه بصندله ووجه غريب في اللوحة يسيطر على تفكيره وكأنه سيخرج منها ويهاجمه.

التفت له فاضل وشاكر في دهشة وهو يبصق ويبرطم بكلمات غير مفهومة، ابتسم لهما معتوق في ارتباك وهو يعتذر عن شروده لفترة طويلة في لوحته، أمر له شاكر بكوب شاي ومد فاضل يده بزجاجة ماء مثلجة وهما يحاولان معرفة ما يؤرقه، لكنه أفلت منهما ودخل في الموضوع مباشرة.

قبل هذا اللقاء بأيام كان شاكر قد عرض فكرة معتوق بتردد على شقيقه فاضل، لكنها لاقت قبولًا غير متوقع أدهشه، وفي هذا المكان الذي يجلسون فيه الآن ويبعد خمسمئة متر عن جريدة الأهرام تم توقيع عقد تعيين شاكر محررًا، اتفق مع شقيقه وفقًا لخطة معتوق على اقتسام العمل سويًّا ثلاثة أيام لكل منهما، ضحك شاكر وهو يردف:

- ولو عندك نوبتجية الجمعة مستعد أشيلها مكانك كمان.

وافق فاضل كأنه كان ينتظر العرض طوال السنين الماضية ليرتاح الأعوام القادمة قبل المعاش، من داخله يحسد شاكر على استقالته والاستمتاع بحرية من ترك الوظيفة العامة الروتينية، سئم المهنة وأيضًا لم يعد متفرغًا للصحافة بعدما عمل بتحرير الكتب بإحدى دور النشر لزيادة دخله، تنهيدة فاضل والابتسامة الصافية التي تسيدت ملامحه تشيان بذلك، فتحمس شاكر مسترسلًا:

- نبتدي من بكرة؟

- لأ.. اصبر أسبوع أرسيك فيه على الشغل وأقول لك أنا بتعامل مع الناس إزاي، وكمان تحلق شنبك علشان تبقى شبهي بالمللي ومحدش يكشفنا.

سكت فاضل لبرهة وهو يتفرس في شاكر أكثر بعدما خلع نظارته الشمسية، لاحظ أن فوديه قد خالطهما الشيب قليلًا فكان لا بد من صبغة لتداري الكذبة. تدخل معتوق في الحديث وهو يبتسم:

- يا سيدي مفيش مشكلة يصبغ شَعره.. على الأقل الصبغة الأيام دي قدوة واقتداء.

اسم فاضل لا يظهر على ما يكتبه بجريدة الأهرام، مع أنه الأعلى مقروئية منذ سنين طويلة، يحرر بابي "حظك اليوم" و"صدق أو لا تصدق"، ويتولى ترتيب وتبويب خطابات بريد الجمعة، وهو ما دفع معتوق لوضع خطته بتناوب العمل بينهما. لمعت عينا معتوق على ذكر موضوع بريد الجمعة عندما أخبره به شاكر، وارتاح أكثر لما عرف تفاصيله من فاضل، هذا الباب هو البوابة التي ستتصل الجمعية السرية بمواطنين يستحقون الدعم والمساعدة دون أن يعرفوا حقيقتها، لكن أقلقه اختصاص فاضل بالبابين الآخرين وخاف أن يخفق شاكر فيهما، تساءل بينه وبين نفسه أولًا وهز رأسه شبه مقتنع ثم قال:

- والبابين دول طبعًا بتألف مواضيعهم من دماغك يا فاضل؟

امتعض وجه فاضل وهو يرد بعصبية:

- لأ طبعا إنت اتجننت يا معتوق؟! صدق أو لا تصدق بناخدها من جرايد أجنبية مترجمة ومراجع وكتب، أما حظك اليوم فبنعتمد فيها على متخصصين في علم الأبراج، الغاية إننا نكتب كلام يدي الناس أمل.

ثم التفت لشقيقه شاكر قائلًا بحسم:

- المهم إنك تجهز المواضيع أسبوع بأسبوع علشان المطبعة ما تستعجلش شغلك. وخللي بالك بريد الجمعة أغلبه مشاكل حقيقية وناس عاوزة مشورة بجد فلازم تفرزه كويس للمحرر، لكن سيبك من اللي بيطلبوا فلوس مش بنرد عليهم وبنستبعد جواباتهم.

صار شاكر محررًا بالأهرام لبعض الوقت منذ ذلك اليوم، لكنه لم يعمل بنصائح أخيه، اهتم ببريد الجمعة بطريقته الخاصة وفق الخطة التي رسمها معتوق، فرزه لقسمين؛ مَن يحتاجون لمساعدة مالية احتفظ بهم، ومَن يحتاجون لمشورة ونصيحة أعطاها لمحرر الباب، أما في باب "حظك اليوم"

فقد رجع لأرشيف الجريدة منذ خمسين عامًا مضت، ثم راح يُعيده كل يوم بعدما أقنع نفسه بأنه لن يعيش خمسين سنة أخرى على وجه القطع، وبالتالي لن يواجه مشكلة لما يفرغ الأرشيف.

ابتكر شاكر في باب "صدق أو لا تصدق" فكرة تستحق أن تكتب في الباب نفسه، أعجبته مقولات معتوق عندما يكون مسطولًا، وأفرد لها مساحة مع مواد الأرشيف، صارت الجريدة وقورة أيام فاضل.. الأحد والثلاثاء والخميس، أما الأيام الثلاثة الأخرى التي يتولى شاكر تحريرها فصار القراء يقرأون عناوين من عينة.. "تنازل ملك الحبشة منذ ألف عام عن الحكم لمدة ستة أشهر لخادمه ولم يشعر الشعب بأي تغيير بينهما"، أو "يُمكن للصرصار أن يعيش ضعف عمره إذا ما تغذى على البعوض الميت فقط"، أما آخر ما نشره شاكر فقد كان.. "يمكن لمليون نملة أن تأكل قرن الخرتيت في ثمانية عشر يومًا دون أن يشعر".



21

بدت الأوراق النقدية الجديدة مثل مولود يهب السعادة لأهله بعد طول حرمان، ابتسم معتوق ابتسامة رضا وهو يتأملها تبرق خارجة من ثغر الطابعة، في طريقها لسداد ضرائب دكان سعيد راديو وبضاعة لتجارة حلويات فرفشة التي تديرها أنهار، وإكراميات مفتشي مكتب الصحة كي يتغاضوا عن كلاب فتحي السماوي، الذي أسس شركة لتوريدها مع الجزار شريكه، وباتت لحومها تباع في أكشاك الجمعية التعاونية التابعة لوزارة التموين بسبب رخص ثمنها وإقبال المواطنين عليها.

دوّن معتوق رئيس الجمعية ملاحظات قصيرة في نوتة صغيرة ليتذكرها الاجتماع القادم، ثم سحب نفسًا من سيجارته وهو مشغول بباب صدق أو لا تصدق قائلًا لأمين الصندوق شاكر الجهيني الذي يزوره بغرفته:

- اكتب عندك.. "اكتشاف مقبرة أثرية لحاكم مصري قديم رفض تغيير الدستور في عهده".

قالها وضحك وسط سحابة الدخان التي تغطي نصف وجهه، لكن شاكر لم يبتسم، وقبل أن يشرع معتوق في تأليف مقولة أخرى رد شاكر بنبرة حزينة:

- كفاية هزار يا معتوق.

- ليه يا سي شاكر الهزار حينقض وضوءك ولا حيفسد صيامك؟

أردف شاكر بالنبرة ذاتها:

- الحاجة التي لا تصدق يا معتوق كمية الهم والفقر والمشاكل اللي عند الناس في بريد الجمعة، كنت فاكر إن عددنا قليل من اللي بنقراه في الجرايد ونشوفه في التلفزيون عن النهضة والتطوير والإصلاح، لكن طلع إن فيه غيرنا كتير في مصر كلها، يظهر إننا عايشين في عزبة كبيرة ومش دريانين.

لمعت عينا معتوق لكنه لم يعلق، أغمض نصف عين وترك الموضوع ينضج على نار هادئة في رأسه مع أنه شبه اتخذ القرار، قرر تخصيص ساعات إضافية كل أسبوع لمضاعفة طباعة نقود بريد الجمعة، مع تخصيص كمية أخرى للحالات الحرجة التي تحتاج تدخل جراحي في أحيان كثيرة ولا تجد المال، ومع الوقت أنعشت نقود الجمعية جيوب قراء البريد وتحسنت صحتهم، صارت جريدة الأهرام تتلقى أضعاف عدد الرسائل التي ترد لبريد الجمعة بصورة أدهشت رئيس التحرير نفسه، فقرر صرف مكافأة لمحرر الباب والصحفي الذي يتولى فرز البريد، وسط ضحكات شاكر وذهول أخيه فاضل الذي لم يعرف السر أبدًا على هذه المكافأة المجزية رغم ممارسته لعمله بذات الوتيرة على مدار عشرين عامًا.

*****

الصدفة تلعب دور البطولة في حياة البعض أحيانًا، تنقلهم إلى صف متقدم من خط النهاية ليروه بوضوح قبل بلوغه. وعامل النظافة البسيط كان واحدًا من الذين فازوا بالتغيير في يانصيب القدر، ومن بعدها وضعه معتوق في مقدمة اللوحة، في مكان ظاهر يراه منه الجميع، بل يكادون يسمعونه وهو يقسم كل مرة بأن يقول الحق.. ولا شيء غير الحق.

لم يدرك زكي الساكت كناس حي البساتين والشهير بصيحة "المنحة يا ريس" كل عيد عمال أمام كاميرات التلفزيون، عندما يلوح له أحدهم من بعيد؛ أنه يقترب من منعطف كبير سيغير مسار حياته الرتيبة التي لا يفعل فيها سوى جلب الأتربة بمقشة صفراء متهالكة من اليمين إلى اليسار، عينه على السيارات المارة بجواره، لعله يحصل على صدقة تعينه بقية الأسبوع، وفي اليوم التالي يُعيد الأتربة إلى مكانها الأول، ظل على حاله حتى طلب منه أحد أقربائه الذهاب معه إلى المحكمة ليشهد على حالة وفاة في قضية تحقيق وراثة، ولأن الجلسة تأخر موعدها جلس زكي الساكت على مقهى مجاور لمحكمة مصر بباب الخلق انتظارًا لحضور القاضي، هناك اكتشف أن المكان يُطلق عليه "قهوة الشهود"، ظنهم في البداية يمزحون، لكن مع طول الانتظار وتأكيدات قريبه أيقن أن الاسم متعارف عليه بينهم، يجلس بالمقهى أمناء الشرطة من إدارة الترحيلات بوزارة الداخلية الذين يجلبون المتهمين من السجون للمحاكمة، يثرثرون عن أحوال القضايا وحال المجرمين ومدى

ملاءتهم المالية، ويتواجد به أيضًا أصحاب المصالح من خصوم ووكلاء محامين، الكل يعرف أن غالبية رواد المقهى شهود زور في قضايا كثيرة لكنهم لا يبالون.

- قول والله العظيم أقول الحق..

ربما تلك الشهادة هي الوحيدة التي قال زكي الساكت فيها الحق، وربما هي المرة الأخيرة التي ظهر ارتباكه وبانت لعثمته أمام القاضي، بعدما أدلى بشهادته عاد للمقهى في انتظار قريبه الذي كان يُنهي بعض الإجراءات الإدارية لاستلام إعلام الوراثة، جلس قرابة نصف الساعة وحيدًا شاردًا حتى ناداه المعلم صاحب المقهى وسأله عن القضية التي شهد بها، حكى له الساكت تفاصيلها بتلقائية، ربت المعلم كتفه وهو يردد كلمة واحدة "عفارم"، وبالبساطة ذاتها سلمه ورقة بها عدة أسطر واسمي شخصين، ثم ابتسم وهو يمد له يدًا تحمل عشرين جنيهًا قائلًا:

- إحنا بنحضر مع التاني، اقعد اشرب شاي واحفض الكلمتين دول علشان تطرشهم قدام البيه القاضي، وصبي القهوة حيبلغك أول ما الرول بتاعنا يقرب. قاعة 7 جنح الموسكي الدور التاني.

رغم قبول زكي الساكت للشهادة الزور على سبيل التجربة، مثلما يتعاطى المرء سيجارة حشيش لاكتشاف ذلك المجهول الذي يتحدث عنه الجميع في سعادة بالغة، أو ربما لأن العشرين جنيهًا حَلَت في عينه لسهولتها، إلا أن الساكت توقف بعدها عن الشهادة في جنح الضرب، شعر بتأنيب ضمير بالغ عندما فشل في الإجابة عن سؤال ألح على عقله بضراوة، لماذا يتسبب في حبس شخص مظلوم من أجل بضعة جنيهات؟ ليلتها أفضى بهواجسه لمعتوق فاقترح عليه مفاتحة المعلم صاحب المقهى بمهاراته لكي يُغير تخصصه، بينما عقله يفكر في فكرة أخرى تفيد الجمعية ليصل دعمها لأكبر عدد ممكن من المستحقين.

رمى زكي الساكت حمول همومه في حِجر المعلم صاحب المقهى فطمأنه ثم ابتسم له ابتسامة صفراء غامضة، وتركه يتناول مشروبات مجانية طوال اليوم، ظل زكي يتأمل الشهود الزور وهم يُلقنون الشهادة ويتحاسبون بعشرات الجنيهات كل ساعة، وفي نهاية اليوم طلب منه المعلم المرور عليه بعد يومين، ربما أراد ترك فرصة لشيطانه كي يوسوس له على مهل.

تخصص زكي الساكت بعدها في قضايا الأحوال الشخصية كما اقترح عليه معتوق، صار يجلس في نهاية المقهى إلى اليسار قليلاً، حيث شهود الطلاق والنفقة المتأخرة ورؤية الصغار، فلسفته

التي يرددها على مسامع من يلومونه، أن لا ضَرر ولا ضِرار، لا يحق لأحد أن يجبر غيره على العيش معه أو يحرمه من رؤية أطفاله، فمداراة وساخات البشر لا تختلف عن كنس الشوارع من قاذوراتهم.

*****

لافتة كبيرة تحمل صورة غريب أبو إسماعيل مبتسمًا ابتسامة لزجة تليق بالمرحلة كلها، بجوار صورته أخرى أكبر للرئيس مبارك وفوقهما آية قرآنية تذكر الناس بأن الله سيرى أعمالهم. هز معتوق رأسه وابتسم في سخرية ثم اختلى بنفسه في حجرته، تأمل لوحته كمحبوبته بعدما نقلها من مكتب شاهين إلى غرفته مرة ثانية ليعدل فيها، مال بجسده ناحية اللوحة كأنه يتشمم رائحتها، لفت نظره مينا غالي في نهايتها ضئيلًا كحجمه، لكن رأسه كبيره، ابتسم معجبًا برسمه، رأس مينا هو رأس ماله الحقيقي، مُذهل هذا الفتى فعلًا، لن ينسى معتوق اليوم الذي سأله فيه مينا عن سبب احتفاظه بآلة طباعة لما رآها بالصدفة وهي داخل صندوقها، ولأن معتوق يحب الخطوط المستقيمة والعقول المتفتحة أخبره بالحقيقة، كان مينا قد بلغ الواحد والعشرين من عمره ورأى معتوق أنه صار راشدًا بما يكفي للانضمام إلى جمعيته خاصة وأنها تفتقر إلى الشباب، عرض عليه التعاون معه وشرح له ما يفعلونه، كانت عينا معتوق مثبتتين على وجه مينا ينتظر فورة غضب أو ميلاد دهشة، وافق الفتى بسهولة مريبة كأن الجمعية هي الخلاص، لم يتوقف عند كون النقود مزورة، وقال بجرأة الجهل لدى خبير اقتصادي ممن يظهرون على شاشات التلفزيون: «إن الحكومة نفسها تطبع على المكشوف ونحن لسنا أقل منها»، ولما شاهد الأوراق النقدية تتدفق من الماكينة لأول مرة انبهر من دقتها، وطالب معتوق بالتوقيع عليها بدلًا من محافظ البنك المركزي.

تزامن انضمامه مع فشله في تجاوز السنة الثالثة بكلية الهندسة فمن يومها ظل بها حتى كره الذهاب إلى الجامعة، بدأ معتوق يطبع له ألف جنيه كل أسبوعين ليشتري بها قطع غيار أجهزة حاسب آلي من تجار تجزئة أو صبيان سريحة بشارع عبد العزيز، ثم يُعيدان بيعها في سوق البندر بالمعادي، يخسران الثلث أحيانًا، لكنهما يتحصلان على أوراق سليمة في النهاية، تجارتهما تحقق مكاسب كبيرة تكفيهما وتفيض حتى لا يستخدم أعضاء الجمعية أوراقًا نقدية مزورة قدر الممكن، صارت

هذه التجارة من مصادر التمويل التي وافق عليها مجلس الإدارة بالإجماع، ورغم جرأة مينا إلا أنه أحيانًا تنتابه هواجس القبض عليه متلبسًا، فيطمئنه معتوق بأن الأمر يحتاج سنة كاملة على الأقل لتدور فيها النقود دورة كاملة حتى يمكن كشفها، ولأن مصر كبيرة فقبل أن ينتهي العام سيشترون قطع غيار جديدة من مكان آخر غير شارع عبد العزيز.

رسالة معتوق دائمًا واضحة حتى ولو كانت ضمنية، هو بنك عزبة الوالدة الوطني، بيت مال المسلمين، صندوق الخير بالكنيسة، وعليهم أن يختاروا ما يشاؤون من مسميات، المهم أن يحافظوا على سر الجمعية ويثقوا في معتوق ليتمتعوا بخدمات الجمعية السرية للمواطنين طوال حياتهم، أو حتى يقبضوا عليه.. أيهما أقرب.

التقط مينا طرف الخيط طارحًا السؤال الذي لم يعمل له معتوق حسابًا مع أنه مثل الموت حقيقة مؤكدة لا مفر منها، يومًا ما سيقبض عليه فماذا هم فاعلون؟ سكت معتوق طويلًا ثم أجاب السؤال بخفوت كمن يسرّ سرًّا مع أنهما بمفردهما بغرفته:

- عندي فكرة مجنونة لليوم الأسود ده ومحدش حينفذها غيرك.

ابتسم مينا وكأن بقية أفكار معتوق عاقلة، ثم افترش الأرض أمامه واستند بظهره إلى الجدار ليستمع إلى الفكرة.

*****

ظلت تجارة أنهار في الحشيش نقطة خلاف في كل اجتماعات الجمعية السرية للمواطنين مع أن غالبيتهم حشاشون، لكن متحصلات البيع كمورد من موارد الجمعية باتت غصة في حلوقهم، عدا معتوق فكان التجديد بالموافقة على تجارتها يتم كل عام باقتراح منه وموافقة تنتزع بالكاد، واحدًا وخمسين بالمئة كل مرة، يرى معتوق أنهم يسيرون على خطى المعلم غالي رافعين شعاره، الحشيش نبات، مثله مثل الشاي والنعناع وأوراق العنب، والدول المتقدمة تبيحه وتقننه ومصر

ليست أقل منها كما يقول الرئيس وأعضاء البرلمان، ثم إن ضرره قليل بالقياس لغيره، لكن الباقين لا يريدون التعيّش من تجارة المخدرات، يريدون أموالًا نظيفة حتى لو كان معتوق الذي يطبعها.

اعتدل معتوق في جلسته وهو يتحدث بنبرة حاول بها تلطيف الأجواء المشحونة فقال:

- عاوزين نعدل مزاج المواطنين علشان ما ينكدوش على الحكومة فتقوم هي تنكد علينا.

الوحيدة التي صفقت لكلامه وصوتت معه كانت أنهار، ليس لأنها صاحبة مصلحة لكن لأنها لا تعرف لها مهنة أخرى، حتى حلويات فرفشة التي تعرضها لا تبيعها، تكتفي بإعطائها لتلاميذ المدرسة الابتدائية إذا ما مروا من أمام شرفتها مصادفة، تعتبرها صدقة وزكاة عن تجارتها، وماكينة الخياطة التي قدموها لها كمساعدة باعتها متحججة بأنها شبه ضريرة، لكن اجتماع اليوم حاسم بسبب تكرار مخالفة أنهار لقرار تجميد نشاطها رغم توقيع غرامات عليها، ومعتوق يطبعها لها في الخفاء وهي مستمرة في بيع الحشيش فتسدد الغرامة غير عابئة بالعقوبة، اليوم قدمت التماسًا أخيرًا طلبت فيه تخصيص ألف جنيه إعانة شهرية لها خلاف نصيبها من الجمعية كي تتوقف عن تجارة الكيف تمامًا، وافق معتوق على استثناء أنهار بطبع كمية إضافية لها كمعونة شخصية، لكن فارس رفع صوته قبل كفّه طالبًا الكلمة، أسهب في شرح مشاكل كل منهم، مختتمًا في عصبية مطالبًا الجميع الالتزام بميثاق الجمعية، فهي لم تتأسس لتناسب مزاجهم ونزواتهم، وإلا كانوا وافقوا على مشاركة فتحي السماوي في ذبح كلاب العزبة أو اقتسام حصيلة مبيعات سرقات شنكل، أعاد عليهم بنبرة رخيمة أنهم فقط وافقوا على تمويل مشروع السِّماوي بنسبة بسيطة ويحاولون إعادة تأهيل شنكل والاستفادة من مهاراته ، قبل أن ينهي كلمته كان التصفيق الحاد يبتلع بقية كلامه، بينما أطرقت أنهار بعينين دامعتين.

لجأ معتوق للتصويت مضطرًّا، أسفرت النتيجة بعدما فرز شاكر الأصوات عن فشل أنهار في انتزاع موافقة على تجديد الترخيص لها بالبيع مرة أخرى، من اليوم ستتوقف مجبرة عن تجارة الحشيش للأبد، ستسلم كل ما لديها من مخدرات لسراج البدوي وفقًا لقرار مجلس الإدارة، كي يتولى توزيعها بصورة عينية على أعضاء الجمعية لضمان المصداقية والشفافية، مع تهديدها بالفصل من الجمعية لو خالفت القرار مرة أخرى.

رغم حسم موضوع أنهار ظل الاجتماع صاخبًا، الأصوات متداخلة ولا أحد يسمع الجالس بجواره، حتى رفع مينا تليفونه المحمول فانتبهوا، وقف وابتعد عنهم وطلب منهم أن يبتسموا، ثم أعاد طلبه بتوسعة الابتسامة والتقط لهم صورة بهاتفه، وراح يُريهم إياها وهم يتضاحكون كالأطفال الممسكين بحلوى، لم يجلس مينا معلنًا من مكانه على رأس طاولة اجتماع الجمعية السرية اقتراحًا جديدًا بتنمية موارد الجمعية بالتجارة في التليفونات المحمولة، هاتفًا بحماس أن مصر كلها الآن تمسك بهاتف محمول.

حصد اقتراحه موافقة بالإجماع والتقطوا صورة ثانية رصهم فيها مينا أمامه، وحدد لهم أماكنهم وصمم على التقاطها لهم بعدما هندموا ملابسهم ووسعوا من ابتسامتهم، عدا أنهار، بدت منكسرة في الصورة مبتعدة عنهم بمسافة وكأنها على وشك الخروج منها.



22

لديه شعور دفين أن لوحته تحتمل المزيد من التفاصيل الدقيقة التي تليق بهم لتخليد مسيرتهم ولو على قطعة قماش، جذب أنبوب ألوان جديدًا بحماس طفل أنهى واجباته المدرسية وتهيأ للهو ، دفع مزلاج الشيش لمزيد من الضوء ، لمح السِّت أنهار مرتدية نظارتها السوداء وفوق كتفيها شال أبيض متوكئة على عصاها، ابتسم وأشعل سيجارة وهو يتابعها ، أدرك أنها في طريقها لرحلة الخروج الموسمية من العزبة التي تطلعها أربع مرات كل عام، هز رأسه يائسًا من عنادها لكنه ظل محافظًا على ابتسامته .

رفعت أنهار عينيها للسماء، اطمأنت على حالة الطقس وبقاء الشمس شبه ساطعة متحدية غيومًا تتربص بها بين الحين والآخر في مناوشات فاشلة، انطلقت في طريقها لباب اللوق مستقلة المترو، ساهمت النظارة السوداء بالاشتراك مع العصا والخطوات المترددة في أن يفسح الركاب لأنهار مكانًا على الفور، غادرت العربة وهي تتحسس الطريق بعصاها، الجميع يفتحون لها سكة مرور ، بعضهم ينبهها لخطواتها على السلم الكهربائي لكنها لا تلتفت إليهم، استقلت سيارة أجرة إلى فرع البنك الأهلي، هناك استقبلها غطاس موظف البنك بترحاب، يعرفها جيدًا مع أنه يراها أربع مرات فقط كل عام مع تغير فصول السنة. "يا عدرا يا أم النور سهلي الأمور".. تمتمت أنهار بالدعاء بعدما أودعت ما في الصُّرة بحسابها، بينما الموظف يدعو لابنها مينا، يعرف منها أنه يعمل مهندسًا ويعيش في دولة الإمارات ويرسل لها نقودًا كل ثلاثة أشهر مع مصريين عائدين، يُصر الموظف كل مرة على سهولة التحويل البنكي حتى لا يرهقها بالمشوار، باعتبارها كفيفة خاصة وأن النقود حولت للجنيه المصري أيضًا، لكنها تردد له الحجج ذاتها، مينا لا يطمئن لتحويلات البنوك بعدما تعرض لعملية احتيال من هنود يقيمون معه، وأنها تحول النقود في مكتب صرافة بحلوان تثق فيه، ومشوار البنك فرصة لتحريك العظام المتيبسة كي تلين، بعدها تكرر الدعاء وتنصرف مستندة على عصاها.

خرجت بعد إيداع كل أموالها هذه المرة، في طريقها لوكالة البلح، عند أقرب ماكينة لسحب النقود توقفت لتسترد بعض ما أودعته منذ قليل بحسابها، ثم دخلت الوكالة بخطى واثقة، لا تنظر يمينًا أو يسارًا مهما كانت إغراءات البضاعة والأسعار، تختار أكشاكًا ودكاكين معينة للتعامل معها، الرابع من اليسار والخامس على اليمين، لا تغيرهما بنصيحة من عبده شنكل، ملابس مستعملة استعمالًا خفيفًا، مناسبة لمقاس لابنها مينا بسبب ضآلة جسمه، اشترت بضع قطع بفصال خفيف ثم عرجت بعدها إلى روض الفرج وتناولت أرغفة الكبدة التي تحبها، جلست على مقعد خشبي حتى انتهت من طعامها، ثم تجرعت زجاجة مياه غازية و تجشأت في صمت.

بعد انتهاء التزود بالطعام تبدأ رحلة الرجوع، طوال طريق العودة تحتفظ أنهار بنظرة صماء للسقف، مرتدية نظارتها السوداء، ترقب بطرف عين اللافتة في كل محطة حتى وصلت لمحطة الجامعة بحلوان. عند نزولها سمعت أنهار شابًّا ينادي:

- برشام الهندسة.. برشام الهندسة يا أساتذة.. برشام الحقوق يا أفندية.. برشام الطب يا حضرات..

اقتربت منه مسرعة فلمحت أوراقًا مبرومة بعناية كقراطيس طويلة يحملها بين كفيه وبلهفة سألته:

- عندك برشام تالتة هندسة حلوان يا بني ربنا يكرمك؟

- لا والله يا حاجة بكالوريوس بس..

تركها وراح ينادي على بضاعته لعل الطلبة أو ذويهم يتعثرون فيه ويشترون منه.

صعدت لغرفتها، على بابها أتاها صوت مينا متحدثًا في هاتفه المحمول، ذهبت لحجرته فراعها مشهد الأسلاك الكثيرة المتشابكة، تبدو كمقبرة هائلة للديدان العريضة، بجوارها عشرات البطاريات الصغيرة ومثلها من القطع البلاستيكية الحمراء، عدادات غريبة بأرقام تتلاحق وتطلق أنوارًا متقطعة، بعضها متصل بقطعة معدنية أصغر من كف اليد تصدر أصواتًا منتظمة كدقات منبه قديم لكنها خفيضة لا توقظ أحدًا، أعطته نصف النقود التي صرفتها، رفض وهي تُصر حتى أخذها، قَبل يديها وهو يدعو لها، لا يزال ممسكًا بهاتفه مُنصتًا باهتمام لمحدثه، فجأة لوّح لها مودعًا بعدما لملم عشرات القطع والأسلاك ككومة واحدة في حقيبة قماشية كبيرة.

رغم هذه المظاهر المفعمة بالود والمحبة إلا أنها أشبه بسينما صامتة، لا يدور حوار بينهما تقريبًا، نظرة عين مينا تنبئ عن غضب مكتوم بداخله، لا تزال بقايا محاولات الانتحار عالقة بأهداب روحه، تركت شظايا أفكار التخلص من الحياة آثارًا على ملامحه، تعمقت بسبب مرات رسوبه العديدة، وربما فُصل من الجامعة لكنه لا يخبر أحدًا، نبوغه في تطويع الجماد الذي يكاد ينطق بعبقريته في توظيفه لخدمة الإنسانية باختراعاته المدهشة، لم يشفع له بالاختبارات العملية بكلية الهندسة، ليمور بركان غضب بداخله، ينتظر لحظة فوران آتية، ربما يخشى مينا عواقبها فيتعمد جعله خاملًا بعض الوقت، لكنه على يقين من بلوغها.

عشرات الاختراعات التي ابتكرها سُجلت بأسماء آخرين لا يعرفون كيفية تشغيلها، أصابه إحباط وصاحبه يأس حتى صارت جبهته لافتة كبيرة للحزن، يرتدي تعاسته كل صباح ولا يخلعها إلا وقت النوم، يقهره أن المتعاملين معه يطلقون عليه اسمًا كوديًّا لا يتغير حتى في عمله بالهواتف المحمولة.. "ابن القبطية"، اسم صار لصيقًا به، علامة مسجلة تسبق كل اختراعاته، لا تمحوها سماحة وجهه ولا حُسن معاملته، ولا حتى خلعه لسلسلة الصليب الفضية التي كان يرتديها باستمرار، فولدت ابتكاراته ميتة مع ذكر اسمه الأول.

بدا مينا بخطواته السريعة وخط سيره المتعرج كأرنب يهرب من ملاحقة ضباع، حاملًا حقيبة متوسطة بها عشرة هواتف محمولة جديدة، تاركًا أنهار تجتر ذكرياتها التي تعيش عليها كدواء لمرض الحزن المزمن.

تراجعت الأم دامعة العينين، لا تدري أهي دموع فرح بابنها الطيب، أم ندم على حالهما سويًّا، أكملت المشوار مضطرة على أمل أن يتخرج مينا مهندسًا، ليبني لها بيتًا تعيش فيه باحترام ما تبقى من عمرها، أمانيها بالحياة اختزلت كلها في واحدة.. الموت على سرير كبير نظيف بدلًا من أن تنهش الكلاب لحمها لو ماتت فجأة بشرفتها فلا تجد من يدفنها، منذ رحيل غالي شعرت بالوحدة والتجاهل فادعت فقد بصرها، لكن كتمان السر أرهقها، صحيح أن نظرها ضعيف لكنها ليست عمياء كما تدعي، أرادت بهذه الحيلة استدرار عطف أهل العزبة ومن قبلهم مينا كي لا يتركها وحيدة، ولو كانت أخبرتهم بأنها تسمع بالكاد بسبب انسداد أذنها المولودة به لما تعاطفوا معها، وربما ضجروا منها.

أغمضت عينيها واستسلمت لهواجس الوحدة وأفكار الضيق، ظلت شفتاها تتمتمان بالدعاء لكن منذ وفاة زوجها والرب لا يستجيب.

*****

وضع غريب أبو إسماعيل لافتة جديدة كبيرة بمدخل عزبة الوالدة تحمل صورته مع الرئيس كالعادة لكنه هذه المرة حذف الآية القرآنية وكتب بدلًا منها «مصر التي فى خاطره» وقف معتوق أمامها متحيرًا في معناها لكنها ذكرته بزهرة الخشخاش التي رسمها وصارت مملوكة لغيره، وزهرة التي أنجبها ورباها ونسبت لغيره أيضًا. طاف الهاجس السخيف بعقله كذبابة لحوحة عندما خرج من متحف محمود خليل بعد زيارة استثنائية لزهرة الخشخاش في طريقه إلى بيت سعيد راديو حيث يلتقي زَهرة ابنته سرًّا مرة كل شهر. لا تكفيه الساعات الثلاث التي تمضيها معه ، يحتضنها ويقبل وجنتيها وجبهتها ويديها، وهي تفعل مثله ، يبكيان ويضحكان ولا يتوقفان عن الكلام، يتأمل وجهها ليرى على ملامحها كل سنين جنونه وانفلات عقله وجنوح أفكاره، لكنها تغمغم بصوت عال وهي تبتسم في حنو ، يفهم أنها سامحته وغفرت له ويكفي أنهما معًا الآن حتى ولو لبعض الوقت.. زياراته الشهرية لها أشبه بزيارة سجين لكن من منهما المسجون؟ محبوس هو في عذابات الوحدة وزنازين الفراق، وهي أسيرة لدى موسى زيدان، تحمل اسمه ولقبه، وعلى وشك الزواج من آخر تقدم لها وخطبها من خالها ولم يستطع معتوق أن يبدي رأيًا.. سيبارك مثل الأقارب والأصدقاء أو حتى مثل أي شخص عادي علم بالخبر، فابتسم وتمتم بالمباركة.

- أنا آسف يا معتوق مرات خالها استعوقتها وكلمتني مرتين.

بدا سعيد راديو مثل سجان قرر إنهاء الزيارة بصوته الأجش وطلته القاتمة، رغم اعتذراه ومحاولته لتلطيف مشهد النهاية كل مرة إلا أن معتوق يشعر بأنها تنتزع قطعة من قلبه وهي تغادر لبيتها، حتى ماتت مشاعره مع مرور الوقت لكن دموعه لا تزال تنهمر.

*****

مثل موظف عتيد في أرشيف مصلحة حكومية يغرق كل يوم وسط عشرات الملفات ومئات الأوراق، كان فارس يختار ركنًا قصيًّا بغرفة الاجتماعات ليغوص في حسابات الإيرادات والمصروفات، يُعيد مراجعة المصاريف النثرية والإكراميات التي تتوه عادة في دفاتر الحكومة ولا يسأل عنها أحد، مع أن الكل يراها وهي تخرج من جيوب لتستقر في أخريات، أما في الجمعية السرية للمواطنين لا يترك فارس مليمًا دون مراجعة أو تدقيق لمعرفة مصدر إنفاقه، وعندما تعثر في مبالغ مالية تقدر بآلاف الجنيهات، تم إنفاقها شهريًّا بصورة منتظمة خلال السنة المالية الماضية دون بيان تفصيلي لأوجه صرفها انتبه ثم تجهم وعبست ملامحه بلا عودة، أعاد حساباته وصمم على تسجيل الاعتراض بالمحاضر كعادته، لكن معتوق أسكته بنظرة غاضبة، ثم همس واعدًا بإخباره بالحقيقة الليلة عندما يكونان بمفردهما في المقهى.

طلب معتوق حجرًا آخر للشيشة وهو يتنهد في ضيق قائلًا:

- راوية جوزها اتجوز عليها وبعدين طلقها لأنها ما بتخلفش، وأنا بصرف عليها وعلى أمها القعيدة بعدما رفدوا راوية من المدرسة وكلفت شاهين يرفع قضية علشان ترجع شغلها. ارتحت والا لسة عاوز تعرف حاجة تانية؟

ظلت ملامح فارس محايدة وهو يقلب نظره بين ورقة يدون بها أرقامًا وبيانات وبين وجه معتوق، ثم عاد يسأل بنبرة محقق متشكك:

- ماشي لكن كان المفروض تعرض الموضوع على الجمعية ونصوت عليه، عمومًا مفيش مشكلة ممكن نسويها لكن لسة في مبالغ بحوالي عشرين ألف جنيه تانيين مش معروف مصدر إنفاقهم ومكتوب جنبهم زَهرة الزيدان. تطلع إيه دي كمان؟

طالت تنهيدة معتوق هذه المرة ولمعت عينه وهو يقول:

- دي مصاريف المحل بتاع جوز بنتي زهرة، بشتري بضاعة من عنده وببيعها بالخسارة المهم إن يبقى معاه فلوس علشان يقدر يسعدها ويهنيها. ده غير إني أبوها يا فارس ولازم أصرف عليها.

بدا فارس سخيفًا وهو يقول لمعتوق:

- هي اتجوزت امتى؟ يعني لا عزمتنا ولا حتى قلت لنا!

أطرق معتوق ولم يرد. فأكمل فارس عمله وكأنه محقق في إدارة قانونية ، قدم ورقة لمعتوق وهو يقول:

- لكن المصاريف وقفت من سنة يا معتوق.. أنت دخلتها مع مصاريف الجمعية والا إيه؟

أفرج معتوق عن تنهيدة أخرى من بين ضلوعه، ثم أخذ وقتًا ليستجمع إجابته بينما نظرات فارس المتشككة تزداد لمعانًا، ثم قال:

- لأني ببساطة توقفت عن الشرا والبيع.. جوز بنتي فلس والمحل اتقفل وسافر يشتغل في السعودية حاليًّا وبنتي معاه، وبطمن عليها من بنات سعيد راديو لأنهم بيبعتوا لها جوابات وبيكلموها على تليفون بيتها لكن أنا ....

بلعت دموع صامتة بقية كلامه، شعر فارس فجأة أن دلوًا مملوءًا بماء بارد سُكب على رأسه، فلملم أوراقه ليسوي حساباته بدفاتر الجمعية واعدًا معتوق بكتمان السر، ثم تمتم بكلمات اعتذار غير واضحة وإن بدت خجلة، مضى لبيته، تاركًا معتوق يغالب أحزانه، وهو يتذكر المرات العديدة قبل سفرها والتي كان يجلس فيها بالمقهى المواجه لمحل زوج ابنته زَهرة بعدما عرف من سعيد راديو أنها تتردد عليه كل خميس، فاعتبرها زيارة استثنائية خاصة يكفي أن يراها فيها ولو من بعيد، ها هي حضرت في موعدها المعتاد، ظهر الخميس من كل أسبوع، لحظتها يعتدل معتوق في جلسته ويترك مشروبه ويطفئ سيجارته، لتلمع عينه كل مرة كأنها الأولى، يُرضيه أن يطمئن ولو من بعيد حتى يحين موعد اللقاء الشهري، يسعده أن تكون أحوالها جيدة حتى لو ظلت بعيدة عن حضنه، لكن مَسحة حزن تكسو وجه الابنة تقلقه، تطير النوم من عينه كل مرة، تشغل تفكيره وتطرح عشرات الأسئلة بلا أجوبة، وهو لا يملك إلا النقود، ولا يزال يؤمن أنها تجلب السعادة.

انصرف الرواد وبقي معتوق بمفرده في ركن مظلم، انبعثت من راديو المقهى أغنية شعبان عبد الرحيم التي يُحب فيها وزير الخارجية ويكره إسرائيل، هزت الأغنية أرداف المواطنين فقط بعدما صارت فقرة ثابتة في أفراحهم، ربما الوحيد الذي حركت الأغنية مشاعره وجعلته يبكي هو

معتوق، بعدما دارت عدة مرات يوم فرح ابنته زهرة بنادي المياه بإمبابة، ظل ليلتها واقفًا خلف السور الحديدي الخفيض عندما منعه خال ابنته من حضور الفرح، رأى زهرة جالسة في كوشة صغيرة محاطة بالورد بجوار عريسها الذي اختاره أبوها الرسمي موسى زيدان، على مقربة رأى بوضوح أسعد جرجس خال أم العروس كما قدموه لأهل العريس، انشغل أسعد في التقاط عشرات الصور وهو يبتسم في حنان للجميع، ثم راح يلقي طرفة على منضدة، ويتجاذب أطراف حديث قصير مع الجالسين حول أخرى، يتلطف مع سيدة جميلة ويمزح مع عجوز من عمره، ظل يدور على المناضد لينثر البهجة كعادته بعدما رفض تقاضي أجر هذه المرة عن دوره معتبرًا زهرة مثل ابنته كما قال.

بكى معتوق ليلتها كما لم يبكِ طوال حياته، قبض بكفيه على أسياخ السور التي تفصله عن ابنته زهرة، لم يرفع عينه من عليها عبر الفتحات الضيقة وهي شعرت بوجوده فوجمت بقية الحفل ولم تستطع مقاومة اختلاس نظرة لوجهه كل برهة حتى جذبها المدعوون إلى الرقص فتاهت وسط الزحام، تلك اللحظة التي شعر فيها معتوق بأنها سلبت منه إلى الأبد، لم يعد موسى سارقها الأول والأخير، صار هناك رجل آخر سيتشارك فيها معهما، وربما تلد أطفالًا ثم يصير لها أحفاد، ستبتعد باسمها الجديد واسم عائلة زوجها، ستكون هناك أسرة مزيفة لكن الناس ستصدقها، سينال وحده جزاء الكاذب الذي أفرط في الكذب، فلن يصدقه أحد إذا قال الحقيقة بعدها ولو لمرة واحدة في حياته.



23

تصاعد الدخان كثيفًا من بين أسياخ الشواء حتى غطى وجهيهما، اقترب معتوق من فتحي السماوي وشنكل الواقفين بجوار الشواية يكادان يلتصقان بها، يستنشقان الروائح المنبعثة منها ويبتسمان في لهفة، أشار السماوي لقطعة لحم كبيرة وهمس لشنكل باسم الكلب صاحبها، رفع شنكل يديه للسماء وهو يترحم عليه قارئًا الفاتحة بصوتٍ عالٍ لينفجرا ضاحكين، منذ عام توقفا عن أكل لحوم الجمعية بعدما وجدا أن كبد الكلاب أطرى وأطعم فأدمناها، حتى لحوم البلدية لم يعد فتحي يختلسها لرداءة طعمها فاكتفى بتسميم القطط بها حتى لا تنافس كلابه لدى الجزارين، ظلا يمزحان في انتظار نصيبيهما من الشواء إلى أن فوجئا بمعتوق يقف خلفهما بعيون دامعة وملامح حزينة، أخبرهما بكلمات قليلة عن وفاة أسعد جرجس وهو راقد في فراشه، قلص الخبر معدتيهما، أنزل شنكل كفيه وتجهمت ملامح السماوي، أكملا قراءة الفاتحة سرًّا، ثم راحا يدعوان لأسعد بالرحمة.

بعد انتهاء مراسم الدفن والجنازة التي تحملت الجمعية السرية مصاريفها بالكامل، اكتشفوا بعد العبث بأوراق أسعد جرجس أن الفتاة التي تعيش معه ليست حفيدته إنما ابنته، فتاة عمرها أربعة عشر عامًا كانت ثمرة لعلاقة عابرة بينه وبين ممثلة مغمورة، اشتهرت مؤخرًا وتزوجت منتج أفلامها، فاحتفظ أسعد بالبنت وسارت الفنانة في طريق الشهرة متخففة من حملها وهمومها، يبدو أن أسعد خاف عليها من إشاعات تعرقل مسيرتها فكتم السر وحده، كما استنتج معتوق.

احتشد العشرات من العائلات التي ناسبها أسعد جرجس في سرادق العزاء الذي أقامته العزبة لأسعد بعيدًا عن الكنيسة، سرادق تأبين بلا قرآن ولا تراتيل أو وعظ، فأسعد قريب لكل بيت في عزبة الوالدة ولا يصح تصنيفه وصدمة محبيه وجمهوره، كل الذين صدقوا كذبته تواجدوا وبكوه في صمت، ودعوه مفتقدين نسبه المشرف، وحكاياته عن الفن والفنانين الذين لم يحضر منهم أحد.

انتهت الدقيقة حدادًا وقوفًا على روح أسعد جرجس ودعاهم معتوق للجلوس كي يكملوا اجتماعهم العادي، وافق مجلس إدارة الجمعية السرية بالإجماع على تبني ابنة المرحوم أسعد جرجس لتنتقل

وتعيش مع أنهار بغرفتها مع التكفل بمصاريفها حتى زواجها، ثم انتقلوا لجدول الأعمال، فوافقوا بعد نقاش طويل وبأغلبية محدودة على تفرغ زكي الساكت لمهنته الجديدة، بعدما قطع فيها شوطًا طويلًا وراح يُعلم الشهود الجدد، صارت هناك مدرسة في الشهادة الزور تحمل اسمه، ورغم طابعها الكلاسيكي إلا أنها أخرجت دفعات كثيرة من شهود الزور أو كما يطلق هو عليهم "فاعل خير". رغم تفرغه استمر الساكت في وظيفته الحكومية كناسًا ببلدية حلوان، اعتمد على زميل له، يوقع في دفاتر الحضور والانصراف بدلًا منه مقابل ثلث الماهية، يتواجد زكي يومًا واحدًا في الأسبوع الرابع من كل شهر لكي يراه مسؤول البلدية ويقبض راتبه بغير حوافز، لا تهمه الخسارة المالية، فما يكسبه في الشهر من الشهادة يفوق مرتبه السنوي بحسنات أصحاب السيارات، صحيح أن مهنته كشاهد زور لن تضمن له معاشًا، لكنه يستطيع أن يمارسها مدى الحياة طالما يسمع ويتكلم، فلم يعد مهمًّا أن يرى.

*****

- قول والله العظيم أقول الحق..

يُعيدها زكي الساكت على مسامع عبده شنكل قبل أن ينطق الأخير حرفًا مما نوى الحكي عنه. كانت الرياح سريعة مزعجة، أطرقت الرؤوس وانكمشت رقاب الداخلين للمقهى بين كتوفهم وهم محشورون به، يراقبون الطريق والمارة من وراء زجاج.

كان شنكل قد دخل مسرعًا، تلفت يمينًا ويسارًا في عجالة، اقترب من زكي الساكت ملوحًا بالسلام، أشار له الساكت بعينه لإحضار مقعد قريب ثم دعاه لكوب شاي، لكن شنكل رفض متحججًا بأنه على عجالة، ثم همس لزكي الساكت وهو يكرر سؤاله ظنًّا منه أنه لم يسمعه:

- بقول لك عاوزك في شهادة بعد أسبوع في المحكمة.

ابتسم الساكت وهو يتعجل طلب الشاي قائلًا بصوت خفيض:

- يا واد ما أنا قلتلك مرتين قول والله العظيم أقول الحق قبل ما تحكي، علشان أصدقك والقاضي من بعدي يقتنع.

لا يبادله شنكل الابتسام، يُقسم باليمين والجدية تتقاسم ملامحه مع القلق، ثم يحكي للساكت في ضيق ما جرى للمدرب كرداسي منذ يومين، عندما باغته أربعة رجال بعد منتصف الليل، قطعوا عليه الطريق وأوسعوه ضربًا، ثم سرقوا ساعته وحافظة نقوده التي تحوي راتبه، مال شنكل ناحية الساكت وهو يقول:

- ولو عاوزني أشهد معاك علشان تطمن أنا جاهز.. لأني عارف إن كرداسي بيقول الحقيقة.

يحك الساكت ذقنه وهو يتفحص شنكل، يصدقه، ملامحه تشي بذلك رغم كونه لصًّا سابقًا، لكن الساكت لا يريد استثناءات على اللاءات الثلاثة التي ألزم نفسه بها، لا شهادة في جنح الضرب والسرقة، لا توقيعات على أوراق نقل ملكية بالشهر العقاري، ولا اقتراب من جنايات القتل وتجارة المخدرات، يؤمن أن ربه يسترها معه أمام القضاة لابتعاده عن الدم والمال والصحة.

قرأ شنكل تردده، فقال مستنكرًا وقد تقلبت سحنته:

- ما هو كله شهادة زور يا عم زكي، على الأقل دي بحق وحقيقي.. انطق كلمة حق واعتبرها زكاة عن شهادتك.

اعتدل الساكت في مقعده، ووضع ساقًا فوق أخرى، سحب نفسًا طويلًا من شيشته ثم ردد على مسامع شنكل مقاطع من فلسفته عن الشهادة على مدار السنوات الفائتة، حتى صار كبيرًا للملقنين بالمقهى قائلًا:

- اسمعني كويس .. في فرق بين اللي بتطلبه واللي بنعمله، المبدأ إن مفيش ست تعيش مع راجل بالعافية، والراجل اللي يعاند مراته ويسيبها زي بيت الوقف يبقى لا مؤاخذة معندوش دم ولا نخوة، والست اللي تحرم العيال من أبوهم ما تستاهلش تكون أم، أما كرداسي بتاعك ده رغم إنه ممكن يكون انضرب واتسرق، بس مين عالم أصل الحكاية إيه، ما يمكن هو صاحبهم وكان مديون لهم بقرشين وبيلاوعهم، فأخدوا حقهم بإيديهم بالطريقة البلدي بتاعتنا.

- قُصره.. حتشهد والا طق حنك وحتفضل تسمعني كلمتين إنشا زي اللي بيقولهم مدحت الصيدلي في خطبة الجمعة؟

لم ينتظر شنكل إجابة عن سؤاله، أخرج من جيبه صورة فوتوغرافية ومئة جنيه، وضعها أمام الساكت واعدًا إياه بمئة أخرى بعد الجلسة، يعرف شنكل مدى ضعف الساكت أمام النقود فتعمد أن يقدمها له فئات صغيرة ليتمادى في عدها أمامه.

نهض شنكل ونظر لساعته متجرعًا ما تبقى من كوب الشاي وانصرف قلقًا كما جاء. تأمل الساكت الصورة وتجاهل النقود، خمسة أشخاص يقفون مبتسمين كأصدقاء قدامى بأحد إسطبلات الخيل، وضع شنكل دائرة حمراء على وجه كرداسي وكتب فوقها اسمه، أما الأربعة الآخرون فاكتفى بترقيمهم على التوالي ملخصًا حالهم بكلمة واحدة.. "الحرامية".

تشكلت ابتسامة باهتة فوق شفتي زكي الساكت، ثم طوى الصورة مع النقود ووضعهما في جيبه.

*****

قبل أن تدور أسطوانة أم كلثوم بقصيدة أغدًا ألقاك غيّر معتوق رأيه، أعاد الإبرة مكانها، ورفع الإسطوانة واضعًا أخرى ليبدأ الطباعة وذهنه منشغل في وسيلة لحفظ نقوده مؤقتًا لحين تصريفها، قرر أن يفاتح شاهين والي بمفرده بدلًا من جمعية عمومية غير عادية ستصدع رأسه، لن يسلم من أسئلة فارس وشكوكه وتعنته في الموافقة على المصروفات، ولن يستطيع تفادي غباء وعناد فتحي السماوي، وروتينية تفكير سراج وتردد سعيد راديو، وتحفز أنهار بعد رفض التجديد لها بتجارة الحشيش، حتى زكي الساكت رغم قرار تفرغه للشهادة وإعفائه من حضور الجلسات لا يوقع على المحاضر إلا بعد تدقيق. جلس يدخن بشراهة أمام الماكينة حتى انتهت كوكب الشرق من وصلتها الثالثة، لملم النقود ووضعها في جوال كبير بجوار أجولة أخرى، تحولت غرفة الطباعة إلى مقبرة أموال وهو ما بات يقلقه مؤخرًا حتى اهتدى إلى حل لكنه لم يطمئن له بعد. أفضى بهواجسه في حِجر شاهين الذي صرخ في وجهه:

- إنت مجنون عاوز تروح البنك تحط فلوس مضروبة عندهم؟

سأله شاهين مندهشًا وهما جالسان في مكتبه، لم يجب معتوق عن سؤاله، وراح يطرح المزيد من الأسئلة كي يتأكد من صلته الوثيقة بمدير البنك الأهلي فرع حلوان، أكد شاهين للمرة الرابعة أنه أحد أهم موكليه وصارت صداقة بينهما بعدما كسب له العديد من القضايا، ثم ابتسم بخبث كعادته وهو يخبره بأن كل أمواله مودعة في هذا الفرع باعتباره من كبار العملاء. نهض معتوق وقد عزم على أمره قائلًا:

- توكلنا على الله.

طوال اللقاء الذي جمعهما بمدير الفرع ظل شاهين مذهولًا، معتوق يتحدث بثقة والمدير يرحب بهما ويلبي طلبات معتوق باعتباره صديق صديقه، خرجا من مكتب المدير بعد ساعة أنهيا فيها الإجراءات وستة فناجين من القهوة متوجهين إلى غرفة الخزائن بصحبة موظف خصصه المدير لهذه المهمة، عند باب الغرفة المصفحة لاحظ معتوق وجود كاميرا تسجل الداخلين، أشار ناحيتها مبديًا قلقه سائلًا عن الخصوصية المطلوبة لمن يستأجرون خزائن بالبنك، أكد له الموظف أن الكاميرا حدودها عند باب الغرفة، وبعدها سيدخل بمفرده ولا توجد كاميرات بالداخل.

أدار الموظف مفتاح الخزانة وسلم الثاني لمعتوق وخرج مغلقًا الباب خلفه، جذب معتوق الصندوق المعدني الفارغ من تجويف بالحائط بعدما أدار مفتاحه في قفل الخزانة، تأمل الصندوق بلهفة استقبال مولود جديد، اتسعت ابتسامته بعمقه وهو يفرغ ما في جيوبه من نقود مزورة كنواة أولى للخزينة المستأجرة باسمه بالبنك، حتى يطمئن على أمواله بدلًا من حفظها بغرفته في أجولة.

أطلق تنهيدة طويلة وهو يستقر بمقعده في سيارة شاهين بعدما أودع عشرة آلاف جنيه، لكن قلق شاهين لا يزال كثيفًا، قبل أن تنطلق العربة طمأنه معتوق ضاربًا المثل بأنهار التي لو أرادت مخزنًا آمنا للمخدرات التي كانت تبيعها فلن تجد أفضل من خزانة البنك الحكومي التي لا يدخلها أحد، ولا يمكن فتحها إلا بمفتاحين أحدهما مع معتوق وحده. وكلما أراد تمويل نشاط الجمعية أو توزيع الأرباح سيذهب إلى البنك لكي يعطوه المفتاح الثاني، ويسحب من رصيد خزانته الآمنة.

لم تهدأ ملامح شاهين وإن راحت تقلصاتها، سكت معتوق برهة منشغلًا بتحسس جيوبه قلقًا ثم قال:

- تصدق بالله أنا من الاستعجال حطيت حتة الحشيش اللي كانت معايا في الخزنة.. أظن إنت كده اطّمنت أكتر.

أطلق شاهين ضحكة عالية غطت على صوت موتور سيارته التي انطلقت مزمجرة وهو لا يتوقف عن دق نفيرها ابتهاجًا بالنصر.

*****

يبدو أن الروتين لن يتغير في كل القطاعات الحكومية حتى قيام الساعة، حصة التاريخ هي الأولى كل ثلاثاء منذ كان معتوق طالبًا بالمدرسة ذاتها، أسرع الخطى حتى بات مهرولًا ليلحق بها، يريد أن يراها ويسمعها ليضيف لذكرياته فصلًا جديدًا، فذاكرته باتت لا تحتفظ إلا بالحقيقي وتطرد المزيف تباعًا.

كسب شاهين والي القضية وعادت راوية للتدريس بمدرستها، ها هي تقف أمام تلاميذها وهو مكانه خلف النافذة، صحيح ملامحها انطفأت قليلًا وخفت بريق عينيها، حاول الزمن النيل منها عبر السنين الفائتة لكنه لم يفلح تمامًا، لاحظ هالات سوداء تغطي أعلى وجنتيها كأنها تتغذى على الأرق، شفتاها تتحركان لكنه لا يسمع ما تقوله بوضوح، لمحته راوية بطرف عينها، لا تزال عاتبة عليه، لم تنس أنه خذلها في لحظة فارقة رغم أن القدر فاجأها بطلاقها لأنها عاقر، حوم طيف ابتسامة على شفتيها حسبما خيل لمعتوق، ثم أشارت راوية لطالبة كي تجعل نافذة الفصل التي يقف خلفها مواربة، رفعت من صوتها وهي تحكي مرفوعة الرأس واثقة كأنها تستكمل ما وقفت عنده أمس، لا منذ سنوات طويلة أجلستها فيها الحكومة ببيتها.. قالت: "لم تكن الإمبراطورة أوجيني تدرك ما تخبئه لها الأقدار، لم تستطع الزواج من إسماعيل فتركته وتزوجت غيره، حتى مات زوجها في اليوم الذي تنازل فيه الخديوي عن عرشه لابنه توفيق، اضطربت الأوضاع بفرنسا وهربت أوجيني خائفة مذعورة بينما الثورة تهدر وراءها، فرت إلى لندن معفرة الثياب والوجه، غريبة، مطاردة، وحيدة، لكن الخديوي جدد عهده باحتوائها والاهتمام بأحوالها ورعايتها كما كان، ظل وفيًّا لحبها حتى مات، عادت في أيامه الأخيرة، واقتربت منه عندما التقيا هناك في مدينة

النور، لم تكن نادمة بل متسامحة، مُحبة وعاشقة كما كانت، حتى ولو فات الأوان كما سألها إسماعيل وهما يسيران على ضفة النهر كعادتهما، يومها هزت رأسها بالنفي وهي تبتسم له ابتسامة واسعة، وأخبرته أن لكل جسد أوانًا، أما المشاعر فلا تموت أبدًا".



24

عبأ دخان السجائر حجرة الاجتماعات حتى غطى وشوشهم، الرأي لا يزال منقسمًا بينهم، موضوعات كثيرة مطروحة للمناقشة في جدول أعمال الجمعية السرية، المشكلات معقدة والأعباء تزيد والإيرادات محدودة كي لا ينكشف أمرهم إذا ما أفرطوا في الطباعة، اتفقوا في اجتماع سابق على تقديم مساعدات للمطلقات اللاتي يشهد زكي الساكت لصالحهن في القضايا، فقدم لهم كشفًا بالأسماء، كلفوا يومها سراج البدوي بإجراء التحريات عنهن، ولحين ورودها بدأ عبده شنكل في توزيع المعونات المالية بطريقته، وكلما واجهته صعوبات في الدخول عبر الشرفة كان شاكر الجهيني يتولى إرسال المعونة بالبريد. حتى تفجرت مشكلة اليوم بسبب ما أسفرت عنه تحريات سراج البدوي، اكتشف من مصادره زواج زكي الساكت عرفيًّا من إحدى المطلقات التي شهد لصالحها، اعتبر سعيد راديو وشاكر أن تصرفه يشكل تعارض مصالح، وهتف فتحي السماوي أنه لا يصح أن يستفيد زكي الساكت من عضويته بالجمعية، ثم ثار فارس وتحمس مطالبًا بفصله، لكن معتوق لا يريد انقسامًا يهدد جمعيته بشرخ لا يستطيع ترميمه إذا ما فتح الساكت فمه وتكلم بعد خروجه من الجمعية.

لجأ معتوق للتصويت على مضض، صوتت الجمعية على استبعاد المطلقة من الكشوف مع توجيه اللوم للساكت، وظلت بقية الموضوعات مُعلقة، انقسمت الآراء مرة ثانية حول فكرة جديدة طرحها معتوق لتطوير العزبة، الأغلبية رأت أن ذلك دور الحكومة وعضو البرلمان غريب أبو إسماعيل، لكن معتوق وفارس الذي انضم إليه تزعما الجناح الثوري الراغب في نقل العزبة لمصاف الدول المتقدمة مثلما تكتب الجرائد عن القاهرة منذ خمسين عامًا. ومع دخول الاجتماع في ساعته الثالثة انضم لهم شنكل والسماوي وسعيد راديو بعدما شعروا بالملل. بينما ظل سراج متحمسًا متعجلًا للقرار بعد ما رأى الكشك الخشبي بقعة حمراء على الرسم الكروكي لتطوير المنطقة الذي أبدعه معماريًّا الشاب مينا.

أشعل معتوق غليونه وهو يعدهم بأعوام رخاء وليس عامًا واحدًا، نجح في نهاية الاجتماع في انتزاع موافقة بفارق صوتين لصالحه على مشروعه الجديد، وبعد أسبوعين انتهى شاهين من استخراج التراخيص والموافقات ليبدأ العمال في الحفر والبناء. لم يكن معتوق ليقبل ترك غريب أبو إسماعيل يُقيم معهدًا أزهريًّا للفتيات ومستوصفًا بالعزبة يديره مدحت الصيدلي وإخوانه، دون إقامة شريط قطار حضارة موازيًا لتسير الحياة في خط مستقيم كما يريدها.

بعد ستة شهور من اجتماع الجمعية الذي وافقوا فيه على القرارات ظهرت المكتبة للنور، وبجوارها تلألأت قاعة فنون صغيرة تعرض لوحات لفنانين مغمورين، وملحق بها مرسم صغير لتعليم أطفال العزبة، وعلى مقربة منها كان مبنى المغزل على وشك الانتهاء ليستقبل الفتيات والشباب ليتعلموا حرفة جديدة، أما كشك سراج فتم تأجيله لحين صدور التراخيص، لكن فرحة معتوق وهو واقف مع فارس يتأملان المباني الجديدة طارت عندما هاتفه شاهين وهو يزف إليه الخبر بحضور المحافظ لافتتاح المشروعات صحبة غريب أبو إسماعيل عضو البرلمان عن عزبة الوالدة. عاد شبح غريب للظهور بعدما نسوه على مدار السنوات الماضية التي كان يفوز فيها بمقعد الدائرة بأغلبية ساحقة.

قبل أن يجد معتوق وسيلة لإفساد حضور غريب باغته سراج البدوي القادم من الخلف هامسًا:

- بلاش تبات في أوضتك الليلة يا ريس.

قالها سراج وانصرف تاركًا معتوق في حيرة أكبر، لا يعرف مصدر الخطر ولا عواقبه، هل اكتشفوا أمر الجمعية وحان أوان إغلاقها لتداخلها مع صميم اختصاصات الحكومة، أم أن القدر يخفي له مفاجآت أخرى كعادته في لعبة التوقعات؟! لم تطل حيرته، سمع صوت السرينة يعلو ووجد سيارة شرطة تقترب منه، يجلس بها ضابط جَهْم أشار له بكفه ليقف مكانه فامتثل، قفز من صندوق العربة الخلفي شخصان أحاطا به وجذباه برفق لتنطلق العربة بهم إلى قسم حلوان، في حين اكتفى فارس بدور المتفرج الصامت قانعًا.

في المساء زاره شاهين بالحجز وطمأنه على خروجه بعد يومين بالضبط، ولما استفسر منه معتوق عن سبب ضبطه، تلفت شاهين حوله ثم مال على أذن معتوق قائلًا:

- غريب أبو إسماعيل طلب إنك ما تحضرش احتفال المشروعات وسراج عرف المعلومة لكن متأخر شوية.

- لكن دي أفكاري، والمشروعات من فلوس الجمعية بتاعتنا.. لا غريب ولا المحافظ صرفوا جنيه واحد عليها.

- بس همّا زي أهل العروسة يعني أصحاب الفرح يا معتوق.. ولازم الناس تباركلهم حتى لو ما صرفوش مليم عليها.

تركه شاهين غارقًا في أسئلة كثيرة ربما يعرف إجابات لبعضها لكنه لم يعد يهتم ببقيتها، صار طرح السؤال يُرضيه ويكفيه عن تلقي أجوبة تؤلمه وتجر عشرات الأسئلة وراءها، رغم ضيقه وضجره قرر أن يُسلي وقته بالقسم، فطلب من شاويش الحجز لقاء ضابط المباحث، فأذن له بعد ساعتين من الإلحاح.

- نعم يا فنان.. خير.. إيه اللي مش عاجبك في التخشيبة بتاعتنا، لون الحيطة ولا ديكور المصاطب؟

بادره رئيس المباحث بهجوم مباغت لكن معتوق كان مرتب الأفكار، مستعدًّا لإثارة أعصاب الضابط فقال بهدوء:

- حضرتك أنا محتجز هنا بصورة غير قانونية ومفيش اتهام محدد.

- معلش يا فنان استحملنا يوم والا اتنين، واعتبرهم زكاة عن حريتك.

- هو حضرتك قريت الدستور؟

رمقه الضابط بنظرة فاحصة وهو يبتسم نصف ابتسامة مستنكرة قائلًا في تهكم:

- لأ يا روح أمك.. مستني لما يعملوه فيلم وأشوفه في السينما.

بات معتوق ليلتين في القسم بلا نوم، حرموه من فرحة استقبال المواطنين بمواليد جمعيته السرية، ربما كان القدر رحيمًا به هذه المرة مثل أخريات سابقات، لم يكن معتوق ليتحمل وصول غريب أبو إسماعيل في سيارة المحافظ، وخلفهما سفير بلجيكا بالقاهرة، وكيف اتسعت ابتسامة غريب حتى كادت تلامس أذنيه وهو يقص الشريط الأحمر، ثم انحنى ليقبل وجنتي طفلة ترتدي حجابًا وتحمل مصحفًا كبيرًا وبعض الزهور، راح غريب يشرح للمحافظ والسفير البلجيكي كيف ومضت الفكرة في رأسه حتى نفذها بمعاونة أهالي المنطقة وبإشراف وتمويل محافظة القاهرة، أفاض وأسهب في العائد الاجتماعي والمردود الثقافي، ولم ينسَ في الختام الإشارة للقيادة الحكيمة التي تنبذ الإرهاب وتحاربه بنشر الثقافة.

ابتلع التصفيق بقية حواره، وعلا هتاف شباب الحزب الوطني المتجمعين منذ الصباح باعتبارهم رواد المكتبة وقاعة الفنون وأصحاب المواهب المدفونة، والذين أجروا عشرات الحوارات مع التلفزيون المصري حول التجربة التي اعتبروها ناجحة قبل أن تنطلق، ثم انفضّ المولد وأغلقت المكتبة والقاعة، أما المغزل فلم يتم افتتاحه لعدم جاهزيته فاكتفوا بتكفينه في علم عريض لمصر وكأنه ضريح ضخم.

*****

نادى شاويش الحجز بصوته الأجش على معتوق باسمه ثلاثيًّا، لكنه لم ينتبه إلا عندما تلقى صفعة غادرة ثقيلة من أحد المحتجزين، أفاق من غفوته البسيطة ليجد الذي صفعه متنمرًا كأنه عدو له، خرج من الزنزانة مع الشاويش في حيرة ليجد شاهين في انتظاره بحجرة المأمور بعدما قرروا الإفراج عنه، في الطريق لم ينطق معتوق وربما لم يسمع كلمات شاهين وهو يحكي له عن الافتتاح وفرحة أهل العزبة، تشغله الصفعة التي تلقاها بلا سبب واضح، حتى أراحه نسبيًّا تفسير شاهين أن الضعيف يصفع من هو أضعف منه ليخفف عن نفسه آلام الصفعات التي تلقاها من الكبار.

طوال الطريق ظل يتصفح الجرائد صامتًا حتى وقعت عينه على الخبر والصور المرفقة به، تجاهلت عيناه غريب أبو إسماعيل عمدًا ولم يتوقف عند المحافظ طويلًا، لكن لفت انتباهه شخص

بملامح أوروبية يقف وسطهما، وكلمات الخبر تشير إلى أنه سفير بلجيكا بالقاهرة.

- همّا عزموا السفير البلجيكي كمان على بنات أفكاري يا شاهين؟

تلعثم شاهين وهو يرد قائلًا:

- أنا حقولك الحقيقة علشان ترتاح، الموضوع يا سيدي إن الاتحاد الأوروبي كان مقدم منحة لمحافظة القاهرة باتنين مليون يورو لتطوير العزبة، فالمحافظ زي ما تقول كده اعتبر مشروعاتك ضمن أعمال التطوير، وجابوا السفير يشوف الإنجاز الوحيد اللي اتحقق بعد ما أغلب فلوس المنحة طارت في المكافآت والبدلات والحوافز.

طوى معتوق الجريدة ومشاعر متباينة تتنازع بداخله ما بين الغيظ والبكاء، رغم حزنه المخنوق بحلقه سأل شاهين عن سر معرفته بكل هذه التفاصيل الدقيقة والتي تعتبرها الدولة عادة من الأسرار، فتتركها على هيئة إشاعات للمواطنين، بغرض التسلية كالكلمات المتقاطعة لكن حلولها لا تنشر غدًا، أوضح شاهين في خبث هذه المرة أنه يعمل منذ عامين مستشارًا قانونيًّا لمحافظة القاهرة، وبحكم وظيفته صاغ بنود اتفاقية التعاون بين الاتحاد الأوروبي والمحافظة لإنشاء مكتبة وقاعة فنون وأخرى للحرف اليدوية، بعدما وافقت الجمعية السرية على إقامتها. ثم أردف مستنكرًا:

- أومال حضرتك كنت فاكر الموافقات صدرت بسرعة ليه؟!

شعر معتوق أنه مثل ورقة شجر جافة ترتجف في نهايات الخريف، ظل يتفرس في وجه شاهين المفعم بالخجل والحرج مشدوهًا وكأنه يسمع كابوسه يتلى على مسامعه مرة ثانية بعدما أفاق منه.

*****

تسحبت كقطة تعبر الطريق الذي طالما سارت فيه بقلبها ، أغلق معتوق الباب برفق واحتضنها ، ظلا واقفين مكانهما لفترة طالت حتى تأججت الرغبة ، غابا في قبلة طويلة ثم أعادت رأسها للوراء

وهي تهمس له بأن يرسمها .. جلست أمامه عارية ، أرادت التحرر من كل ما علق بروحها عبر السنين، لكنها نسيت لوهلة أن الجسد تغير وتبدل والعين كاشفة، التجاعيد يستسلم لها الزمن ويبيح لها كل مناطق الجسد الحلوة، لتغزوها وتحتلها بأريحية دون مقاومة تذكر، رغم ذلك فالرغبة لم تفتر، والجنس بينهما حياة لا لحظة عابرة لانفعال حسي، تعبير عن مشاعر حقيقية لا إفراغ رغبات مكبوتة، اقترب منها ليعدل من جلستها قبل رسمها، تلامسا بمتعة كأنهما يستعيدان أيام شباب ولى لكنه لم يغب، رغم الترهلات والندوب التي حفرها الزمن وكونتها السنون لا تزال راوية شهية في عينيه.. ربما ذبلت الوردة قليلًا، لكن رائحتها لا تزال فيها، فواحة، مبهجة، عاد لمكانه وضرب فرشاته في قطعة القماش اللينة الطرية ثم ابتعد عن اللوحة مرة ثانية بعدما اكتفى بخط مستقيم، سار عليه مطمئنًّا واثقًا لأول مرة، اقترب أكثر، تشمم عطرها، مسَّد على شعرها بحنو، تذوق شفتيها على مهل حتى ذابتا بين شفيته، احتضنها وأصابعهما تتشابكان في عناق آخر، جذوة الرغبة تومض ببطء، تحاول وتقاوم بعناد ورغبة مملوءة بالشغف ومغلفة بالمحبة لتنضج على نار الشوق بلطف، ربما شعلتها خافتة لكنها تجاهد لتنير.. يحفزها فتعلو وتتوهج، يلتحمان ويذوبان كجسد واحد، سرت الدماء في العروق وتدفقت بغزارة فتوردت ببهجة.. تحركت عربة الرغبة تجرها خيول اللذة فراحت ترمح بها لتعوض ما فاتها، ركضت لمسافات لم تكن تتخيلها دون أن تتعب، تمايلت الأريكة العريضة وهما يتقلبان عليها ويهتزان بقوة حتى سكن جسد معتوق أولًا، هبط من فوقها برفق ليتمدد وهو يلهث مبتسمًا.. ابتسامة رضا، ابتسامة عودة للوطن من غربة طويلة، ابتسامة من يعلن بفخر أني فعلتها ولا يزال حبها بداخلي، تبادله راوية الابتسام وتغمض عينيها وتقترب هامسة باسمه فقط، تلتقط شفتيه كمغناطيس وجد قطعته التائهة، تدور طاحونة قبلات هادرة ليقبض بكفيه على أسفل ظهرها ويضمها نحوه، تتشابك كفاها خلف عنقه، التصقا للحظات ربما كانت قصيرة هذه المرة لكن كل منهما يتمناها للأبد، انتهيا ووضعت رأسها على صدره وهو يحتويها بذراعيه، أغمضا عينيهما وربما راحا في حلم جميل في غفلة من القدر الذي لو رآهما الآن من بعيد فلن يفكر مرتين في أن تكون تلك اللوحة بعنوان وحيد «انتهينا لكن أرواحنا لا تزال تشتهي«.



25

أغاب الليل الشمس لكنه لم يستطع برياحه الباردة إزالة أثر دفئها بسهولة، تثاءب سراج البدوي رغم تناوله كوبين من الشاي، ثم نادى على صبي المقهى طالبًا منه وضع حسابه على النوتة، همَّ بالنهوض، فباغته فارس بسؤال حرج:

- معانا والا علينا يا بطل أكتوبر؟

يطربه اللقب ويوجعه السؤال في آن، لا يريد الاشتباك مع الحكومة في العلن وهو يعمل مرشدًا لها، يرفع إصبعيه بعلامة نصر ولا يقصد معناها، يشعر دومًا أنه مهزوم من داخله، فانسحب بهدوء من المقهى كقط تظاهر بالشبع من طعامه عندما لمح كلبًا قادمًا نحوه.

سار سراج مُطرقًا في طريقه لغرفة معتوق فوق سطح البيت الذي يسكن بطابقه الأرضي، وبعدما كلَّت يده من الطرق صاح:

- إنت أطرش؟ أنا بقالي ربع ساعة واقف أخبط على الباب.

رماه معتوق بنظرة بليدة ولم يبرر له سبب تأخره في فتح باب الغرفة، استعدل بنطاله وأغلق باب دورة المياه ثم تهاوى على الأريكة التي تطل على العزبة كلها عبر نافذة عريضة، أشعل سيجارة بعدما مل من غليونه وهو ينظر لسراج في شرود.

أخرج سراج نصيبه من بيع الحشيش وسلمه له، تفحص معتوق النقود دون أن يُحصيها، استل من بينها ورقة بعشرة جنيهات انتقاها بملامح تميل للشك، راح يرفعها ناحية إضاءة الغرفة وهو يقلبها عدة مرات في قلق.

أفلتت من سراج شخرة خفيفة قائلًا:

- إنت بتشك في ذمتي يا معتوق؟ تفتكر يعني حاخد منك المضروب وأرجعهولك تاني؟

- لأ، إنت مخك أغبى من أنه يجيب الفكرة دي، قُصر الكلام أنا عرفت من يومين إن الدهشان خرج من السجن، ورجع يشتغل في المعادي.

- ومين الدهشان ده... تاجر صنف برضه؟

- الدهشان مزور قديم بس خايب، وأنا خايف ورقة من عنده تجيلنا ونشيلها إحنا لأن شغله خفيف وسهل كشفه، أنا خلاص نسيت أيام المستشفى الله لا يعيدها ومش عاوز أدخل السجن كمان.

ساور القلق عقل سراج وركبت الهواجس على أرجوحة مخاوفه وراحت تتمايل بقوة، اقترب من معتوق الذي كان لا يزال منشغلًا بفحص الورقة التي تشكك فيها، لكن معتوق طواها ببرود قائلًا:

- سليمة يا عم سراج لكن خلي بالك لأن الدهشان نفس مدرستي دلوقتي، بيشتغل في الصغير، وكبيره العشرين جنيه.

- تصدق بالله أنا أول مرة أخاف، بقالي سنين بتاجر في الصنف معاك لكن المرة دي.........

قاطعه معتوق بحدة:

- لا يا روح أمك أنا مش بتاجر معاك في الصنف، أنا مسؤول التمويل بس من أيام المعلم غالي الله يرحمه، أنا زي البنوك لما بتدي قروض للمتعثرين، أنت بتاخد مني فلوس مضروبة تشتري بيها حشيش بالجملة للسِّت أنهار وتحاسبها وكل ده بعيد عن أعضاء الجمعية وحيفضل سر بينا إحنا التلاتة بعد ما رفضوا استمرارها، ولو زبون عاوز باقي بتديله بقية الفلوس من المضروب والسليم بنقسمه سوا، ثم أنا بسلفك من غير فوايد وماليش دعوة بتجارتك وبتحمل معاك خسارتك. تصدق بالله أنا أجدع من البنك، بس على الله يطمر في جتتك يا أبو رجل مسلوخة.

- أنا خايف بجد يا معتوق مش هزار.

اعتدل معتوق برقدته وهو يقول بنبرة بدت أكثر جدية:

- إنت فاهم إن البيه الظابط اللي مشغلك مُرشد مايعرفش إنك بتاجر في الصنف؟ طيب بلاش دي، ما أخدتش بالك إنه سايبك بمزاجه علشان بترشد عن الصبيان اللي بتبيع أقراص وبودرة، ولأنك بتبلغه مدحت أفندي الصيدلي الإخوانجي بيرغي في إيه على القهوة وبيساعد مين من أهل العزبة وبيقول إيه في الجامع وقت الدرس بعد الصلاة، وهو ياخد المعلومة يديها لظابط أمن الدولة يمكن قلبه يحن عليه وينقله معاهم، فيشتغل أمن سياسي بدل الحرامية وتجار المخدرات.

سعل معتوق ثم بل ريقه برشفة ماء وأكمل:

- إحنا زي الجمعية يا سراج ، كل واحد فينا بيدفع غصب عنه طالما اتورط فيها، ويقبض لما ييجي دوره، وكلنا فاهمين إننا لوحدنا في الجمعية ومفيش غيرنا على الحِجر، لكن الحقيقة إننا ....

قاطعه سراج بعصبية:

- أنا مش خايف من الحشيش.. خوفي كله من الفلوس المضروبة اللي بترسمها وتطبعها على المكنة، الحكومة مش مهتمة بالمخدرات، لكن عند الفلوس ماعندهاش يامه ارحميني.

لحس معتوق بطن سيجارته الملفوفة بلسانه وهو يرد ببرود:

- علشان حمار.. أولًا التجار بتوعك ما يعرفوش إن الفلوس اللي بياخدوها منك مزورة، ولنفترض عرفوا تفتكر إنهم حيبلغوا عن تجارتهم في المخدرات معاك بفلوس مزورة؟ والا حتى حد من زباينك حيروح القسم يقوللهم سراج عطاني باقي حساب الحشيش عشرة جنيه مضروبة؟! وثانيًا الحكومة تخاف منها في حالة واحدة بس، لما نزور الورق الكبير أبو مية وميتين، إنما الفكة لزوم العيشة ماتشغلهاش.

بدأت ملامح سراج تميل للهدوء فأكمل معتوق وهو يدفعه دفعًا إلى شاطئ الأمان ليستريح:

- أغلب الشغل الكتير من الدهشان واللي زيه في الصيف بسبب العرب اللي عمرهم ما حيعرفوا الفرق بين الأصلية والمضروبة، وفي الشتا إحنا بنشتغل زي ما إحنا على الهادي. وزي ما قلتلكم

في اجتماعات الجمعية وبالمستندات إن أكتر من 25 مليار جنيه متداولة في السوق، يعني مليون ولا اتنين في السنة لو طبعناهم مضروبين مش مشكلة خالص.

- بس إحنا بنطبع كام ألف يا ريس، فين الملايين اللي بتتكلم عنها دي؟

- ما أنا قلت لك إن في غيرنا يا مغفل بيطبع والحكومة نفسها كمان بتطبع.

ابتسم سراج كطفل حصل على حلوى فجأة وسط بكائه، ظلت ابتسامته تتسع ثم بدأت ضحكاته تتدفق حتى صارت قهقهة، ثم قال وهو شارد عبر النافذة يذيب السكر في كوبي الشاي:

- هو صحيح غريب أبو إسماعيل اللي فتش سرك ورماك في المستشفى علشان سرقت منه لوحات؟

زفر معتوق في ضيق قائلًا وهو يجز على أسنانه:

- العكس هو الصحيح، الكلب الأجرب غريب أبو إسماعيل هو اللي طول عمره بيسرقني يا سراج، ومن ساعة ما بقى نايب عننا وهو بيسرقنا كلنا. النهاردة عاوز يهد المكتبة والمغزل وقاعة الفنون ويعمل مجمع تجاري مكانهم علشان يخلد اسمه، مع إنه فاشل ما يعرفش يحط خطين جنب بعض، ولا يظبط لون على فرخ ورق ولا حتى........

وضع سراج كوب الشاي أمامه وتهيأ لسماع القصة من معتوق، يتذكر بالكاد غريب أبو إسماعيل عندما كان يعيش بالعزبة والحكاية تبدو مشوقة، لكن معتوق لم يبح بالكلام، ابتلع القصة كلها في بطنه وأشعل سيجارة عادية، وقبيل إنهائها تجرع الشاي باردًا دفعة واحدة كعادته، ثم أشار ناحية منضدة صغيرة فوقها لفة من الكرتون مغيرًا دفة الحديث:

- دول ألف جنيه عشرينات على عشرات تمشي نفسك بيهم لنص الشهر الجاي على الأقل.

- ما تبحبح إيدك شوية، إنت يعني بتصرف من ميزانية الحكومة.

- ننكشف يا حمار لو بحبحت، إحنا مستورين علشان مش طماعين..

تثاءب بعدها معتوق وعاد برأسه للوراء نائمًا بنصف عين، ففهم سراج أن مزاج الفنان صار متقلبًا ويريد إنهاء اللقاء، ظل معتوق ينظر نحوه ولا يرد، لكن سراج لم يفهم مغزى نظراته رغم العِشرة الطويلة بينهما، ارتبك قليلًا، لكن قبل أن تجيش مشاعره ابتسم له معتوق ابتسامة صافية وقال:

- تعرف أنا بحبك ليه يا سراج ومستحملك كل السنين اللي فاتت من عمري ومعتمد عليك في الجمعية؟

- ليه يا ريس؟

- علشان إنت حمار حقيقي، والحمار مخلص مهما يبعد بيرجع لصاحبه تاني.

لاحت ابتسامة بلهاء فوق شفتي سراج وهمَّ بالانصراف، لكن معتوق أشار له ناحية اللوحة التي يعلقها على الجدار المواجه للداخل إلى غرفته، ثم عاد لشروده عبر النافذة مغمضًا عينًا، تاركًا نصف الأخرى مفتوحًا.

تأمل سراج اللوحة وتذكر أنه لمحها في مكتب شاهين من قبل أثناء اجتماعات الجمعية لكنه لم يلتفت لها، وجدها لأشخاص كثيرين، أول مرة يلحظ أن من بينهم رجلًا بساق خشبية يقف وحيدًا ممسكًا ببندقية.. اقترب من اللوحة أكثر، وجد الملامح تشبهه إلى حد كبير، أحصى عدد الأشخاص المرسومين فيها، ثلاثة عشر شخصًا بينهم امرأتان، ربما أخطأ في العدد فأحدهم ملتصق بآخر وكأنهما توأم، لمح سيدة بنظارة سوداء وسمينة للغاية، ممسكة بعصا وترتدي جلبابًا بلون بمبي له صدر مفتوح، والثانية شابة سمراء جميلة بجسد فائر وشعر طويل فاحم منسدل على كتفيها تشبه راوية، راح يدقق أكثر فاندهش، ها هو فارس ينفخ في مزمار ويرتدي زي قبطان أزرق زاهيًا لكنه مقطوع الأذنين، بجواره بيانو صغير بلا أصابع، وفتحي السماوي بدون بندقيته وتسير وراءه كلاب حمراء يطعمها بحنان، بينما سعيد راديو بجسد شاب مفتول العضلات، لكن ملامحه تشبهه الآن وهو عجوز، الكل موجود وحاضر والابتسامة واسعة من الجميع والملامح كلها متطابقة مع وجوه أهل العزبة، يمكنه معرفتهم وتسميتهم بسهولة، كيف فات عليه ذلك طوال السنوات الماضية منذ انتهى معتوق من رسمها ووضعها هنا؟!

أخرجه من دهشته صوت معتوق، وهو لا يزال على وضعه كأنه تخشب في مكانه:

- صدّقت يا سراج إنك حمار والا أعدل في اللوحة وأخليك تمشي على أربعة يمكن تفهم أكتر؟ انزل اسبقني على القهوة علشان نشوف حنعمل إيه في المصيبة اللي نزلت على راسنا من غريب أبو إسماعيل. أنا حشغّل الأغنية علشان نعمل اجتماع للجمعية.

- أنا أبقى حمار لو وقفت معاكم ضد الحكومة، ما يهدوا المكتبة والا يحرقوا المغزل، أنا عاوز أسيب حاجة لعيالي. أنا عاوز تصريح الكشك، وأكيد لو طلبته من غريب بيه حيوافق، ضابط المباحث أكد لي كده، أنا مش حعيش وأموت في الشارع برجلي الخشب زي ما أنت راسمني في الصورة بتاعتك يا معتوق.

تقلب معتوق برقدته وأعطاه ظهره ثم أطلق ضراطًا مدويًا على دفعات متقطعة، ذكرت سراج بنيران العدو الخائبة على الضفة الأخرى قبل العبور، انسحب سراج مغادرًا في صمت بعدما سبقته دموعه، تفاصيل اللوحة شغلته، تصور أهل العزبة يسيرون في طابور أعوج تحت التراب، مُطرقين لا يبتسمون، رافعين أياديهم لأعلى كأنهم أسرى يهود، مثل الذين أحضرهم لمعسكره في الغارة قبل أن يفقد ساقه، رأى فوق رؤوسهم آخرين يرتدون أحذية ضخمة، مبتسمين، لكل منهم فك عريض وشفاه غليظة وأسنان كبيرة وأنياب بارزة، بقية ملامحهم لا تُرى بدقة، بدت مهزوزة وملطخة بلون أحمر قرب شفاههم يسيل منها كخيط رفيع، جميعهم متشابهون لكنهم لا يشبهون أهل العزبة.



26

"ضبط فلسطينيين في شقة مفروشة بحلوان وبحوزتهم قنابل وأسلحة لقتل لاجئ سياسي عربي"، فوقها مباشرة.. "ضبط أكبر شبكة دعارة بحلوان"، أسفلها على مساحة نصف صفحة.. "سقوط أحمد الكومي وشهرته المهندس أكبر تاجر مخدرات في البساتين"، وبعدها بقصاصتين.. "سيارة مسروقة بحلوان تقود لكشف مرتكبي جريمة سرقة ماسة نادرة من المليونير السعودي ماجد البانا بحي العجوزة".

اقترب معتوق أكثر من الحائط ليقرأ تفاصيل الأخبار بقصاصات الجرائد بعدما فرغ من العناوين، كان قد مر على سراج في غرفته في طريقه للمقهى ليعاتبه ويعيده للقطيع، للجمعية السرية قبل أن يكفر بها للأبد، بمجرد أن فتح سراج بابه حتى احتضن معتوق وهو يبكي ويعتذر لانفعاله، ثم صاح فجأة:

- ملعون أبوهم على أبو الكشك على أبو غريب أبو إسماعيل كمان.

أومأ معتوق برأسه وهو يحثه على سرعة ارتداء ساقه الخشبية، كي يلحقوا باجتماع أهل العزبة لمنع إزالة المكتبة والمغزل وقاعة الفنون بحجة أنها بناء مخالف على أرض زراعية، مع أن اللون الأخضر الوحيد في عزبة الوالدة موجود في لافتة دكان سعيد راديو فقط، بدأ سراج يُركب ساقه في فخذه في حين انشغل معتوق بتأمل بقية جدران الغرفة التي يعيش فيها سراج، وقعت عينه على الجدار الثاني أعلى باب الغرفة، رأى صورة صغيرة معلقة في إطار خشبي متآكل، يظهر فيها سراج رافعًا مدفعًا رشاشًا ويشير بعلامة النصر، خلفه تبة عالية ودبابة صغيرة، تظهر الساق اليمنى بوضوح في الصورة، جذبها معتوق من مكانها بصعوبة مستعينًا بمقعد وقف فوقه، تأمل ابتسامة النصر التي تتسيد الصورة وتغطي على تفاصيلها الأخرى، كيف تبخرت ومتى وأين وئدت؟

انتبه لصوت دقات خلفه، ليجد سراج وقد تجهمت ملامحه، جذب الإطار من يد معتوق بعصبية ليعيده مكانه قائلًا في غضب:

- ما تفكرناش بقى بالأيام دي، لو عاوز تعرف بطولاتي حتلاقيها في قصاقيص الجرايد اللي كنت بتتفرج عليها، كل دي قضايا كشفتها وحدي، لكن لا يمكن تلاقي اسمي لا في الخبر ولا حتى في محاضر الداخلية؛ لأن اسمي هناك لا مؤاخذة "مَصدر سِري".

أشعل معتوق سيجارة وهو يشير بعينه لصورة سراج بالملابس العسكرية متجاهلاً القصاصات، رد سراج دون أن ينتظر السؤال كمن ضغط له أحدهم على زر الفخر فاستدعاه من مكمنه:

- الصورة يوم تسعة أكتوبر، يومها دمرنا موقع العدو والدبابة اللي ورايا إسرائيلي خدناها من حبابي عينيهم، راحت عليهم بالطقم بتاعها، لكن بعدها بيومين راحت رجلي عندهم، وأخدت واحدة خشب هنا.

قال الجملة الأخيرة بأسى ثم ترقرقت بعينيه دمعة قديمة عنيدة، ظلت سنين تأبى الانهمار حتى تحجرت مكانها، لانت اليوم مع ذكريات الصورة، وقفلت باب التمرد على الجمعية مؤقتًا بعدما أعادت الحياة لساقه الخشبية.

*****

زمجر صوت الونش من خلف العربات، ديناصور شرس يستعد للانقضاض وافتراس المباني والتلذذ بتحويلها لكتل أسمنتية صغيرة، لعبة مخيفة ستلعبها الحكومة معهم بعد دقائق قليلة، وهم مثل أطفال شابوا في مهدهم، لم يعودوا قادرين على مجاراتها في حرب لا يعرفون قواعدها ولا يملكون أسلحتها، سئموا دور الضحية الذي وضعتهم فيه كل الحكومات، ثم تلذذت بنتف ريشهم حتى عرتهم من كل شيء تقريبًا.. اليوم تبقت ورقة التوت الأخيرة.. المكتبة وقاعة الفنون والمغزل والتي يُصر غريب على نزعها بالقوة.

- عفارم عليك.. فكرة فنانين صحيح، يا إما يشيلوها أو يتراجعوا بعيد عنها.. في الحالتين إحنا الكسبانين.

هتف فارس في حماس محييًا معتوق، لم يُكمل عقرب الثواني دورته لينهي دقيقة من عمرهم حتى ظهرت عربة البلدية يقودها فتحي السماوي، تحمل بمقطورتها جبلًا من القمامة، سبقته رائحتها فكمموا أنوفهم، دار السماوي نصف دورة بالعربة ثم أعمل يديه في عصا صغيرة بجوار ناقل السرعة، انزلق الصندوق الخلفي وتدحرج الجبل، راح معتوق يُشير له بالتحرك ويوجهه لملء الفراغات، بعد بضع دقائق وكأنه يسابق الزمن كان فتحي قد أعد سدًّا منيعًا من القاذورات وجثث الكلاب ومئات الأكياس وبقايا الأطعمة، رائحة لا تطاق، شعر معها فارس بدوار فتراجع، لكنه لم يتمالك نفسه من الابتسام مشيرًا بعلامة نصر لمعتوق.

ظهر زكي الساكت وسط الجمع المحتشد، عينه على شنكل، اقترب منه وجذبه من ذراعه ، أخرج الصورة والمئة جنيه ووضعهم في جيب قميصه ، حاول شنكل منعه في ضيق وهو يؤكد عليه بصدق الشهادة أو تأجيل الكلام لحين الانتهاء من المشكلة التي يواجهونها الآن، لكن الساكت أصر على موقفه قائلًا :

- ما قدرش يا شنكل أشهد زور .. ما ينفعش . سامحني

أخرج اللواء مدير حملة الإزالة ورجاله من ضباط الشرطة ما في جوفهم بسبب الرائحة التي زادت مع خراطيم مياه عربات الدفاع المدني. حك معتوق ذقنه عدة مرات قبل أن يتفتق ذهنه عن فكرة زرع جاسوس وسط البوليس، عميل مزدوج كما قال، كان المرشح الأقرب للمهمة هو سراج باعتباره مرشدًا في الأساس ومن السهل عليه أن ينفذ للجانب الآخر ويكسر الحصار المفروض عليهم، لكن سراج تردد، لا يريد خسارة ضباط المباحث الذين يتعامل معهم، فالعواقب معروفة والنتيجة لا تقبل القسمة على اثنين، سيكون الخانة الخالية في دفتر الجرائم المتبقية بقسم حلوان إذا ما انكشف أمره، وسيظهر سراج جديد ينير الطريق لرجال المباحث نحو كشف جرائم جديدة.

لكن ترجيح الكفة وتحمس سراج للمهمة جاء من موقف آخر غير متوقع، كان بطله مدحت الصيدلي، شاهدوه مبتسمًا ، يقف في خندق واحد مع العدو كما وصفه معتوق ، تلك كانت لحظة فارقة لا بد وأن يضحي سراج بعدها من أجل حماية مشاريع الجمعية التي يريدون إزالتها، من

أجل أرضه، من أجل عزبة الوالدة، فقبل بمهمة العميل المزدوج حتى ولو ستطير رقبته، بعدما استفزته خيانة الصيدلي.

- والله لو شيخ الجامع بيصحى يصلي الفجر وسمع كلامنا لكان أكد لك إنك شهيد بإذن الله لو اتكشفت.

قالها شنكل وهو يضحك بطريقته الغريبة، لكن الظرف لا يسمح حتى برفاهية الابتسام. شق سكون قلقهم صوت عالٍ آتيًا من ناحية قوات الشرطة، ثم ظهر رجل بملابس مدنية أنيقة ممسكًا بمكبر صوت، تحدث إليهم بود شديد، بدأ كلماته بالعبارة إياها.. "الإخوة المواطنون"، فتوقعوا أن يكون ما بعدها بعيدًا عن الإنسانية.

ظل نائب المحافظ يقترب منهم وهو يتحدث عن ضرورة احترام القوانين والإخلاء الفوري للمكان والانصياع لقرارات الحكومة التي تعرف مصلحتهم أكثر منهم، من خلفه على بعد خطوتين وقف لواء شرطة وراءه عميد آخر وبجواره ضابط مباحث القسم، كل منهم يتحدث في جهاز لاسلكي. اقترب عبده شنكل من نائب المحافظ في جرأة يحسد عليها زاعقًا:

- هو سعادتك بتكلمنا بالثقة دي بأمارة إيه؟ تكونش فاكرها عزبة الوالدة بجد؟!

لم يتمالك الباقون أنفسهم فانفلتت الضحكات منهم، حتى رجال الشرطة ظهرت على محياهم ابتسامات تشي بضحكات مكتومة، شامتون في الموظف المدني الذي اقترح إعطاءه فرصة تفاوض قبل الهجوم وتنفيذ قرار الإزالة. لم ييأس نائب المحافظ، حدثهم عن مدرسة للحرف وقاعة فنون ومكتبة جديدة وفقًا لتوجيهات الرئيس، وأبوة الرئيس، ورقة قلب الرئيس، وقبل أن تصل صفات الرئيس لتسعة وتسعين قاطعه شنكل بنفس الحدة:

- ولزومه إيه الهدد والبنا من جديد والا معاكم قرشين محيرينكم ولا أنتم بتطبعوا الفلوس واحنا مش عارفين.

عادت الابتسامات للظهور مرة ثانية وكأن شنكل ممثل يلقي بالنكات على خشبة مسرح والجمهور يتفاعل معه، حتى ظهر سراج فجأة عائدًا من الخطوط الخلفية، متسترًا بالعتمة بعد قطع التيار الكهربي والاكتفاء بكشافات لا تكشف كل الفراغات بين البيوت، همس لمعتوق بأن اللواء رئيس

الحملة يتحدث مع وزير الداخلية، ثم أشار له على شخص طويل عريض ذي هيبة حتى في وسط العتمة، معلومات سراج كانت غزيرة، غرفة عمليات بمكتب الوزير تتابع ما يحدث ويبلغون الرئيس بالتطورات، وعلى الأرجح سينسحبون بسبب القضية المرفوعة على الحكومة من شاهين الذي أنهى ندبه كمستشار قانوني للمحافظة وعاد لصفوف المواطنين محاربًا.

ألقت عربة البلدية بقيادة السِّماوي حمولتها الثالثة فولدت جبلًا، لم يعد أيٌّ من الطرفين يستطيع رؤية الآخر، اقترب منهم مدحت الصيدلي بعدما انتقل لجانبهم بخفة، وزع عليهم كمامات كمشاركة إيجابية منه في المعركة، التيار عال والصيدلي مدحت لم يحسم قراره بعد، لا يزال يقيس اتجاه الريح كما تهامسوا بعد ابتعاده عنهم.

بدأت أعمدة الإنارة تعمل وتظهر الإضاءة في بعضها، ظهر مينا غالي بينهم كأن الأرض انشقت عنه، مبتسمًا في ثقة بعدما استطاع سرقة التيار الكهربي من محطة المياه القريبة التي لم تقطع عنها الكهرباء، سمعوا صوت محرك يصم الآذان وبدأ تل القمامة يتخلخل من منتصفه، تصدع قليلًا ثم تهاوى جانب كبير منه، وعلى ضوء الكشافات رأوا ونشًا ضخمًا أحدث فجوة كبيرة بينهم وبين الحكومة.

تصدر المشهد في الجانب الآخر نائب الدائرة غريب أبو إسماعيل، بدا عصبيًّا للغاية وهو يتحدث مع رجال الشرطة الواقفين بجواره، حاول اللواء إقناعه بالتأجيل وسمعوه يقول:

- الجلسة بعد أسبوعين يا غريب بيه والقضية حيتحكم فيها لصالح الحكومة.. هانت كلها كام يوم ونخلص.

- ده استنتاج والا معلومة يا حضرة الظابط؟

ابتسم اللواء ولم يجب، ثم بدأ يشعر بقيء ودوار من رائحة القمامة، فالتفت نحو مساعديه المتأففين وهو يقول بنبرة غاضبة:

- البهايم دي عايشة إزاي وسط الزبالة؟! هات لي المحافظ على التليفون يا بني.

استفز المشهد معتوق، فألقى بسيجارته بعصبية متوجهًا ناحية غريب، وقفا في مواجهة بعضهما، نال الزمن من ملامحهما، لكن روح معتوق لم تنطفئ، المشهد نفسه يتكرر بعد خمسة وعشرين عامًا، لكنه لن يسمح لغريب أن يسرقه هذه المرة، خطا خطوة واسعة ليكتسب ثقة أكبر فتراجع غريب مترددًا، ليبادره معتوق قائلًا:

- جاي متحامي في الحكومة يا غريب، خفت تدخل لوحدك العزبة اللي اتربيت فيها، خفت من أهلك وناسك زي ما بتقول عنهم، نسيت أصلك لما سكنت في كومباوند، والا محتار تقوللهم إزاي إنك جاي تستغفلهم زي العادة؟

- الناس مش مغفلة يا معتوق، إنت بنيت على أرض زراعية وأنا نائب الدايرة ولازم أحافظ على حقوقهم، القرار صدر والإزالة حتحصل، ده العدل والقانون.. يبقى مين بيستغفل مين؟

- مفيش قرار إزالة حيتنفذ، اتلم وامشي لأننا حنموت قبل ما تهد طوبة واحدة من أي مبنى من بتوعنا وبفلوسنا.

قبل أن يرد غريب استرسل معتوق قائلًا بصوت عال:

- كل حاجة في حياتك مش حقيقية، إنت نفسك كدبة كبيرة حتى لو في حد بيصدقها، النهاردة لازم تتعرى وتبان حقيقتك قدام الناس اللي بتتحامى فيهم. أنا حفضحك يا غريب وبالمستندات كمان.

- المهم المستندات اللي عندك تكون سليمة مش مزورة يا معتوق. قال بفلوسنا قال.

تراخت وقفة معتوق قليلًا، اهتز من داخله، شعر أنه تعرى فجأة، هل يعرف غريب فعلًا بأمر تزييف العُملة، هل هواجسه صحيحة؟ لم يجد إجابة حاضرة، لكنه لا يريد أن يظهر بمظهر الضعيف فظل مكانه يحاول الصمود رغم أن أصابع يديه ترتعش.

عاد غريب خطوة للوراء ليتحدث مع اللواء، لكن الأخير بدا بملامح محايدة، لم يرفض ولم يقبل، سكنت القوات المتأهبة في مكانها، لا تزال تنتظر تعليمات صريحة من اللواء لتنفذها. أمسك غريب بهاتفه المحمول، أجرى اتصالًا استغرق دقائق مرت كساعة ثم وضع هاتفه في جيبه، اقترب مرة

ثانية من جبل القمامة، وقف فوق الخط الفاصل غير عابئ باتساخ حذائه الإيطالي الفخم، أمسك بتلابيب معتوق الذي غرسه القلق مكانه، جذبه غريب ناحيته بعنف صارخًا:

- وحياة أمك يا معتوق لتخرج من هنا ملط والمكان حيتهد، وكلها أسبوعين ونشوف مين فينا الحقيقي ومين المزيف.

- حنشوف يا بن الدايرة.

ظل معتوق مبتسمًا رغم قبضة غريب القوية، تعلقت عيناهما ببعض حتى تراخى جفن غريب وأجفل قليلًا، ثم لانت قبضة يده وترك ملابس معتوق بعدما ابتلع الإهانة مضطرًّا، مضى باتجاه سيارته وهو يبرطم بكلام غير مفهوم، فجأة أصدر اللواء أوامر للقوات بالانسحاب بعدما تلقى مكالمة هاتفية قصيرة للغاية، لم يقل فيها غير ثلاث كلمات، ظل يكررها على مدار المكالمة.. "تمام يا فندم".

تجمع أهل العزبة حول معتوق، خيم عليهم الصمت وهم يتابعون القوات المنسحبة، رغم انتصارهم شعروا أن فرحة النصر سُرقت والبهجة سُلبت، نشلها غريب أبو إسماعيل خلسة من قلوبهم قبل رحيله، وتركهم واجمين.



27

نبح كلب أعرج بصوت عالٍ وهو يجري في صعوبة بلا هدف وراء عربة حنطور يجرها حصان متهالك، أغمضت راوية عينيها فتخيلت الوالدة باشا خوشيار هانم جالسة في عربتها المذهبة التي تجرها الخيول، تداعب كلابها السلوقي الذين جلبتهم من بلدة أسوان أقصى جنوب المحروسة، تسير في موكب كبير من العبيد والخدم، مرت بجوارها فانحنت راوية لها احترامًا مع تلاميذها، لكنهم قذفوها بقشر البرتقال، فشلت راوية في ردعهم، وصرخت الهانم وأمرت سائقها بالانحراف بعيدًا عنهم وعن تلال القمامة التي حلت محل حديقتها، تلك الحديقة التي لم تستطع تفقدها كلها طوال حياتها لاتساعها. حوصرت الوالدة باشا وكادت تبكي، بينما تلاميذ راوية يضحكون بهستيريا، ظلت راوية قلقة تفكر في مصير خوشيار هانم، وتدافعت الهواجس الغريبة لرأسها.. ربما قَدم فتحي السِّماوي اللحوم المسمومة لكلاب الوالدة باشا، أو هجم عبده شنكل على خيولها وفكها من العربة وسابق بها الريح ثم باعها بعد ذلك في سوق العبسي في آخر حلوان مع المواشي المسروقة، أو يعرض عليها معتوق شراءها وتكتشف أن عملاته مزيفة ثم يشهد زكي الساكت زورًا لصالحه فينجو. دوى الرعد فجأة وانفتحت صنابير السماء بلا توقف، ظهر القبطان فارس وسط الزحام منتهزًا الفرصة ليعرض خدماته على خوشيار هانم وهو يجدف ويدور حولها في دوائر صغيرة بقاربه، طلب صُرة من الذهب نظير إعادتها إلى قصرها بعدما أغرقت الأمطار عزبتها، صرخت السيدة فزعًا ثم فقدت وعيها، أفاقت راوية من كابوسها لما أوشكت سيجارتها على الانتهاء ولسعت أصابعها، لم تدر ماذا تفعل بها، جذبها شاهين والي برفق منها ثم قذفها ببراعة عبر فتحة الزجاج المهشم الضيقة بكافيتريا مستشفى حلوان العام، وهو يطمئنها بخسارة وزارة التربية والتعليم لاستئناف حكم عودتها للدراسة وصيرورة الحكم الصادر لصالحها نهائيًّا.

نحَّت راوية كبرياءها جانبًا إلى جوار فرحتها بالحكم، والتفتت له بعينين دامعتين سائلة لأول مرة:

- شنكل زارني من أسبوع وبلغني إن معتوق هو اللي بيدفع أتعابك وهو اللي بيصرف علينا أنا وأمي كل السنين دي يا شاهين مش زي أنت ما فهمتني إنها جمعية بتساعد المواطنين ..

هز شاهين رأسه بالإيجاب فاسترسلت بنبرة راجية :

- أنا عاوزة أعرف الحقيقة في حكاية معتوق ..

قبل أن يجيبها ظهرت ممرضة عبوس سمينة من خلفه، تقلصت معدة راوية لرؤيتها، تساءلت الممرضة بنبرة مقلقة:

- إنتي بنت الحاجة سوسن اللي دخلت الطوارئ النهاردة؟

أطلت من عيني الممرضة رغم قسوة ملامحها نظرة إشفاق ناوشت حال راوية، شعرت بأن يدًا خشنة اخترقت صدرها، وراحت تعتصر قلبها حتى أدمت مشاعرها فبكت قبل أن تخبرها الممرضة بحال أمها، تعلقت عيناها بشفتي الممرضة في انتظار الجملة التقليدية.. "البقية في حياتك"، لكن الممرضة لم تقلها بعد.

*****

ضبطت مُخرجة قناة الجزيرة عدسة كاميراتها على مكانه وحده، تأكدت من جودة الإضاءة وعدم لمعان مساحيق التجميل التي تغطي وجهه لتخفي تجاعيد حُفرت على مر السنين حتى صارت أخاديد عميقة، رفع غريب أبو إسماعيل يده للتأكد من كتابة اسمه على الشاشة بالطريقة التي طلبها.. "الفنان التشكيلي غريب سعيد"، لم يعد يستخدم لقب أبو إسماعيل منذ سنوات بعيدة، الاسم يذكره بمرحلة يريد نسيانها، يشده لأعماق هرب منها بعدما صارت تخنقه وتضايقه، يريد التنفس بعيدًا عن أيام الشقاء الأولى بعزبة الوالدة، البدايات ومحاولات ترسيخ الأقدام على أرض زلقة، البحث عن فرصة بنصف موهبة لم يقدر لها أن تكتمل، رحلة بدأت مع معتوق زميل الدراسة الموهوب، وعندما تخلى عن معتوق ووشى به خرجت لوحاته التالية بلا هوية بسبب ريشات فنانين آخرين غمسوا فيها الفرشاة الأولى والثانية والثالثة، حتى لا يفضحه معتوق أو غيره، تفرقت خطوط وألوان لوحاته بينهم، تاه فن كل منهم مع فرشات الآخرين، ورغم أن غريب لم يبدع يومًا

إلا أنه باع كل لوحاته فيما بعد بعلاقاته، لكن ظلت أعلاها سعرًا وأكثرها طلبًا تلك التي رسمها له معتوق وحده، وفشل هو بعد ذلك حتى في تقليدها.

دارت الكاميرا في مكتب القناة بمنطقة شمال الجيزة، ودار معتوق بكرسيه أقصى جنوب القاهرة بحلوان على المقهى ليشاهد الحلقة. أعطت المخرجة الإشارة لتسأل المذيعة غريب مباشرة:

- سيادة النائب غريب سعيد هل تعتقد أنك ستنجح في إزالة مخالفات عزبة الوالدة وتطوير المنطقة لتكون نقطة جذب سياحي وثقافي مثلما تعهدت مؤخرًا؟

ارتبك غريب لوهلة لكنه استدرك بسرعة:

- بالطبع الخسارة ليست في قاموسي، نحن نخطط منذ أعوام مع متخصصين، وواثق من نجاح المشروع التنموي الذي سيضع حلوان على الخريطة الفنية العالمية كما كانت.

- لكن البعض يقول إن المشروع ليس تنمويًّا كما تشيع عنه وإنما تجاري بحت، وحكاية مجمع الفنون العالمي ما هي إلا دعاية؟

- لا يمكن اعتبار هذا القول دقيقًا كله لكن بعضه قريب من الصحة، لا أحد يتمنى الخسارة بالطبع، والمكسب جزء من نجاح أي مشروع. والدعاية مطلوبة في كل الأحوال.

- لكن المحافظة أقامت مغزلًا وقاعة فنون ومكتبة فكيف تتبنى فكرة هدمها كلها الآن وأنت محسوب على الحزب الحاكم؟

- هذا أكبر دليل على دوري الحقيقي كنائب برلماني يواجه الحكومة التي أخطأت بالبناء على أرض زراعية ولا بد من التصحيح، نحن في نظام ديمقراطي ونعطي دروسًا فيه للآخرين.

عادت المذيعة تسأله بضراوة:

- تتهمك المعارضة المصرية أنك واجهة لمستثمرين أجانب لا يريدون كشف هويتهم وتستخدم نفوذك مع بعض السلطات الحكومية في مصر لهدم منشآت ثقافية وإقامة أخرى تجارية؟

- غير صحيح.. كل شركائي عرب، أنا وضعت المنطقة التي ولدت فيها وعشت بها طفولتي وشبابي على رأس أولوياتي، هذا أقل شيء أقدمه لبلدتي صاحبة الفضل عليَّ، حان موعد رد الجميل، وكل ما يقال أكاذيب تقف وراءها مجموعة محدودة من الأهالي وأنا أعرفهم بالاسم.

تنحنح قليلًا واختلس نظرة لورقة أمامه على المنضدة ثم قال بثقة:

- الإحصائيات تقول إن تسعة وتسعين بالمئة من سكان العزبة لا يستخدمون المكتبة ولا قاعة الفنون ولا المغزل، فقط عشرة مواطنين يترددون عليها، هؤلاء لن يوقفوا مسيرتنا في التقدم. نريد تعليمًا قبل المكتبة، نريد مستشفى قبل المغزل، نريد أماكن للترفيه عن أهل العزبة المخنوقين بمشاكلهم.

- يتردد بقوة أن ماهر السوهاجي عضو الحزب الوطني الذي سبق اتهامه بتجارة وتهريب الآثار المصرية هو أحد شركائك والممول الرئيسي لمشروع إقامة مجمع تجاري استهلاكي ضخم، فما تعليقك؟

- لا يمكن أيضًا اعتبار هذا القول دقيقًا كله لكن بعضه قريب من الصحة، السوهاجي صديق قديم وسياسي مخضرم ورجل أعمال شريف يشرفني مشاركته ولم يسبق إدانته في قضايا تهريب آثار وكلها إشاعات لعرقلة المشروع.

- كلمة أخيرة تقولها لأهل عزبة الوالدة كي تطمئنهم بها يا سيد غريب.

- المنطقة لم تعد صالحة لعيشة كريمة مرفهة لكن الحكومة لا تستطيع أن تفعل كل شيء بمفردها ولا بد من تكاتف الجهود وأنا أعدهم بأنهم سيرون عزبة والدة جديدة بالكامل، وكمواطن مصري أمد يدي لبلدي لينهض تحت قيادة فخامة الرئيس ربان سفينة الاستقرار باقتدار.

أشارت المخرجة للمذيعة مُعلنة انتهاء الحلقة وراحت تحيي غريب من مكانها على سجع جملة الختام، بعدما همست للمونتير بحذفها عند إذاعة الحلقة. أطفئت المصابيح وخفتت الإضاءة، نهض معتوق قبل جملة النهاية المحذوفة فلم يفته شيء من الحلقة، شعر بتقلب معدته ورغبة عارمة في التقيؤ. يدرك أن غريب اختار بحديثه المذاع أن يضرب المتبقين أمامه ضربة ثانية برمية كرة

بولينج، بعدما سقط مدحت الصيدلي وإخوانه من الرمية الأولى وصمد الآخرون في عناد... إلى الآن.

*****

مثل عناوين الجرائد القومية وافتتاحات نشرة التاسعة مساء بالقناة الأولى واستهلالات المسؤولين في بداية الخطب الرسمية تحدث غريب أبو إسماعيل لأكثر من ساعة عن مشروعه المنتظر لأهل العزبة الذين تجمعوا حوله لما سمعوا بوجوده مرة ثانية بينهم عقب إذاعة حديثه، اعتذر لهم عن انفعاله منذ أيام ثم أسهب في وصف النقلة الحضارية لعزبة الوالدة، عن التطوير والتجديد، أغفل كلمة إزالة من قاموس كلماته، كرر كلمة الترفيه أكثر من عشر مرات ليداعب مخيلة المواطنين وتحدث عن مجمع تجاري يبيع السلع بسعر التكلفة، اشتم رائحة قبول لدى الغالبية، ولاح العناد من أقلية، وبقي البعض على الحياد فلم يتعودوا من قبل على اتخاذ قرار.

جذبه فارس من ذراعه بعيدًا عن الجمع الملتف حوله كي لا يتأثروا بكلامه أكثر، جلسا بركن منزو بالمقهى، وسأله بنبرة تنطوي على فضح سر بعد قليل:

- هو إنت متخيل يا غريب إن الريس مبارك حيعيش ويغير وزارات وتيجي وزير في عهده وتفضل في الوزارة علشان تعمل مشروع ثقافي يفتتحه سيادته بعد خمس سنين؟ ده أكتر من عشرين سنة بيحكمنا يعني قرب يخلص، بلاش تصدق الكدبة بتاعتك أكتر من كده.. إنت عارف وأنا عارف إن الأرض حتتباع وإنت حتطلع بعمولة وتكسب لك قرشين. معتوق قال لي الحقيقة ولو فضلت كل يوم والتاني تنط لنا هنا حنفضحك. إحنا مريحينك في الدايرة فخليك في حالك نايب في البرلمان بعيد عننا.

رد غريب ببرود متجاهلًا موضوع بيع الأرض ونبرة التهديد ذاتها:

- طيب سيبك من مشروعي دلوقتي وخليني أسألك سؤال مهم، إنت عارف ليه الريس مبارك أكتر واحد حكم مصر لغاية النهاردة؟

ارتبك فارس لوهلة وترنحت أفكاره لغرابة السؤال وانحرافه عن موضوعهما فقال بعصبية:

- علشان ديكتاتور..

- يعني حضرتك ناصري وبتقول إن مبارك ديكتاتور؟! ما علينا، لأ يا سيدي مش لأنه ديكتاتور، علشان سيادة الريس أذكى من صاحبك عبد الناصر ومن الرئيس السادات ذات نفسه.

- يا راجل قول كلام غير ده، يعني لا بتفهم في الفن ولا في السياسة.

- معلش.. اسمع مني المفيد يا عم فارس، كلام مش حتقراه في جرايد ولا حتسمعه في تلفزيون، جمال عبد الناصر انحاز للفقرا وحافظ على الطبقة المتوسطة، وقرب من الدول العربية وشوية في إفريقيا، عمل قاعدة تسنده وتدعمه وتصقف لقراراته، وجنازته دليل على كلامي.

- تمام أهو كده إنت بتفهم في السياسة.

- والسادات من بعده انتصر في حرب لأول مرة وعمل سلام ورجع الأرض، صحيح انحاز للتيار الإسلامي وأفرج عن الجماعة بتوع الإخوان لكن ماتنساش إننا شعب متدين بطبعه زي ما انت فاهم، ده غير الانفتاح اللي خلّى الناس تعمل فلوس من التجارة تكفيها العمر كله، وفي نفس الوقت مجاش على الفقرا أوي ولا علَّى عليهم الأسعار جامد، فبقى عنده قاعدة برضه نفعته وعملت له شعبية، ده غير ظروف استشهاده، وسيرته بالخير عند ناس كتير لغاية النهاردة تأكد كلامي لأن من بعده مفيش حروب تاني. ودي تشفع له.

- ماعلينا كل ده كلام فشنك، سيبك من السادات وخلينا في موضوعنا.. مبارك عمل إيه بقى يا غريب بيه؟

- الريس مبارك زي عسكري المرور، أنبه واحد فيهم، وقف على مسافة واحدة من الكل، معندوش عداوات لا مع فقرا ولا مع أغنيا، علاقته بالدول العربية زي الفل، وبيغرف وياخد اللي يحتاجه ويدينا، وبينسق مع الأمريكان وأوروبا وروسيا زي بعض، حتى هنا لعب مع الإخوان المسلمين بسياسة شعرة معاوية، لعب في السر وفي العلن، إداهم كراسي في مجلس الشعب وقبض عليهم وأفرج عنهم وأخد فلوس تبرعاتهم وبعدين سابهم يشتغلوا تاني ويعملوا غيرها، وشرحه مع

اليساريين والجماعة المثقفين أصحابك كل ما حد منهم يزعل يراضيه بجورنال يكتب فيه كلمتين، أو يطلعه في قناة فضائية يشتهر ويعمل قرشين. وفوق كل ده إدانا مساحة حرية، كل واحد يقول اللي هو عاوزه من غير ما يخاف. بس بشرط ما يبقاش لسانه طويل.

قاطعه معتوق الذي ظهر أمامهما فجأة كشبح وكان يستمع لبعض الحديث قبلها فقال:

- مساحة حرية وهمية شغل بيها المواطن علشان يتحرك فيها ويفتكر إنها كبيرة، لكن الريس عارف أولها من آخرها. ولا بيسمعوا حد كأننا بنأدن في مالطا.

سكت غريب ليرى وقع كلامه على ملامح فارس متجاهلًا معتوق تمامًا كأنه سراب، فلما اطمأن لدهشة المستمع أخرج علبة من جيبه بسطها على يده وفتحها قائلًا:

- جايز تكون مساحة الحرية صغيرة زي ما بيقول صاحبك الفنان، اعتبرها قد علبة الكبريت دي وإحنا العيدان بتوعها، لكن شوف إحنا مرصوصين إزاي كلنا جنب بعض، الريس هو صاحب العلبة وكل شوية يفتحها علشان نتنفس ونشوف السما وبالمرة يطمن علينا، كلنا بناكل ونشرب وبنشتغل وبنقلب رزقنا والحكومة سايبانا نتصرف، إنما بقى لو حد عمل فيها ثوري وهلفط في السياسة يستاهل بصراحة إنه يتحرق من راسه؛ لأن البلد محتاجة استقرار زي علبة الكبريت، ما ينفعش العيدان تبقى مبعترة، علشان كده سيادته بقاله أكتر من عشرين سنة بيحكمنا ويمكن يبقوا تلاتين أو أربعين، صدقني طول ما أنت عسكري مرور ما بتديش مخالفات بحق وحقيقي وبتفتح السكة للناس علشان تعدي وتاكل عيش، الناس حتحبك وتفضل في مكانك، ومش حتبقى عاوزة تغيرك بعسكري تاني.

شرد فارس ومعتوق في جملة غريب أبو إسماعيل الأخيرة، من بعيد علا نباح الكلب عناب مكتومًا فالتفتا ناحيته، شاهداه يستند بإحدى ساقيه على الجدار ليغرقه وينصرف بعدها مرفوع الرأس.



28

البؤس يخط بتعرجاته ملامح البشر، يعبث بها، يشوهها، يحفر علامات فيها على مدار الزمن، ظل معتوق يحدث نفسه وهو يسير بلا هدف بينما لافتات الانتخابات المدون عليها الإنجازات تظلل رأسه. تدلت سلة رخيصة من البلاستيك من طابق مرتفع، مشدودة بخيوط مهلهلة من الدوبار تئن تحت وطأة حمولتها صعودًا كل مرة، وضع بها صبي بضعة أرغفة ثم أكمل السير بدراجته، رفعتها السيدة وتفحصتها، ثم لعنت أم الخباز وصبيه، راقبها معتوق وهو يسير حذرًا، متجاوزًا بمهارة بركًا آسنة وروث إبل طازج يمرح أصحابه من الخراف أمام محل جزارة بقدر طول حبالها، بعدما وضع لها الجزار كومة من برسيم رطب أمام دكانه المغلق، على يمين معتوق يرقد رضيع بين ذراعي أمه، تجلس به على رأس السكة، لتريح ظهرها المتعب إلى حافة جدار مدبب، يؤلمها كلما تحركت فتتقلص عضلات وجهها، تلقم رضيعها ثديها الداكن المترهل على استحياء، ينتهي منه الرضيع بسرعة ويبتعد برأسه، يبدو متأهبًا للصراخ، لكنه يفاجئها ويتثاءب مستعدًّا لنوم عميق.

ظهر فجأة طفل آخر لم يتجاوز الرابعة، مندفعًا كفأر مذعور من مدخل بيت قديم، يجري حافيًا، ويدحرج أمامه إطارًا معدنيًّا معوجًّا وهو يقلد بصوته بوق سيارة أصابه العطب، على مقربة تمطى الكلب الأحمر الشهير "عناب" أمام مدخل بيت فتحي السِّماوي ثم عاود جلسته الكسولة. عكس ضوء عمود إنارة يتيم نوره على جدران بيت معتم هجره أهله، لتظهر بالكاد صورة ملونة ملصقة لجمال عبد الناصر، أسفلها أخرى للسادات بغليونه الشهير لكنها باللونين الأبيض والأسود، مشطوب على وجهه فيها بعلامة كبيرة طليت بلون أحمر ناري فابتلعت معظم ملامح الرئيس المؤمن، فلم يتبق للمواطنين إلا زبيبته الشهيرة، وقعت عينه أثناء سيره على عشرات الملصقات لشعار الإسلام هو الحل بعدما سمحت الحكومة باستخدامه سياسيًّا في الدعاية الانتخابية أخيرًا، هز رأسه في حسرة، لم يعد الصيدلي مدحت في حاجة للتخفي أو استئجار أطفال للصق الشعار مقابل جنيهات قليلة، فالحكومة التي كانت لا تبالي صارت موافقة ومُرحبة، بل تكاد أحيانًا أن تغطي رأسها وتطيل لحيتها، يؤمن معتوق أن تلك الحكومة ترتدي جلبابًا أسفل بدلتها الرسمية، لكنها

تخفيه وتظهره وقت اللزوم. تأمل صورة مرشح جماعة الإخوان المسلمين الراسب في الانتخابات الأخيرة، يبدو مبتسمًا في لزوجة، لا شك لديه أن هذه الابتسامة يوزعونها عليهم عند انضمامهم للجماعة ويحذرونهم من التخلي عنها، طال تفرسه في الصورة بعدما لفت نظره أن نظرة عين المرشح تحمل الكثير من التشفي، وكأنه فرغ للتو من قول كلمة "ستندمون".. فلم يتمالك نفسه وبصق عليها.

لا أحد من أهل العزبة سوى معتوق يعرف أن فارس عودة هو الذي لصق صورتي عبد الناصر والسادات هنا منذ خمسة عشر عامًا، قبل أن يكون الإسلام هو الحل، رغم أنهم لم يخبرونا بالمشكلة وقتها كما يتندر عليهم معتوق، فعلها فارس عندما عاد مجلودًا من الخليج بعد أقل من عام واحد على سفره ليدرس الموسيقى للتلاميذ، فاكتشف أن لا حصة لها هناك بالمنهج الدراسي، قيل له إنها حرام فقبل بوظيفة إدارية بسيطة ثم وقع في غرام سيدة من أهل البلدة الأخرى ولما عرف أهلها بالعلاقة تعرض للجلد ثم كان الفصل والترحيل، آثار السوط لا تزال على ظهره، ولو كشفه لاكتشف أهل العزبة أنها تحمل العلامة ذاتها التي وضعها على صورة السادات. وعندما عاد حكى لمعتوق ما حدث مختتمًا أن ناصر لو كان موجودًا لأخذ له بالثأر.

رحل ناصر والسادات ولا أحد يبالي بتلك الحروب التي تدور رحاها في رأسه وبين المثقفين على المقهى بوسط البلد كلما التقاهم، يدافع بعضهم على استحياء عن السادات، متمسكين بالسلام والنصر، وفارس مع الغالبية منهم، يصف الاتفاقية بالاستسلام والحرب بالخديعة، لينتهي الجدال إلى لا شيء كل مرة، وسط عشرات من زجاجات البيرة الفارغة مخلفًا قلق سداد فاتورة الحساب، وكل مرة يهز فارس رأسه في أسى وهو يغادر الحانة متمتمًا.. "الناس عاوزة لقمة العيش ولما تشبع تتكلم في السياسة"، الحكومات تجوعهم لهذا السبب، ومن تنتفخ كرشه تقلم أظافره بعناية، ثم يتحول إلى كائن أليف مطيع، مُدرب على الوقوف والجلوس والموافقة. مع ذلك يتعمد معتوق السخرية من أفكار فارس، يلومه على كشط صورة السادات، ويتهمه بالتجني عليه ثم يختتم كلامه قائلًا:

- هو أنت انضربت بالكرباج إلا في عهد مبارك، لو جدع روح اشطب على صورته وسيبك من شغل أرامل عبد الناصر ده اللي صدعت دماغنا به.

ينحني معتوق في نهاية كلامه بحركة مسرحية ولا يسمح لفارس بالرد، يقدم له خلاصة تجربة تجاوزت الستين عامًا في حياة بائسة، مؤكدًا أن الجميع فيها كومبارس، مجاميع يحركهم ويوجههم المخرج أو مساعدوه من بعيد حسبما يريد، حتى النجوم، هم صناعة المخرج أيضًا واكتشافه. يسكت لبرهة وهو يلتقط أنفاسه متفرسًا في وجه فارس ثم يلقي بسؤاله المعتاد وكأنها جملة النهاية:

- عمرك شُفت مُخرج بياخد رأي مجاميع الكومبارس في سيناريو الفيلم؟

شرد فارس في إجابة فلم يجد واحدة مناسبة، فاختار الجلوس فوق برميل خشبي قديم بمنتصف الحارة كأنه فيلسوف يبحث عن الحقيقة، وضع الترومبيت على الأرض بعيدًا عنه تراوده فكرة تركه، مضى معتوق في طريقه وهو لا يزال يحدث نفسه عن الفقر والإحباط وضياع الأمل، البدايات تشبه النهايات، يتحسر على حال العزبة، يكاد يبكي، لكن الدموع لا تنهمر والصوت احتبس حتى اختنق، لاح الفجر من بعيد مُحبطًا بعدما توقف المطر، كأنه لا يقوى على شق ستائر الظلام.. أو ربما لا يريد.

*****

العد التنازلي لإهدار كرامتهم وضياع مجهودهم يقترب من الصفر، رغم أن صورهم في غالبية الجرائد والبعض كتب عنهم مؤيدًا حتى لو كان كلامه متحفظًا، معتوق نفسه ظهر في أكثر من قناة تلفزيونية مهددًا متوعدًا، بات مشهورًا قبل نظر القضية التي رفعها شاهين على الحكومة ومحدد لها جلسة الغد.

اجتمع بهم معتوق في جمعية عمومية غير عادية لينعش ذاكرتهم بالحديث عن الخطة البديلة إذا ما انكشف أمر الجمعية أو قبض عليه، استمعوا لخطته بوجوه محنطة لا تؤيد ولا ترفض فاحتار معهم، كأنه وضع قبلة على جبين ميت.. فجأة دق جرس هاتف شاهين فرمقه معتوق معاتبًا، فهم يغلقون هواتفهم أثناء الاجتماعات كلها، لكن شاهين تلقى المكالمة مبتسمًا رغم عباراته الهامسة، ما إن أغلق هاتفه حتى سمعوا طرقات جريئة على باب الغرفة، سببت قلقًا للمجتمعين عدا شاهين،

الذي تقدم وفتح الباب ليظهر خليل البنهاوي ووراءه سيدة خمسينية ترتدي ملابس الحداد ممسكة ببؤجة ملابس بيضاء، نزع شاهين رداء القلق من فوق ملامحهم، وساعد أعضاء الجمعية في إزالة ما علق بنفوسهم عندما ارتاحت ملامحه وعلا صوته مرحبًا بصديقه القديم، ثم علا صوت معتوق واتسعت ابتسامته عندما وقعت عينه على مريضته النفسية التي فشل في علاجها بالرسم، السيدة المكلومة في ولدها.. حربية النزيلة السابقة بالمستشفى كما قدمها خليل البنهاوي بفخر يشي أنه كان صاحب القرار بالحضور اليوم بعدما حرر استمارات الخروج.

سرت همهمات ربما غطت على عبارات الترحيب الحذرة، في حين تركزت نظرات حربية على مينا ولم ترفع بصرها عنه، راح قلبها يخفق ويدها اليسرى الخاوية ترتعش وشفتاها ترتجفان، لكن قدميها تسمرتا مكانهما بعدما قدمه لها معتوق لما انتبه إلى التشابه بينه وبين صورة ابنها التي رسمها لها من قبل فقال:

- ده مينا غالي ابن الست أنهار.. جارتنا.. وعمره أصغر من محفوظ بكتير.

مزج الإحباط مع الحزن لوحة قاتمة على ملامح حربية مع أن معتوق شعر براحة غريبة عبر عنها بتنهيدة طويلة، أدرك اليوم أن علاجه لها قد أفلح، وها هي الآن بينهم باحثة عن الأمل ولم تفقد الشغف بعد.

"مكاني هنا" بكلمتين فقط عبّر خليل البنهاوي عن سبب حضوره، بعدما وضع حقيبته الجلدية المستطيلة التي تعود موضتها لثلاثين عامًا مضت، ربما هي التي دخل بها مستشفى العباسية وقتها، إلى أن قرر الخروج وبصحبته حربية الباحثة عن ابنها وواثقة أنها تقترب من العثور عليه بلا مقدمات. تركوا له الكلمة فأوجز عباراته، من خلال متابعة الجرائد ووسائل الإعلام لقضيتهم وحديثه مع شاهين قرر الانضمام لجمعيتهم ومشاركتهم في مقاومة تعديات غريب على مشروعاتهم، فاتح حربية في الأمر فوافقت دون معرفة حتى شروط الانضمام أو طبيعة النشاط، اتسعت ابتسامة معتوق فجمعيته صارت قِبلة للمحتاجين والمهمشين وتتلقى طلبات لعضويتها لأول مرة. هتف خليل في حماس أن المئات من نزلاء المستشفى يؤيدون معتوق وكانوا يرغبون في الانضمام للجمعية، لكنه لا يستطيع إخراجهم كلهم في وقت واحد.

سادت لحظات صمت وكأنها مُهلة لترتيب أفكار مبعثرة، ثم أعلن معتوق بغير تصويت ترحيبه بالعضوين الجديدين، بعدها وجه حديثه لأنهار كي تستضيف حربية ببيتها مع ابنة أسعد جرجس مختتمًا كلامه بابتسامة فهمت منها أنهار أن منحتها الشهرية ستزيد بقدر اتساعها.

*****

رتب معتوق الصحف والمجلات التي فرغ من قراءتها فوق بعضها حتى شكلت هرمًا مقلوبًا، كل الجرائد تحمل صورة غريب أبو إسماعيل، الخبر ليس بالون اختبار كما يظنون، غريب مرشح بالفعل وزيرًا للثقافة والتغيير يبدو وشيكًا، رغم أن غالبية وزراء مبارك مثل النبيذ، معتقين في مناصبهم منذ عقدين أو يزيد، لكن مقال رئيس تحرير جريدة الأخبار يؤكد هواجس معتوق، جذب الصحيفة من قمة الهرم المقلوب الذي صنعه ليعيد قراءته، كان بعنوان "الخلطة السرية"، كتب فيه عن فن إدارة غريب لشؤون دائرته، التي صارت بلا مشاكل تقريبًا بعد تحسن أحوال أهل عزبة الوالدة، وطالب في نهاية مقاله بتعيين غريب محافظًا لمدة عام في كل محافظة من محافظات مصر.

ألقى معتوق بالصحيفة أمامه كي يدهسها المارة وتبول عليها الكلاب بعدما اتخذ القرار بفضحه، حتى لو كان ما سيفعله مجرد قفزة في الظلام لكنه الآن مجبر عليها، لم يعد يستطيع الصبر على كل هذا الزيف، ولن ينفخ في البالون مرة ثانية بسبب الخوف، هذا الخوف الذي عاش فيه مع المواطنين طوال نصف قرن، فمنذ صباح الثالث والعشرين من يوليو استيقظوا على الخوف لعزل فاروق بدون مقدمات، وظهور وجوه جديدة من الجيش في انقلاب هادئ، لكنه لا يُطمئن في الوقت ذاته، حتى مات فجأة عبد الناصر، رحل الأب والأخ كما قيل لهم، فسرى الخوف بالعروق أكثر عن البديل مع أن لا يد لهم في الاختيار، ثم اغتيل السادات في مكان كانوا يطمئنون فيه عليه فتعمق خوفهم أكثر، وتمكن منهم بسبب مستقبل مجهول يندفعون نحوه، ثم جاء مبارك وثبتت الصورة لسنوات طويلة، لا يعرفون متى يرحل وعلى أي هيئة سيأتيهم الخوف وقت رحيله.. لكنه آت لا محالة، هكذا يقول التاريخ الذي ارتضوه ويكتبون فيه سطرًا كل يوم.

زفر في ضيق من شططه وحاول ترتيب أفكاره مرة ثانية بعدما ابتعد عن سكة غريب المرشح وزيرًا، لكنه هوى في بئر الحقيقة، ستظل الكذبة تكبر وتتضخم لتصير بالونًا من الأساطير يحكيها التاريخ، ولأنه شارك في صناعتها من البداية صار يشعر بالخزي أكثر، وربما باحتقار نفسه لأول مرة في حياته، رغم أن هناك ملايين مثله يشاركون طوال حياتهم في صناعة البالون بسبب خوفهم على مر العصور، ينفخون فيه بأكاذيبهم، ويرفعونه بأيديهم عاليًا فرحين، يصفقون ويهللون وهم يطلقونه فوق رؤوس الجميع، فيظل الناس متابعين لكل تحركاته في انبهار، مندهشين بقدرته على الطيران، آن الأوان لثقبه بقول الحقيقة على الملأ، كي يتأهب للانحسار والهبوط.

- كش ملك.

هتف بها شاكر في وجه عبده شنكل وكأنه يفزعه، لم ينتبه معتوق لوجودهما على مقربة منه من فرط اندماجه في أفكاره وهواجسه.

- كش ملك تاني.

قالها شاكر بسعادة بالغة، تلألأت حبة عرق على جبين عبده شنكل بعدما اضطر للتضحية بوزيره مبكرًا، نظر معتوق لوجهيهما وهو يحسدهما على راحة بالهما، حتى صاح شنكل:

- مات الفيل يا عم شاكر.

كافأ شنكل نفسه بطلب كوب كركديه آخر احتفالًا بقتل الفيل، وترك شاكر منكبًّا على رقعة الشطرنج، دافسًا رأسه بين كفيه يفكر في الحركة القادمة. اقترب معتوق بكرسيه منهما ليتابع المباراة الحامية ليصيح شنكل بصوته الرفيع:

- مات الفيل التاني.

استعاد شاكر زمام الدور بسرعة وابتعد بالملك لمنطقة آمنة، ارتبك شنكل قليلًا وظل يتمتم بلعن معتوق في سره باعتبار وجوده نحسًا، ثم بدت عليه ملامح غباء وهو ينظر للرقعة ولا يحرك قطعة منها.

- عندك حصانين لسه..

قالها معتوق مبتسمًا وهو يوجه شنكل لاستخدام أدواته، لكن شنكل بدا مغيبًا وهو يحرك قطعة الشطرنج بغير تبصر.

- كده الحصان كمان مات يا عم شنكل البقية في حياتك.

ما إن رفع شاكر قطعة الحصان التي أنهى وزيره حياتها على الرقعة، حتى وجدها شنكل فرصة سانحة ليعبر عن ضيقه، فقال حانقًا:

- ملعون أبوهم همَّا الاتنين، لو مشينا ورا الحصان الأولاني مش حنلاقي ناكل إحنا وهو، ولو ركبنا التاني حيوقعنا على مدخل العزبة فوق الزبالة ويبرطع فيها لوحده، ولو فضلنا على حالنا مع التالت حنشحت ويمكن ندخل السجن.

تعالت ضحكات متناثرة من أركان المقهي، تجهمت ملامح معتوق بعدما عاد لهواجسه، في حين ظل شاكر منتبهًا كصقر يدور في حلقات بحثًا عن فريسة أخرى من قطع شنكل لينهي حياتها حتى صاح بنبرة المنتصر:

- مات الملك يا شنكل.

- بيتهيأ لك يا شاكر.. ده خرتيت ولا بيموت ولا بيخلينا نعيش.

قالها شنكل وهو يضحك يائسًا ثم راح يطوي لوحة اللعب ويلم القطع في الصندوق بعد خسارته المفاجئة، أرقدها بجوار بعضها كأنه يدفنها في مقبرة كبيرة، ثم وضع الملك الأسود فوقهم جميعًا.. واقفًا.



29

توقفت الأمطار تاركة غيوم متفرقات متربصة بقرص الشمس تحشد سُحبًا جديدة بهمة، تتلاصق في عناد لتحجب أشعتها، تمنعها من السطوع فتستجيب مرغمة إلى حين، تطمئن السُّحب إلى خنوعها فتتحرك ببطء وتتفرق بدلال، لتفاجئها الشمس بإشراقة طفيفة تزيدها بهاءً. فجأة ترتفع موجة لتضرب جانب القارب الصغير فيهتز بعنف، توالت الموجات وتعالت معها آهات مكتومة بالصدور وندت صرخات موءودة في الحناجر، اعترى القلق الوجوه حتى تسيدها، ثم أفسح مكانًا للانزعاج ليكسوها.

أكثر من عشرة أفراد في قارب واحد، متجاورون دائمًا، متلاصقون أحيانًا، يتمايلون بشدة، يلوون وجوههم شطر قبلتهم الوحيدة.. القبطان فارس مثلما ينادونه في هذه الأوقات رفع المجدافين وجدف بيسراه في سرعة، عندما استشعر خطرًا بسيطًا حوَّم على ملامحه، فتعمق خوف من لمحه منهم. انحرف القارب أقصى اليمين، لا يزال القلق والخوف يتناوبان السيطرة عليهم، ارتفعت ضحكات لم يُعرف مصدرها من مقدمة القارب، ربما يكون شنكل، هكذا ظن معتوق. ظل شاكر ممسكًا بحقيبته الجلدية المنتفخة في حرص خوفًا من سقوطها بالماء، في حين كان مينا غالي يتعرق وهو يحاول التشبث بأي بروز من أريكة القارب الخشبية كي لا ينكفئ على وجهه وفي الوقت ذاته كان ممسكًا بيد أنهار الخائفة. انشغل شاهين والي بمراقبة حركة المراكب الشراعية قرب شاطئ النهر عن يساره منتظرًا رسو قاربه، قلقًا على لفة ضخمة يستند عليها بذراعيه ويحوطها بكفيه، طوال الوقت لم يَكُفّ سعيد راديو عن النظر في ساعة يده بعدما اضطر لإغلاق دكانه اليوم، وكأنه يتعجل عقارب الساعة لتقفز ويعود ليفتحه.

هدأت صفحة الماء إلا قليلًا لكن قاربهم لا يزال يهتز بسبب انكسار الموجات الأخيرة، حتى طمأنهم فارس مبتسمًا على غير عادة:

- ما تخافوش.. العربيات النقل اللي عدت جنبنا هي سبب الموجة العالية.

ابتسم شاكر الجالس إلى جوار قبطان المركب مازحًا بصوت عال:

- ما تعمل فيا معروف وتوصلني شارع الجلاء عند مبنى الأهرام أسلم الشغل وأحصلكم بعدها على المحكمة.

دار القارب حول نفسه، رفع فارس مجدافيه قليلًا ليقترب من الرصيف، فجأة قفز سراج مستندًا على عصاه بمهارة وخفة حسدوه عليها، ظل يحجل في مشيته حتى وقف بنهاية الرصيف قبل أن يدور مع الطريق، ألقى له فارس طرف الحبل، لفه سراج حول ساقه اليمنى ببراعة لا تليق بسنه وظروفه فانتزع آهات إعجاب مستحقة، التفت فارس للركاب بوجه خشبي لا يرونه إلا وقت المطر:

- وصلنا آخر الخط يا أفندية.

تكثفت الغيوم فزمجرت السماء عندما بدأت تئن من حمولتها لكنها لم تمطر ثانية، هددت بقطرات متقطعة مكتفية بما أغرقته منذ الفجر على مدار ثلاث ساعات متواصلة. تركوا القارب قرب الحديقة الدولية بعدما قلبوه كي لا تتبول فيه الكلاب والقطط الضالة رافضين اقتراح السماوي بعمل كمين بالسم لها فيه، ثم انحشروا في سيارة ميكروباص لتقلهم إلى المحكمة.

اتخذوا أماكنهم بقاعة مزدحمة بمجلس الدولة، نودي على القضية، أول قضية كبيرة يترافع فيها شاهين والي بعدما اكتفى أغلب عمره بتقديم مذكرات، تقدم نحو المنصة بخطى ثابتة وقلب يرتجف، رتب أوراقه، نظر للقضاة الخمسة الجالسين أمامه، ملامحهم محايدة للغاية، أشار له أوسطهم ببدء المرافعة لما تأكد من جاهزيته لها، عادوا جميعًا بظهورهم للوراء في مقاعدهم، استرخوا وتهيأوا لسماعه أو لتجاهله، لا أحد يدري فالاحتمالات كلها مفتوحة.

انفتح باب القاعة فجأة وظهرت راوية متعبة، صفراء الوجه، يبوح السواد تحت عينيها بأنها لا تنام، أشار لها فارس وهو يفسح مكانًا بجواره، لكنها ظلت تبحث عن معتوق بعينيها ثم اتجهت إليه لتجلس بجواره، متجاهلة نظرة ضيق من القاضي للمقاطعة والضوضاء. مد معتوق يده ليمسك كفها وقلبه ينبض بشدة فتركتها حتى شعرت بدفء ثم سحبتها برفق وهي تبتسم، بينما شنكل من بعيد يغمز له وكأن لسان حاله يقول "عنادك لم يفلح في إعادة راوية لك مثلما فعلت أنا ببساطة عندما أخبرتها بالحقيقة".

وضع شاهين اللفة الكبيرة التي كان يحملها بيمينه، كانت ملفوفة في أوراق صفراء داكنة لا تكشف محتواها، فضها ببطء لما لاحظ اهتمام القضاة بها من ميل بعضهم على المنصة بنصفهم العلوي ليروا ما يحمله لهم. أخرج منها إطارًا يضم صورة فوتوغرافية كبيرة له يرتدي فيها روب المحاماة، استدار شاهين ناحية الحضور ليروها جيدًا، ثم اعتدل بجسده لتصافح صورته عيون القضاة المندهشة.. تبادلوا نظرات صامتة حائرة، ثم سأله أوسطهم في غضب:

- إيه ده يا أستاذ شاهين إنت جاي تضيع وقت المحكمة؟

- لا يافندم دي صورتي، أنا لاحظت إن صورة الريس متعلقة في القاعة هنا وفي كل المحاكم، لكن رئيس الجمهورية خصمي في القضية النهاردة، كيف أطمئن وصورة خصمي فوق رؤوسنا جميعًا؟ أنا بطالب المحكمة تعلق صورتي جنب صورته علشان يبقى في عدل ونطمن، وبعدها أترافع.

سادت لحظات صمت مربكة، ربما لم يسمعها شاهين من قبل في المحاكم، شعر بالثقة تجري في عروقه مع أن قلبه يدق بقوة، أحس بضلوعه تئن لكنه تماسك. بدأت همهمات تعلو بالجلسة، وأحاديث جانبية تدور بصوت خفيض سرعان ما علا وصار مفسرًا لها، كلها تستحسن موقفه وتنتظر رد فعل القضاة الذين لم يتداولوا كعادتهم فقد استأثر أوسطهم بالقرار، نادى على الحاجب آمرًا إياه بإنزال صورة الرئيس ووضعها على الأرض ووجهه للحائط، ثم نظر ناحية شاهين بضيق، وكأن لسان حاله يقول له: "خلصنا".

ظل شاهين يتبادل نظرات صامتة مع القضاة ثم اختتمها بابتسامة نصر وقورة، قطع القاضي الصمت وهو يدق بالدقماق لتسكت همهمات بالقاعة ثم قال:

- اتفضل اترافع يا أستاذ.

استهل شاهين حديثه بآية قرآنية.. "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن....... "

قاطعه القاضي بحسم وشدة:

- ادخل في الموضوع يا أستاذ لو سمحت من غير أي تفريعات.

شرد شاهين برهة، كمن يبحث عن مَخرج يوقن بوجوده لكنه لا يعرف مكانه بعد.

*****

بدا الأمر أشبه بورقة يانصيب تائهة، الكل يريد جذبها والفوز بها، بينما ورقة المدافع عن حقوق أهل العزبة مخبأة، لا تزال في علم الغيب.. ورقة في أروقة محكمة، تتأرجح بين شفاه قضاة قد لا يحكمون لصالحهم، ووقتها سيكونون جميعًا من الخاسرين بعدما تحدوا الحكومة.

قلب شاهين ورقتين من أوراقه تحملان مدخلًا يبدأ ببضع آيات من القرآن والإنجيل، أيضًا بعض أحاديث شريفة منتقاة بعناية ومقولات مأثورة، تجاوزها جميعًا ثم حاول أن يستهل مرافعته بشرح أوضاع عزبة الوالدة الاجتماعية ودور الجمعية السرية في تطويرها، لكن الكلمات طارت من لسانه خوفًا من الانزلاق لمواردها مع أنه يراها بعقله في وضوح مرتبة كما أعدها، سكت شاهين قليلًا ليتناول شربة ماء، نظر في أعين القضاة فوجد نفس النظرة الميتة، فوضع الكوب بعنف لينتبه له الجميع، ثم أكمل مرافعته بعدما نحى أوراقه كلها جانبًا حتى لا تتسيده ويحني رأسه.. قال:

"قلنا نعم في كل استفتاء أشرفتم عليه، وقالوا لنا لا على كل مطالبنا بعدما اعتمدتم نتيجة نجاحهم، نحن ولدنا وعشنا وسنموت في سرادق كبير، نتلقى العزاء في أرواحنا كل حين، حياتنا كلها خريف، تسقط ورقة من شجرتنا كل يوم، ليأتي إلينا من أعلنتم نجاحهم وقلتم بفخر ها هم ممثلوكم الذين اخترتموهم وأعطيتموهم أصواتكم في الصناديق، مع أننا لم نرهم من قبل ومن بعد، جاءوا بعدما تحصنوا، دخلوا سرادقنا كمعزيين، فدهشنا وتساءلنا من هؤلاء؟ فلم يجبنا أحد.. إذا كانوا هم المعزيين فمن يكون القاتل؟

على مدار أكثر من ساعة ظل شاهين يترافع، أفاض في شرح مواد القانون وتفنيد مذكرة الحكومة ثم اختتم مرافعته بصوت جهوري أدهش أهل العزبة:

"سيدي القاضي لن أعتذر للإطالة فما زال في جعبتي المزيد، ولن أحتفظ به وحدي فصدري ضاق، لا تزال النفوس غاضبة والقلوب منكسرة والدماء محتقنة والعقول حائرة، ولو تحرك الجسد

العليل في حشود سيحرق ويحترق، وإني لأربأ بكم أن تكون كلماتكم التي ستسطرونها بحكمكم وقودًا لتلك النار وحطبًا لزيادة سعيرها.

حضرات السادة المستشارين لدي كلمة مهمة، لتتعرفوا من خلالها على رافعي الدعوى وأنا منهم، نحن الذين أخذنا من الدنيا أقل مما نستحق وأكثر مما توقعنا، اسمحوا لي أن أضرب لكم بعض الأمثلة حرصًا على وقتكم، هذه السيدة التي تجلس بالصف الأول هي راوية السيد الشهيرة براوية الحكايات، السيدة التي تحكي لتلاميذها ما حذفته الحكومة من كتب التاريخ عن حلوان التي كانت مَشفى فصارت مَمرَضًا، مُعلمة تصر على أن يكون الفصل خمسة وعشرين تلميذًا، تضطر لتدريس الحصة مرتين لأنهم ضاعفوا لها العدد، ثم كان جزاءها الفصل من الخدمة حتى صدر حكم بإعادتها لعملها، فالأمل في القضاء لم يخفت بعد، راوية يا حضرات هي التي دخلت القاعة متأخرة بعد بدء الجلسة لأن أمها المسنة لم تسلم من الأذى، شعرت بدوار بسيط ودخلت المستشفى العام على قدميها فسرقوا كليتها منذ شهر، ولا يزالون يحتجزونها بالعناية المركزة، سرقوها مرتين، جزء من جسدها وكل مدخراتها".

بدا شاهين والي مثل مايسترو يقدم أعضاء فرقته الموسيقية للجمهور متفاخرًا وهو يستكمل كلامه:

"هل ترون من منصتكم العالية الرجل ذا الساق الخشبية، هذا سراج البدوي منادي السيارات، حلمه الأوحد أن يعطوه كشكًا ليرتزق منه فجعلوه يرى كوابيس كلما تجرأ وطلب منهم تحقيق الحلم، هل تعرفون أنه المصدر السري الذي يطمئن له البعض منكم في قضاياه وهو يسطر أحكامه؟ هل تطمئنون لمعلومات وتحريات من تاجر ممنوعات سابق أجبرته الحكومة يومًا على ما لا يريده؟ أما هذا الضخم الذي يحتل مساحة مقعدين، فهو سعيد جمال بطل الجمهورية السابق في كمال الأجسام، الذي نعرفه باسم سعيد راديو، الشاب الرياضي الذي أعطوه حقنة خاطئة بالقصر العيني، ثم تنكروا له ورفضوا علاجه حتى تضخم كبده ويكاد يفارقنا في أي لحظة، سعيد كل طموحه في الحياة أن يترك مالًا لستر بناته. هل تعرفون الجالس بجواره مباشرة؟ هذا شاكر الجهيني، بالتأكيد لا تعرفونه مع أنكم تقرأون ما يكتبه كل يوم، وتضحكون، وأحيانًا كثيرة تصدقون، صدق أو لا تصدق سيادة القاضي أن هذا الرجل ساهم في حماية مئات البيوت من التصدع والانهيار، هو أمين صندوق جمعية تساعد المواطنين، يكاد يكون الوحيد في مصر تقريبًا الذي اؤتمن على مال ولم يختلسه، جمعية أنشأها الفنان معتوق رفاعي الذي يجلس في صدر القاعة متلفعًا بكوفية خضراء، الفنان

الذي اتهموه ظلمًا بسرقة لوحة الخشخاش حتى ظهر اللص التائب لو تتذكرون، لكنه ظهر متى؟ بعدما ضاعت عشر سنوات من حياة معتوق وراء الأسوار.

انظروا إلى الصف الخلفي، تأملوا الباقين، عبده شنكل وفتحي السماوي والست أنهار والمخترع مينا وزكي الساكت وفارس عودة وخليل البنهاوي والست حربية، وراء كل منهم حكاية حزينة لكني لن أحكيها حتى لا أطيل عليكم، وربما يكون خيالكم أفضل مني لتتعاطفوا معهم. الآن قالت لهم الحكومة انتهت فترة صلاحيتكم.. لا لزوم لكم، وعليهم تدمير ذكرياتهم في المكان برؤوسهم، أو يستبدلون بها أخرى جديدة بعدما تجاوز غالبيتهم الستين من عمرهم. فماذا أنتم فاعلون؟" .



30

أحيانًا كثيرة تصير الحقيقة مثل حصاة صغيرة وسط كثبان رملية من الأكاذيب، ومعتوق عليه كشفها ثم إقناع الناس بوجودها ليصدقوه، شرد قليلًا أثناء مرافعة شاهين، شعر أنه أخطأ عندما جعل نشاط الجمعية السرية يرى النور ويتوسع، ثم أخطأ لما وافق شاهين على تحدي الحكومة وغريب أبو إسماعيل من قبلها وأتى بهم جميعًا إلى هنا أملًا في حكم ينصفهم، وحتى لو صدر حكم لصالحهم ستجد الحكومة ألف وسيلة للتحايل على تنفيذه ولن يكسبوا إلا عداوتها، شعر أنهم يسيرون وراءه كقطيع، كل اثنين متجاوران، وراء بعضهم البعض كحيوانات نوح لكن بغير ذكر وأنثى، لم يعد يضمن لهم نجاة، لن يجدوا أمامهم سفينة، وربما يدركون متأخرين مثله أن السفينة التي كانوا ينتظرونها ليست سوى قارب ورق.

عاد صوت شاهين يجلجل وكأنه يعوض سنين عمره التي لم يترافع فيها، أطال الكلام حتى سأله القاضي في ضيق عما إذا كان قد انتهى فأجابه شاهين بنبرة غاضبة:

- سيدي الرئيس، لدينا رغبة عامة أنقلها لكم بالنيابة عن كل المواطنين.. إذا نوى السياف اليوم قتلنا، فعلى الأقل أعطونا فرصة أخيرة كي نبصق في وجهه.

كررها شاهين وهو ينتحب عدة مرات ذاكرًا اسم غريب أبو إسماعيل في نهايتها حتى راح صوته، فقاطعه القاضي:

- يا أستاذ شاهين ادخل في موضوع القضية، اتكلم في القانون، أو اختم مرافعتك لو سمحت من غير إساءة لأي شخص.

بصعوبة قال شاهين:

- يا ريس كل اللي بقوله في الموضوع، لكن القانون مش في صفي علشان أتكلم فيه، القانون مليان ثغرات ومع ذلك مش بيشوفنا بوضوح غير لما يطبق علينا بقسوة، أنا بتكلم بالحق، بتكلم بالعدل، بتكلم بروح القانون، بخاطب ضميركم، موضوعنا يا سيادة القاضي إننا عاوزين..................

سكت شاهين ولم يكمل.. غلبته غلالة دمع انسدلت على عينيه فجأة ثم تحشرج صوته، تاهت الكلمات من عقله، رأى الصورة مهزوزة ومشوشة، خيل له أن ميزان العدل يهتز بقوة، رغم أنه منحوت على جدران القاعة، لوح بيديه في الهواء كمجذوب على أعتاب السيدة زينب يستغيث ببركاتها، لا سبيل أمامه إلا الدعاء. فتمتم به.

أشار له القاضي بيده كي يتوقف ثم أمر له بكوب ماء، عرض عليه أن يرتاح قليلًا إذا ما شاء، لاحت على ملامح القاضي ابتسامة ودودة لأول مرة وهو يقول بصوت خفيض موجهًا حديثه لشاهين: "فكرتك وصلت للمحكمة يا أستاذ شاهين وباشكرك عليها"، ثم تبادل همسًا مع الجالسين عن يساره ويمينه، فهزوا رؤوسهم مؤمنين على ما همس لهم به.

صاح القاضي بنبرة مطمئنة محتفظًا بابتسامته الودودة:

- رُفعت الجلسة.

ما إن غادر القضاة حتى سرت ضوضاء في القاعة، مالت راوية على أذن معتوق وهمست ببضع كلمات جعلته يبتسم كطفل وهو يردد اسم ابنته زهرة في فرحة ولهفة.

*****

اعتلى غريب أبو إسماعيل سرير الكشف بصعوبة في المركز الطبي العالمي، تمدد على ظهره كبطريق ضخم ثم علت أنفاسه، ارتفعت وانخفضت كرشه، خرج صوته متحشرجًا بسبب رقدته بغير وسادة، ليخبر الطبيب بنبرة قلقة بأنه ليس على ما يرام.

كشف الطبيب صَدر غريب ليسمع دقات قلبه، وبعد فحص دام لأكثر من ربع الساعة امتقع فيها وجه غريب من نظرات الطبيب القلقة، وأسئلته المتلاحقة التي رد عليها بإجابات خاطئة عن عاداته في الطعام خشية منعه من صنوفها الدسمة، قلب الطبيب سحنته وهو يقول بنبرة جادة لكنها لا تخلو من تشفٍّ:

- ما أخبيش عليك يا غريب التحاليل والأشعة اللي معاك مش مطمئنة، عندك قصور في الشريان التاجي ده غير إن عضلة قلبك ضعيفة جدًّا، في أشعة وتحاليل تانية لازم تعملها لكن مؤقتًا حكتبلك على شوية أدوية تصبرك على ما ابتلاك.

- يا خبر إسود، أرجوك شوف أي علاج وما يهمكش التكاليف، أنا مش عاوز أتبهدل.

خلع الطبيب سماعته في ضيق، جلس إلى مكتب صغير ليكتب دواء وأشعة وتحاليل جاوزت الصفحتين، ظل غريب يُلح عليه كي يتصل بزملائه بأي مستشفى خاص آخر لعمل كونسولتو، فابتسم الطبيب في أسى وهو يسلمه الروشتة قائلًا:

- ما إنت زرت دكاترة كتير قبل ما تيجي لي يا غريب وكلهم قالوا لك نفس الكلام، صدقني لو عندك قرشين على جنب اتبرع بيهم يمكن ينفعوك في آخرتك، خسارة تضيع فلوسك في المستشفيات هنا، إنت عضلة القلب ضعيفة جدًّا زي ما قلت لك وأي عملية النهاردة ممكن السر الإلهي يطلع وقت التخدير. كمان سنك كبير وعملية زي دي لازم تعملها برة مصر.. سافر .

- معقول الكلام ده يا دكتور؟! اتصرف أرجوك أنا مستحيل أسافر برة اليومين دول لأني ممكن أحلف اليمين في أي لحظة، إنت عارف إني مترشح وزير ثقافة ولو سافرت وعرفوا إني عيان حيشوفوا غيري .

- عارف يا معالي الوزير وألف مبروك لكن العملية هنا صعبة في حالتك جايز برة يكون عندهم حلول تانية.

- والعمل إيه يا دكتور لو مفيش سفر؟

- قول يارب.

خرج غريب أبو إسماعيل من المستشفى منهكًا يؤلمه صدره، ساقاه ثقيلتان كأن قدميه كيسان من رمل، مضى زائغ النظرات تائه الخطوات لا يفكر في الذهاب لطبيب آخر، يثق تمامًا في هذا الطبيب الذي تربطه به صداقة قديمة، لن يخدعه، ثم إنه ذهب لغيره قبله وتلقى النتيجة ذاتها، ربما خيبة أمله هذه المرة بسبب توقعه أنباء سارة أو حلولًا سحرية من صديقه، تراقص شبح الموت على سرير العمليات بسبب ضعف عضلة قلبه أمام عينيه، أوقف سيارة أجرة بعدما صرف سائقه بعصبية، تهاوى بأريكتها الخلفية تتلاحق أنفاسه مع أنه لم يبذل أي مجهود يذكر، خرج صوته بالكاد للسائق:

- اطلع على سيدنا الحسين يا أسطى الله يكرمك.

في رحاب الحسين مضى غريب تائهًا كالمجاذيب، لم ينتبه لمن اصطدم به واعتذر لكنه نشل حافظة نقوده، ولما تجاوز صحن المسجد في طريقه لدورات المياه الخلفية ليتوضأ لم يتبق معه إلا ساعته الذهبية بعد سرقة هاتفه المحمول بالطريقة ذاتها عندما حشره لصان بينهما وهو مستسلم كما المخطوف، ثم سهل غريب الأمر على بقية السارقين المنتظرين نصيبهم في الفريسة السمينة، خلع ساعته من رسغه ونسيها، ومضى يناجي ربه كراهب زهد الدنيا.

منذ بداياته وهو يشعر بتقارب أفكاره مع سياسات الحكومات المتعاقبة، كل شيء قابل للبيع، الذكريات فقط ودونها يُشترى.. الطعام، الملابس، الناس، الشرف، الذمة، السيرة، الفن ذاته.. خاصّة الفنّ لأنه مَن يملك المال وحده، تقدم الصفوف ليشارك فلم يعترضه أحد، شعار المرحلة في بداية الثمانينيات كان تأجيل عمل اليوم للغد الذي لا يجيء أبدًا.. المهم أن يكون الكل في حالة انتظار، أن يكون الكل مشغولًا بلحظة الوصول التي لا تحين، والمهارة في تشويق المنتظرين، بإيهامهم أنهم يرون خط النهاية.. يقتربون منه، ليصبروا وقتًا أطول ولا يملوا أو يتذمروا رغم أنهم مثبتين في مكانهم، ولأن جرائمه كانت داخل الصندوق وطموحاته بعيدة عن الكبار وصورته لا تتصدر المشهد وحده أبدًا.. تركوه يمرح ويغترف حتى انتفخ، شارك الكثيرين من مسؤولين حاليين وسابقين ضامنًا الحماية وموفرًا المال لغالبية شركائه، حتى لا يجوع أحدهم فيريه أنيابه ثم يغرسها في لحمه.

سجد اليوم ركعات كثيرة لم يعد يهتم بعددها، مثلما كان يحرص في صلواته الخمس لينتهي منها بسرعة، ظل يتمتم بأدعية خاصة لحفظ أمواله التي كدسها طوال السنين الماضية، طلب أن تزول

الغمة وتعود الصحة ليصبح وزيرًا للثقافة كما وعدوه ، تلك الخطوة التي انتظرها عمره كله لتمحو كل خطاياه وتعيد كتابة تاريخه ليخلد اسمه للأبد.. الفنان غريب سعيد وزير ثقافة مصر.

علا صوته بالدعاء وهو ينتحب، لا يريد أن يموت الآن، لم يشبع بعد والزاد المدخر كثير، رفع يديه عاليًا مناجيًا الحسين هذه المرة، حلفه بالنبي وبآل البيت أجمعين أن يُبقي الصحة والمال والبنين.. سكت برهة ليلتقط أنفاسه اللاهثة من فرط انفعاله وضعف قلبه، ثم قال بصوت خفيض خالطه الخجل "والوزارة يارب".

شعر بسكينة تغمره وبراحة تسري في صدره بعدما انتهى، وفي غمرة انشغاله بمسح وجهه في خشوع كان أحدهم سرق حذاءه وابتعد.

*****

هز معتوق رأسه في ضيق بعدما انتهت مرافعة شاهين وتحولت القاعة إلى مكلمة صار الكل فيها عليمًا ببواطن الأمور، شرد وهو يتأمل صورة الرئيس بعدما أعادها الحاجب مكانها لتتصدر القاعة، صورة جديدة ربما بمناسبة الفترة الخامسة التي يستعد لها فوق الكرسي، مع أن لا أحد يجرؤ على مزاحمته فيه، شرد في أن صورة الرئيس باتت تحاصره أينما ولى وجهه، صورة تقول إن كل الأشياء ناقصة لكن الزعيم وحده كامل، الرجل يتحدى الزمن، لا تجاعيد ولا شعرة بيضاء واحدة، ربما يكون معتوق معذورًا، فالرئيس صار جزءًا من طقوس الحياة اليومية، منذ تتفتح العيون في الصباح تراه في الجرائد وفي الشوارع وفي التلفزيون، تسمعه الآذان في الراديو وعلى المقاهي، صورته معلقة في فصول المدارس، بمدرجات الجامعات ومحطات المترو، حتى قاعة المحكمة بها صورته، يرونه على الكورنيش من شرفة مساكنهم بعزبة الوالدة، صورة من بعيد لكنها مضيئة بالنيون تذكرهم بوجوده، سيقول لهم صباح الخير وسيغمضون عيونهم على ملامحه قبل النوم، ليظهر في أحلامهم أو كوابيسهم وفقًا لموقفهم منه، الرئيس في دمهم، نسيج من أنسجة أجسامهم، قطعة منهم، خلقوا وحبه في وجدانهم منذ نعومة أظافرهم التي لن تكبر ولن تطول في

ظل وجود سيادته، يدرك معتوق أنه لن يستطيع الشكوى أو حتى الاعتراض، فالمرء إذا ما توجع أو تألم فهل يلعن هذا الجزء من جسده؟!

انتبه إلى ابتعاده مسافة كبيرة عن الجالسين بجواره، فقد خيوط الحديث لما وجهوا له سؤالًا فعجز عن الرد، راح يلتقط أنفاسه مع أنه لم يبذل مجهودًا يذكر، صدره يرتج وحلقه جاف، لا يعرف ما إذا كان عليه التراجع أم يكمل المسيرة مع الباقين، فالغيوم التي تلت مرافعة شاهين رغم كثافتها تشي بشمس وراءها تنوي السطوع من جديد.



31

ربما محض مصادفة، وربما قدر تواطأ ضدهم مع الواقع، فلم تكد الجلسة تُرفع والقضاة يغادرون لحجرة المداولة، حتى انتشل مجموعة من الضباط معتوق رفاعي من مكانه، اقتلعوه كنبتة ضعيفة أوشكت على الذبول فلم ترهق أياديهم، يعلم معتوق مسبقًا التهمة، ينتظرها كهارب من ثأر قديم يتوقع الموت كل يوم فلم يجادل، يعرف أن غريب لن يسمح له بالبقاء طليقًا كي لا يفسد فرحته بالوزارة القادمة، لا بد أن يختفي معتوق مثل كل دفتر قديم يحمل سيئات غريب، اليوم ستُكتب دفاتر جديدة ناصعة، تدفقت الأسئلة من باب موارب برأسه لم يفلح في غلقه حتى غاص فيها وكادت تغرقه.. مع أنها ذات الأسئلة الساذجة المباشرة التي لا يكف فارس عن طرحها بالمقهى.. لماذا تركوا غريب عشرين عامًا يُقيم العشوائيات بعزبة الوالدة ويمد لها المرافق ثم يطالبون من ساروا خلفه بسداد الضرائب؟ لماذا تركوه يسرق لوحات غيره وينسبها لنفسه واعتبروه فنانًا والآن وزيرًا سيحلف اليمين خلال ساعات؟ لماذا تركوا إخوان مدحت الصيدلي يوزعون الملازم التعليمية ومواد التموين بدلًا منهم؟ لماذا تركوا لهم الزوايا والمساجد وحرموا على الباقين المعارض الفنية وحاربوا الندوات الثقافية؟ لماذا يسهل القبض على المواطنين ويصعب حل مشاكلهم التي دفعوهم إليها؟ لماذا تركوا لهم الحبل على غاربه بلامبالاة وفجأة يلفونه حول رقابهم في تسرع وعصبية؟

هز معتوق رأسه في أسى وهو يسير وسط حُراسه شاردًا في أسئلة فارس التي يعرف الجميع إجاباتها ومع ذلك لا يملون من ترديدها. هل يأتي يوم يعيدون لهم فيه ما أخذوه منهم بالباطل؟ أم سيصبحون شركاء في جرائم أهل العزبة ويتقاسمون معهم المكاسب؟ هل يطمعون في الجمعية السرية ويفكرون في تأميمها؟ ربما هذا ليس وقت أسئلة، وحتى لو كان فلن يُجيبه أحد، الأمر المؤكد أنهم قرروا حل الجمعية السرية للمواطنين وأن هذا الموعد اقترب.

مضى معهم كمحكوم عليه بالإعدام، لا مفر أمامه من قطع الخطوات الأخيرة في اتجاه واحد لا عودة منه، رمى نظرة يائسة على الحضور وهو يسير وسطهم مكتوف اليدين، يدرك أن غريب أبو

إسماعيل هو مصدر البوليس هذه المرة، لم يعد المصدر سريًّا كما كان، بل صار علنيًّا يبوح في بجاحة بكل ما يعرفه عن عزبة الوالدة.

انتهى العرض فجأة قبل ظهور كلمة النهاية، سكن الهواء بالقاعة، لم يتحرك أحد، لم تلتق نظرتان، جمدت ظلال أسياخ النافذة المنعكسة على الجدران، تحنطت القطة التي كانوا يرونها تقفز وتموء عبر زجاج القاعة المهشم، أقدام معتوق تجاهد الهَم والحزن لتتحرك بعيدًا عن الحرية، رقدت المعاني المتبقية في صدره، خفت الحلم وتوارى الأمل، أظلمت الوجوه التي كانت مشرقة بنشوة الانتصار، شعر أنه خذلهم، وكان يتمنى أن يفعل شيئًا أكبر من أجلهم، على الأقل يموت بشرف، ويكفر عن ذنوبه كلها.

فجأة علا صياح الحاجب بصيحته الشهيرة.. محكمة..

سكنوا جميعًا كأن أنفاسهم كتمت. لم يكد القضاة يجلسون حتى قاموا بعدما نطق أوسطهم بكلمات قليلة قائلًا:

- قررت المحكمة تأجيل القضية لجلسة الخميس 11 فبراير للنطق بالحكم.. رُفعت الجلسة.

*****

اهتز القارب ببطء واهتزت ثقتهم بشدة، تهدهد قاربهم على بركة المياه التي خلفتها الأمطار، الغيوم تقترب رغم ابتعاد موعد مغيب الشمس، والهواجس تتوالد بالمئات كيرقات نمل، نظرت راوية ناحية النيل بوجه مضطرب، لمح فارس دموعًا لامعة بعينيها كحبات لؤلؤ، دموع لم يرها من قبل، أوجع من آهات الألم وبطول ليالي الحزن التي مرت عليهم، أغمضت راوية عينيها وطاف بخاطرها هاجس سخيف مثلهم جميعًا، هاجس رفع الراية البيضاء أمام التمرد، رأت نفسها تجهز دروسًا وتعدها بعناية لتلاميذها عن الرئيس صانع النهضة الحديثة والمدن الجديدة مثلما كان الخديوي إسماعيل من قبله، ستقول لتلاميذها إنه امتداد له، مع أن رفاقه ثاروا على حفيده وطردوه من ملكه، بجوارها شاكر الجهيني كان شاردًا بدوره في كتابة قصص الغارمات ودور السيدة

الأولى في العفو عنهن، في حين ثبت سراج نظره على أنهار، يُلح شيطانه عليه للوشاية بها وبتاجرها الذي يَمدُّها بالحشيش، صيد ثمين وخبر يصلح للصفحات الأولى بكل الجرائد، ترقية مؤكدة لرئيس المباحث الجديد، وربما أعطاه بعدها ترخيصًا بالكشك الذي يحلم به. لكنه هز رأسه في ضيق، أنهار صيد كبير حجمًا فقط، صيد متخم بالشحوم والدهون ولا رجاء منه، هي مثله مجبرة على ما هي فيه، تائهة، تقف على الحافة بين رجيف القلق ورجفة الخوف، تدور في حلقات مفرغة ببطء وصعوبة كلاعبة باليه معتزلة من عقود أنساها الزمن دقة الحركة وسلب منها خفتها فأوشكت على السقوط. أيامه باتت معدودة وحتمًا سيطلقون عليه النيران كخيل الحكومة لكنها لن تكون رصاصات رحمة. اقتربوا من مدخل العزبة، لمح العدسة المركبة فوق لافتة محل سعيد راديو، بدت مصوبة نحوه، خيل له أنها بندقية قناص على وشك قتله، هذه الكاميرا الصينية الرخيصة أدق وأصوب، ومهما أعادت الحدث لا تكذب ولا تخطئ. ارتطم القارب بالرصيف وابتعد عنه ثم بدأ يقترب، راح زكي الساكت ينعى اختياراته فبدا كمجذوب يحدث نفسه، لماذا لم يذهب بمئات الشهود الذين لقنهم الشهادة الزور إلى لجان التصويت ليقولوا نعم؟ على الأقل كان سيضمن الحماية وربما مقعدًا في البرلمان أيضًا مكافأة نهاية الخدمة على الذنوب.. من يدري.

رماهم شاهين بنظرة شاردة، عقله يدور مثل ماكينة معتوق، هذه المرة لن يصدقوا دفاعه أنه مجنون، مع أن فكرة الجمعية ونشاطها يعلنان جنونه بالفعل، نظر إلى مينا مذكرًا إياه باتفاقه البديل مع معتوق، أومأ الفتى ولمعت عيناه بحماس.

علا صوت فارس غاضبًا، وهو يلومهم.. لا توجد سفينة نوح.. المجتمعات الفردية التي لا تفكر إلا في نفسها تغرق، وزع بصره عليهم بالتساوي وهو يصرخ فيهم واصفًا إياهم بخيول خرساء ستموت من فرط صمتها، لم يتوحدوا إلا على استحياء، دائمًا في اللحظات الأخيرة، في الوقت الضائع، وعند أول عصا يتفرقون، ولا يفكرون إلا في أسرع وسيلة للقفز من القارب.

غادروا في هدوء وتركوا قاربهم يبتعد عن الرصيف ويتأرجح خاويًا على صفحة الماء كأنهم لا ينوون العودة، ما إن دخلوا العزبة حتى وجدوا جمعًا من قوات الأمن المركزي في انتظارهم، شعروا أنهم وقعوا في كمين جماعي، لعبة قط وفأر عبثية بلا معنى، تركتهم الشرطة في المحكمة لتقبض عليهم بالعزبة، لكن الضباط والعساكر لم يعيروهم اهتمامًا، تجاهلوهم كأنهم لا يرونهم فزادت دهشتهم.

تحرك فارس ثم شنكل وبدأ الآخرون يسيرون خلفهم شبه متلاصقين، يستمدون الاطمئنان من تلاحمهم، أراحهم هذا الشعور وربما أحسوا بندم يسري بصدروهم لأنهم لم يلجأوا إليه من قبل. من بعيد لمحوا دخانًا كثيفًا وألسنة لهب تُخمد بصعوبة رغم تدفق المياه من خراطيم المطافئ، سرينات الشرطة لا تهدأ، عند المقهى شاهدوا بعضًا من الأهالي ملتفين حول شاشة التلفزيون، يغلفهم صمت مريب ويتابعون باهتمام مشاهد لنيران تلتهم مباني كثيرة، تتبع الكاميرات الدخان الأسود الذي رأوه منذ برهة، وقفوا ليتابعوا ما يجري معهم، ففي الهم يصبح الجميع متساوين والقلق يوزع بعدالة.

شق السكون صيحة فزعة من شنكل:

- دي المكتبة وقاعة الفنون..

تلفت له البعض في ضيق ونهره آخرون ليصمت، رفع أحدهم صوت المذيع ليغطي على أصوات المتراصين أمام الشاشة كتماثيل الأوشابتي الفرعونية الخشبية التي تصاحب مومياء الملك بالمقبرة في رحلة الخلود كي تدعو له في الحياة الأخرى، مثلما صفقت ودعمت وأيدت في الحياة الأولى..

علا الصوت أكثر، فلم يسمعوا غير المذيع البدين الأصلع وملامحه تتصنع الجد بالكاد كي يتناسب وخطورة الحدث:

"صرح رئيس الوزراء أن حريقًا هائلًا قد نشب ببعض المباني المخالفة بحلوان نتيجة انفجار أنبوب غاز ظهر اليوم، التهمت النيران غالبية المباني الثلاثة المهجورة بمنطقة عزبة الوالدة جنوب العاصمة، وقد تمكنت قوات الدفاع المدني من السيطرة على الحريق، وتشير التقارير الأولية إلى عدم وجود مصابين ولا وفيات حتى الآن، وقد أكد وزير الحكم المحلي أن المباني مخالفة لشروط البناء وصدر قرار بإزالتها لكن الأهالي عرقلوا التنفيذ، كما أصدر السيد الرئيس توجيهاته لجميع الجهات المعنية بفحص جميع المباني الأخرى بالمنطقة حرصًا على حياة أبنائه من المواطنين.. التفاصيل تأتيكم من القاهرة بعد قليل.. أرجوكم ابقوا معنا".



32

ذهب معتوق لحتفه محشورًا بين جدارين، واقفًا في عنق مثلث، لو اعترف لن يكون بطلًا ولما صدقه أحد، ولو صمم على إنكاره سيدخل السجن بقية حياته حتى يتعفن فيه ويموت، لا حل أمامه سوى هدم جدار الخوف بعدما طال التهديد الأشياء الحقيقية في مسيرته، لكنه لا يقوى إلا على نزع نصيبه منه، حجر واحد فقط ليجد مخرجًا مما هو فيه، وعليهم جميعًا أن يطرقوا الجدار من بعده طرقات خفيفة، حتى يسقط كله فجأة.

شرد في حال أعضاء جمعيته، شاهين التقى به للحظات بسراي النيابة وبدلا من أن يقدم له طوق نجاة حصل منه على صك نجاتهم وتركه وحده يغرق، لا يعرف معتوق أن في تلك اللحظة التي تدور فيها الهواجس برأسه دوران الرحى تسللت أنهار ومينا مع فتحي السماوي وسراج إلى غرفته بعزبة الوالدة، التي لم تفتشها الشرطة بعد، حملوا الماكينة وأخفوها بسندرة أنهار لتجلس عليها وتحرسها، ثم عقدوا اجتماعًا وحيدًا لأول مرة بدون معتوق، ناب عنه شاهين في رئاسة الجلسة التي لم تستغرق وقتًا طويلًا، حثهم فيه على التكاتف خلف معتوق بعدما اعتبرتهم النيابة العامة مجنيًّا عليهم في القضية لأنهم ضحية لنقوده المزورة، افترضت فيهم النيابة حسن النية كي يثبتوا التهمة عليه، أخبرهم أن شهادتهم مطلوبة بالنيابة غدًا، طمأنهم أنه وضع خطة قانونية للقضية ثم ذكرهم بالخطة البديلة التي وضعها معتوق في حال حل الجمعية ونقل لهم رسالته إليهم، الآن الحكومة تنوي الحل والآن حان وقت المعركة، قالها بصوت جهوري كقائد عسكري، لا مخرج أمامهم سوى الالتصاق ببعضهم البعض، وإذا كانت حالة الطوارئ تحول دون تجمعهم فليجعلوا تفريقهم مستحيلًا.

سادت لحظات سكون مهيبة، العيون تتبادل القلق والترقب والانتظار، الكل تدثر بأحلام مشوشة لا يستطيع تفسيرها، أشعل فارس سيجارته وأطلق نفسًا طويلًا لأعلى، خرج معه ما تبقى من صبر، ودمعت عينا راوية بلا سبب، أما سراج البدوي فقد دفس هاتفه في جيبه عقب مكالمة سريعة ثم نظر لهم قائلًا بنبرة فاقدة القدرة على الجدال:

- خلاص مفيش حلول تانية قدامنا ولا في وقت، المباحث حتفتش بيت معتوق الليلة وفي استدعاء رسمي من النيابة لنا كلنا.

كلمات سراج أشبه بساعة الصفر لكن قبل أن يغادروا الاجتماع أشار لهم شاهين ناحية اللوحة ثم سألهم سؤالًا واحدًا يحتاج لإجابة بكلمات قليلة، كلمات تقرأ من اليمين لليسار وليس العكس، "هل تريدون الحفاظ على مكاسب الجمعية؟" سكت لبرهة ليرى وقع كلامه عليهم، تلحفوا بالصمت متأرجحين على حبال التردد بين الخوف والجرأة، لا كفة تميل عن الأخرى، لكن شاهين استشعر رغبة كامنة بهم تنتظر دفعة أخيرة، فأردف صائحًا:

"طول ما الحمار ساكت.. العربجي حيزود الحمولة".

أكد عليهم لمرة أخيرة أنهم إذا اختاروا الخوف سيفشلون، وإن اختاروا الجرأة سينجحون، أو على الأقل ينهضون مرة ثانية من رقدتهم التي طالت هذه المرة.

خرجوا تباعًا عائدين لعزبة الوالدة، توجهوا جميعًا للمقهى ولحق بهم بعض الأهالي ثم زاد العدد كأنهم يتكاثرون، بدا التابعون كالسائرين نيامًا الذين وجدوا في اتباع الأقلية مخرجًا وحيدًا لهم، تجاهلتهم قوات الشرطة المتواجدة بالعزبة مع أنهم فصيل شارد عن القطيع، مهمشون حتى إذا ما قرروا التمرد، لا أحد يهتم بهم. أو هكذا شعروا.

*****

طالت التحقيقات لأكثر من ثلاث ساعات ووكيل النيابة لا ييأس، يُعيد صياغة الأسئلة كلما فرغ منها، لعل معتوق يخطئ وينكشف كذبه ويتوقف عن المراوغة، كأنهما في مباراة شطرنج صعبة، لا تشي مقدماتها بنتيجتها النهائية، كل هجوم يقابله دفاع مصحوب بنقلة مناورة مراوغة، تحمي لكنها لا تكسب أرضًا جديدة، ينفعل المحقق ويحدق في وجه معتوق، يتعجل الحقيقة المخنوقة في حلقه، لكنها لا تنزلق لشفتيه، فلا جدوى من اعتراف الآن طالما لا ينوي التوبة هنا.

رغم تركيزه مع أسئلة المحقق انشغل تفكير معتوق بأهل العزبة مرة ثانية وربما ثالثة، ألح على عقله سؤالهم له بآخر اجتماعات الجمعية عندما كان يفند لهم بنود الخطة البديلة، يومها أطلعهم على ما اخترعه مينا غالي من أجل الحفاظ على مكتسباتهم من الجمعية السرية، فسألوه بعدها: "هل سنموت؟" أجابهم بسؤال آخر: "وهل كنا نعيش؟"، ثم استبق تفكيرهم بسؤال ثانٍ: "وإذا عشنا هل تظنون أن تلك كانت الحياة؟".

يشغله أنهم لا يدركون بعد أن الحكومة عقدت معهم اتفاقًا ضمنيًّا رغمًا عنهم، سمحت لهم فيه أن يتصرفوا بطريقتهم ليعيشوا على نفقتهم، سكتت وهي تغمض عينيها وتسد أذنيها، لكن وقت اللزوم ستتكلم لتواجههم بما رأته وسمعته وتبسط كفيها لتقبض منهم ثمن ما فات، وعليهم أن يتحملوا عقوبة القانون الغليظة لو أمسكت بهم متلبسين. الجمعية السرية بلا رسوم للانضمام إليها، لكنها بمصروفات باهظة عند تصفيتها.

تذكر أول درس تعلمه بكلية الفنون الجميلة، أن الفنان عندما ينتهي من لوحته ليس عليه أن يقدم تفسيرًا أو شرحًا لما رسمه، صار راضيًا أخيرًا عن لوحة الجمعية السرية للمواطنين ونقلها منذ يومين لمكتب شاهين كأنه كان يستشرف النهايات، يا ليتهم سألوه عنها، أو على الأقل ليتهم يتأملونها الآن، لعلهم يدركون الرسالة بعدما انقطعت السبل بينه وبينهم.

أغمض معتوق عينيه ولم يعد يرى إلا ابتسامة راوية التي لم تغب عن مخيلته، ابتسامة تمسح الزيف عن ذكرياته المجروحة التي باتت ملتصقة بملامحه. خيل له أنها تحكي له درسًا من دروسها فغطى صوتها على اتهامات المحقق..

"وبعد سنوات طويلة من موت الخديوي إسماعيل ربما يظهر مؤرخ أمين مدقق فينصفه، ويخبرنا بأن الإنجليز ورطوه في الديون ، وأن نواياه كانت طيبة لنهضة بلاده ومواطنيه، لكنهم أغروه ومهدوا له طريقًا ملغمًا سار فيه مطمئنًّا، ومن غفلته ظن أن أصوات انفجار الألغام التي عبر عليها غيره وراءه وماتوا منها تطلق من قوات المدفعية التابعة له مرحبة به ومؤيدة لقراراته".

*****

توقفت العربة الزرقاء الضخمة فجأة، ومن بين فتحات ضيقة كبيوت النمل لمح معتوق جمهرة من أهل العزبة ، ليسوا من أعضاء الجمعية السرية، لكنهم المستفيدون بخدماتها، أدرك أنه يقترب من حتفه، سيرجمونه بالحجارة طالما عرفوا أن نقوده مزورة ومساعداته مزيفة، ستلقي به الشرطة من العربة كقربان للوحوش الجائعة، مثلما فعل الرومان مع المغضوب عليهم، ستتم التضحية به ككبش إبراهيم، حان وقت ذبحه ليفتدوا به غريب أبو إسماعيل.

انفتح باب العربة وظهر معتوق، علت الصيحات، وراحت الأيدي تصفق بلا توقف والحناجر تهتف، كأنهم يرون زعيمًا شعبيًّا كما كانوا، أو نجمًا من نجوم الكرة أو السينما مثلما أصبحوا، مضى في طابور شرف بينهم وهو يبتسم مدهوشًا لا يصدق استقبال الفاتحين الذي قوبل به.

قطع الطريق إلى بيته بصعوبة وسط الحشود الهادرة، كي تفتش الشرطة غرفته بحثًا عن آلة الطباعة والنقود، شعر أن كابوسه القديم عندما كان يرى جنازته في منامه قد صار حلمًا ورديًّا جميلًا. الكل يهتف باسمه وضد الحكومة، البعض يتهور ويحاول تخليصه من قيوده المكبل بها خلف ظهره، بعدما اصطحبه الضابط من عربة الشرطة وأحاط به عساكرها بأسلحتهم وكأنه ينوي الهروب من واقعه.

صعد الدرج حتى غرفته منتشيًا، نقبت القوات بالغرفة حتى قلبوها، ولما بلغ بهم اليأس مداه، أجلسه الضابط على مقعد، ووضع سيجارة بين شفتيه وأشعلها له، ثم سأله في ود كصديق قريب:

- فين ماكينة الطباعة يا فنان؟

خرجت تنهيدة طويلة من صدر معتوق، وابتسم ابتسامة رضا واسعة، لأول مرة تعترف الحكومة بفنه، أول مرة تمنحه اللقب على لسان أحد رجالها، صحيح أنه من وزارة الداخلية لكن لا بأس، فهي الوزارة ذاتها التي أنكرت موهبته منذ خمسة وعشرين عامًا أو يزيد عندما لم تعترف بلوحته المقلدة، مع أنها ظلت تحرسها بمتحف آخر.. ابتسم معتوق في وجه الضابط ابتسامة تائهة لكنه لم يُجب عن سؤاله بمكان الماكينة، فهو بالفعل لا يعرفه، صبر الضابط دقائق ثم استعاد طبيعته مهددًا معتوق قائلًا:

- تهمتك تزوير في أوراق رسمية وتقليد عملة الدولة وختم النسر.. من مصلحتك تعترف علشان تساعد نفسك.. فين المطبعة؟

نظر معتوق للضابط حائرًا، كيف يتخيل أنه سيعترف بهذه السهولة دون أن يحكي قصته التي من فرط غرابتها لم يعد راغبًا في رواية تفاصيلها، فربما لا يصدقه أحد، بدايتها طموح، وحكايتها سجن، ونهايتها جمعية سرية لمواطنين، ورطهم معه بعدما تخلت الحكومات عنهم تباعًا، ولا يجد لهم مخرجًا إلى الآن.

ظل يحملق في الفراغ حتى أعاد الضابط سؤاله بنبرة مختلفة عن الأولى، هذه المرة تحمل الكثير من التهديد فوق أجنحة سلطة نافذة، ارتجف معتوق وهو يبحث عن ثقب إبرة ينفذ منه للحياة مرة ثانية حتى غطى صوت آخر على صوت الضابط، عبارات تحمل الكثير من القلق بثت عبر جهاز اللاسلكي، تُنبه على القوات بالاستعداد وضرورة إحضار قوات دعم على وجه السرعة.

أرهف معتوق السمع مع ضابطه، سمعا صوت اللواء المشرف على حملة إطفاء الحريق متوترًا وهو يردد..

"انتباه عمليات، انتباه عمليات.. تجمع كبير لمواطني العزبة بالمقهى، مُهددين بتفجير أنفسهم بحزام ناسف.. على جميع القوات التراجع لمسافة كافية واستدعاء خبير المفرقعات فورًا".



33

صمْت الموجوعين أكثر صخبًا من ضجيج الظالمين، أشرق وجه معتوق لأول مرة منذ سنوات بعيدة، أغمض عينيه وهو يتخيل أعضاء الجمعية السرية راقدين على ظهورهم، يلتف حول وسط كل منهم حزام ناسف تم توصيله بموقتة تتراقص أرقامها نقصًا مع ثوان تتقافز، لكنها ستمر ثقيلة على الجميع.

تمتم بكلمات شكر بعدما وصلتهم رسالته والتفتوا إلى لوحته بمكتب شاهين، وفهموا أنه بدل فيها ووضعهم كلهم في الصدارة، فوق الجميع، الآن هم وحدهم أصحاب الكلمة العليا، الكلمة المسموعة. بعد نصف الساعة أخرجه الضابط من لوحته المتخيلة، فك قيوده، وحدّق في عينيه قائلًا بحِدة:

- تعليمات سيادة اللواء إنك تتفاوض معاهم لأنهم رافضين الكلام معانا وصمموا على حضورك، على الله بقى ترجعهم لعقلهم علشان تحسن موقفك في قضيتك، خلي بالك في وكالات أنباء بتصور ومش عاوزين فضايح قدام العالم، وعندنا تعليمات إننا ممكن نخلي سبيلك بشرط التوقف وتسليم نفسهم فورًا. وبعدها نشوف مطالبكم، فاهم والا نقول كمان؟

هز معتوق رأسه بالإيجاب ومضى في طريقه للمقهى، عشرة أمتار تفصله عنه، قطعها في دقائق عشر، أضواء الكاميرات تغشى عينيه فاستسلم لها منتشيًا، مئات المصورين والصحفيين والمراسلين الأجانب تركوا الحريق الكبير وذهبوا لتغطية الانتحار الجماعي المنتظر، تجمعوا قرب المقهى يسألونه عن أي تفاصيل أملًا في الفوز بتعليق يصلح عنوانًا رئيسيًّا، وهو يجيب بابتسامة غامضة تحمل عشرات الردود، حتى لمح ضابط المفرقعات يتراجع بسرعة من أمام المقهى، وسمع صوت مينا من الداخل يهدد بنبرة حادة أن يده موضوعة على زر المفجر.

كادت أن تفلت من معتوق ضحكة، ماذا سيحدث لهم لو كشفت الحكومة حقيقة الخطة البديلة، وعرفوا أن كل هذه الأجهزة مُفبركة، مجرد لعب أطفال من أفكاره وتنفيذ مينا العبقري، وبطولة

أهل العزبة؟ الأحزمة التي تظنها الشرطة ناسفة مصنوعة من البلاستيك وعُلب المربى القديمة، والموقت عداد رقمي يتناقص ثم يبدأ من جديد، لعبة بسيطة مضيئة من اختراع مينا تبدو من بعيد في هيئة حزام ناسف على وشك التفجير. لكنها لا تؤذي ذبابة كسولة. تنفس معتوق بعمق وعقله يدور بسرعة، لو أدركوا الحقيقة فسوف يلقون بأشلائهم للكلاب الضالة بدلًا من لحوم فتحي السِّماوي. فالعبث مع الحكومة له حدود وله شروط أيضًا، أما أن تكون الفضيحة هكذا على الملأ فلا جدوى من التراجع.

علا صوت اللواء آمرًا معتوق بالتوقف، اقترب منه وحذّره من إطالة أمد التفاوض، طالبه بالاستسلام غير المشروط وهو يخفض من صوته ويخفي فمه بيده كي لا تفضحه شفتاه أمام المراسلين والصحفيين أثناء حديثه، رغم الهمس لم تكن الغطرسة متوارية، بل ظلت تتصدر العناوين الرئيسية للحديث.. هز معتوق رأسه عدة مرات ليطمئن اللواء إلى أنه سيفعل ما يريده، لكنه كان ينفض من عقله الكلام كله.

دخل عليهم معتوق المقهى مترددًا مرتبكًا، هو الوحيد الذي يتحرك بحرية فيهم، لديه فرصة للتراجع وتحسين موقفه في القضية التي تنتظره، إلا أنه مكبل بقيود الصداقة والعشرة والجيرة، لم يجهد نفسه في البحث عن مينا، كان يتصدر الصفوف وحول بطنه جهاز بلاستيكي ضخم يصدر ضوءًا متقطعًا، كلهم راقدون على ظهورهم، مبتسمون، راضون، الكل يبدو متوقعًا للنتيجة، واثقًا في الفوز، فالخسارة باتت غير واردة.. بدوا كجمهور الكرة وهم ينتظرون هدفًا وشيكًا في الدقيقة الأخيرة من الوقت بدل الضائع.

سار ضابط المفرقعات بحذر من خلف معتوق بأمتار قليلة، لكن صوت مينا العالي وعباراته التحذيرية أثقلت قدمي الضابط، أجبرته مرة ثانية على الانسحاب، فتراجع خطوتين مع كل خطوة يخطوها معتوق للأمام، ولو اقترب الضابط أكثر لأدرك الحقيقة بعينيه، وبعدها ستقلع أعينهم جميعًا. التقت عينا معتوق ومينا، التفت معتوق فلمح اللواء يقف خلف ضابط المفرقعات متسترًا به، ثم أشار له في عصبية ببدء التفاوض، عاد معتوق ببصره لمينا سائلًا عن التوقيت المتبقي على التفجير وهو لا ينتظر إجابة محددة، ابتسم مينا ابتسامة مرحبة بالموت ورفع إصبعًا واحدة عاليًا قرب صدره ولم يزد.

نادى اللواء على معتوق مستفسرًا عن المعنى، لكن معتوق لم يُجبه، شعر بقلق خفي وهاجس غريب، هذا خروج عن النص المتفق عليه بينهم، لوهلة لم يعد يدرك هل يهزل مينا أم يتحدث بجدية، ما معنى هذه الإشارة؟ هل غافلهم وفعلها بحق وحقيق ؟ هل خرج الفتى من المِلة من فرط ما عانى ويتمتم الآن بالشهادتين رافعًا إصبع السبابة؟ أم يقصد يومًا واحدًا ومن بعده سينفجر الجميع؟! هل وضع متفجرات حقيقية بالفعل كما أخبره يومًا في أعقاب محاولة فاشلة لانتحاره وغمرة يأسه وظنه معتوق يهذي بأفكار مجنونة؟! أعاد التركيز على وجه مينا فأعطاه الإشارة ذاتها بملامح راضية مطمئنة.

ألقى معتوق نظرة على الآخرين لعل أحدهم يفيده بكلمة، لمح راوية مستلقية باسترخاء وسط أعضاء الجمعية، فتهلل وجهه ونسي أسئلته لوهلة، ثم تهللت ملامحه أكثر ونسي واقعه كله وشعر أنه يحلق من الفرحة عندما رأى زهرة ابنته ببطنها المنتفخ، عادت من الخليج لتضع مولودها هنا وسطهم، أرسل لها قبلة في الهواء وتلقى عشرات منها وهي تبتسم له، ثم راح يجول بنظره بين الآخرين فوجدهم مطمئنين، السِّت أنهار تستعدل نظارتها كمن تستعد لقراءة جريدتها مع قهوة الصباح، وزكي الساكت يلوح له بكفه مرحبًا، في حين يتأمل فارس آلته الموسيقية في شجن كأنه يستعد لإطلاق نغماتها، حتى سراج رقد بينهم بعدما خلع ساقه الخشبية وتركها بجواره، وبينما ظل سعيد راديو محتفظًا بمفكه مصطحبًا أحد أجهزته ليسلي وقته، كان السماوي يحاول تهدئة كلبه عناب وإقناعه بعدم النباح على كلاب كشف المفرقعات ليركزوا في مهمتهم.

أيقن معتوق أنه كان على حق عندما راهن عليهم، الذين لا نتوقع منهم أي شيء هُم القادرون على إدهاشنا كما كان يقول عنهم، كلهم عاشوا في انتظار مرور الصعب، ووحده العمر الذي مر، وبات الموت على الأعتاب. عاد يتفرس في ملامح مينا الهادئة فلم تشِ بإجابة واضحة، ولأن القطارات لا تنتظر الراكب المتردد، التفت معتوق إلى اللواء وأشار له بالإشارة ذاتها التي تلقاها من مينا ليزيده ارتباكًا، شعر معتوق بجلال الموقف ورهبة الحدث، لحظة الانفجار لا يُفيد فيها التفاوض ولا يُجدي معها الكلام نفعًا، إذا ما انطلقت الرصاصة أتُعيدها الوعود لخزينتها؟!

ألقى نظرة سريعة على الصفوف فلمح مكانًا خاليًا بين زكي الساكت وفتحي السماوي، صاح شنكل وهو يبتسم مصفقًا بقدميه كما اعتاد أنهم تركوه لمدحت صاحب صيدلية نور الإيمان، لكنه اختفى منذ أمس ولم يشاركهم فيما اتفقوا عليه.

تأملهم بنظرة أخيرة، الكل حاضر كما اللوحة التي رسمهم فيها لكن حالهم تبدل فجأة، كمن خافوا زيارة الموت هذا الصباح فقرروا أن يزوروه في المساء مرحبين به، كان يرجو منهم كلمة وحيدة عن سؤال بات ثقيلًا على قلبه، هل سامحوه على تشكيل الجمعية السرية للمواطنين التي ورطهم بها؟ قبل أن يتلقى إجابتهم كان يود أن يخبرهم أنه أدرك متأخرًا أنه انغمس في عصر غريب أبو إسماعيل حتى ثمالته، صنع بطلًا من ورق طار فوق رأسه وظلله، ليدخل في متاهة طرق لا تريد أن تنتهي، الآن يطلب الغفران بعدما كانت سقطته كبيرة، الآن يُعلن توبته أمامهم بعينيه وهم سيفهمونه كما فهموه طوال حياتهم بدون كلام، الآن يُعلن التوبة أمام اجتماع غير عادي للجمعية السرية، اجتماع استثنائي، ربما لن يتكرر، يقولها ضميره قبل لسانه إن حياته كلها كانت مزيفة، تزييف مُتقن، انطلى على العامة والخاصة، على الأقربين والمواطنين، لا داعي الآن لانتظار الموت كي يمارس شجاعته أمامه، الشجاعة أن يقف أمام الحياة البائسة ويتحداها.. وها هو يفعلها لأول مرة.

سكت الكلام برأسه وشعر من نظراتهم أنهم راضون عنه، ممتنون لما فعله بحسن نية لمساعدتهم.. شكرهم بصوت عالٍ على ما لم يقولوه، ولدهشته ردوا جميعًا بالدعاء له، حتى غطى صوتهم على صوت اللواء وهو ينهره في عصبية بالغة آمرًا إياه بالعودة.

نبح الكلب عناب نباحًا عاليًا وانطلق من مكانه، تمهل قليلًا ثم وقف وتمطى ليجلس بعدها على باب المقهى، قفز معتوق من فوق الست أنهار والعبقري مينا، تجاوز زكي الساكت وابتسم لشنكل، ثم رقد في المساحة الخالية بين زهرة وراوية التي همست شفتاها بكلمة أحبك، غمز لها بعينه اليسرى مبتسمًا ، أخبرها أنه سيحكي لها كل ما فات الخديوي إسماعيل أن يفعله ، طبع قبلة حانية على جبين ابنته وربت بطنها المنتفخ في رفق، ضغط على كفها مرتين فابتسمت.. ثم عقد ذراعيه فوق صدره وأغمض عينيه راضيًا، وبعد قليل علا صوت المقرئ بالترتيل من المسجد القريب في سرادق عزاء المرحوم غريب أبو إسماعيل.

" تمت "

أشرف العشماوي

21/11/2021